

أشهر جواسيس التاريخ

خفافيش الظلام التي روعت العالم
وجعلته يقف على أطراف أصابعه








تقديم

منذ أن بدأ الإنسان رحلته على الأرض، عرف الصراع مع الآخر، على مصادر المياه، أو مصادر الطعام. ومع محاولة تأمين مشربه ومأكله كان عليه أن يتجسس ليعرف متى ينقض، ومتى يتراجع، وكيف يمكن أن يحصل على مبتغاه بأقل الخسائر. وكما كان الإنسان أيضًا يتجسس على أعدائه، أو من يتقاتل معهم، كان يتجسس أيضًا على قومه، لا سيما لو كان هو كبير القوم، أو زعيم القبيلة، أو قائد العشيرة.

وهنا ظهرت الحاجة للبصاصين (جواسيس اليوم)، الذين يبعثون بهم للتجسس على الخصوم والأعداء وحتى أبناء القوم، الذين يشكون في ولائهم وإخلاصهم سواء للزعيم أو الجماعة.

ومع الوقت، ونشأة المجتمعات، والمدن والدول، أصبحت الحاجة للتجسس ذات أهمية قصوى للجميع، حتى وإن بدا الأمر غير أخلاقي لبعض الدول، إلا أنها تضطر للتجسس، لأن خصومها يفعلون ذلك، والحاجة

للمعلومة قد تكون حياة أو موتًا بالنسبة لشعوبها، خاصة في زمن الحرب.

ومع الوقت أيضًا، بدأت الدول المتقدمة تتجسس على نظيراتها حتى تتعرف على آخر اكتشافاتها، أو اختراعاتها، للأخذ بها، من خلال أسرار هذه الاكتشافات، أو الاختراعات، التي يأتي بها بالطبع الجواسيس.

ومع الوقت أيضًا، بدأت الجاسوسية تتحول إلى علم، وبدأ الجواسيس يتعرضون قبل تجنيدهم، لاختبارات عدة، ويتلقون تدريبات جادة، حتى ينضموا لقائمة جواسيس هذه الدولة، أو تلك.

ونفس ما يتم مع الجواسيس الرجال، يتم مع الجواسيس من النساء (الجاسوسات)، وإذا كان معظم الجواسيس يتمتعون من بين ما يتمتعون به بالوسامة، فإن المرأة الجاسوسة، إلا في حالات نادرة تكون جميلة الجميلات، أنوثة طاغية، وفتنة استثنائية،

لتحويلها لفخ جنسي، لاصطياد ضحاياها من حملة الأسرار، من السياسيين والعسكريين وغيرهم.

وفي هذا الكتاب سنتعرف على أشهر جواسيس التاريخ، رجالًا ونساءً، ممن جعلوا العالم يقف على أطراف أصابعه، لما فعلوه من كوارث ومصائب للدول، التي تجسسوا عليها، وأحيانًا التي تجسسوا لحسابها.

وبعد أن نتعرف في فصل تمهيدي على عالم الجواسيس والجاسوسية، سنبدأ رحلتنا مع أشهر جواسيس التاريخ. سنقرأ عن كيم فيلبي أشهر جواسيس القرن الـ 20، وماتا هاري الملقبة بنجمة الصباح، وريتشارد سورج الملقب بالرجل ذي الوجوه الثلاثة، وآلدريتش آيمز رمز العار الأمريكي، وانشراح موسى أو دينا بن ديفيد.

كما سنقرأ عن إيلي كوهين الملقب بالجاسوس المستحيل، وكلاوس فوكس الجاسوس النووي، وسيدني رايلي الذي تجسده شخصية جيمس بوند في السينما، وهبة سليم فتاة جولدا مائير المدلَّلة، وجورج

بليك الملقب برأس الذئب الطائر، وأوليج بنكوفسكي الكولونيل الجاسوس، وإليزابيث ثورب الجاسوسة العارية - كما تلقب - ودوسان بوبوف واسمه الحركي «مستر تريسكل»، ثم رأفت الهجان الذي حطم أسطورة الموساد.

كما سنتابع في هذا الكتاب قصص إيدي تشابمان الملقب بالجاسوس «الزجزاج»، وكريستين كيلر «الراقصة العارية»، وجون جارسيا الأب الروحي للجواسيس، وجنتر جويلوم جاسوس الفضائح، وولفجانج لوتز جاسوس الشامبانيا، وعلي الجراح جاسوس الموساد في لبنان، و جمعة الشوان جاسوس مصر في إسرائيل، وخميس بيومي جاسوس الموساد القاتل، و الحنان تننباوم ضابط الموساد الذي سقط في قبضة حزب اللّٰه!

كما نقرأ في هذا الكتاب عن فيرجينيا هال الجاسوسة العرجاء، وأرثر أوينز أو الرجل الثلج، وروبرت هانسن الذي كان يتقاضى ثمن تقاريره بالماس، ولورانس العرب الذى كان حربَةً فى ظهر العرب، وأمينة المفتى

أخطر جاسوسة عربية، ونبيل النحاس والسقوط في بئر الخيانة.

وفي الكتاب سنتابع قصصًا أخرى لجواسيس وجاسوسات مثل روكو مارتينو المستشار الأمني الجاسوس، وآنا مونيتس أغرب جاسوسة في التاريخ، والكولونيل فرانكلين الجاسوس من نوع خاص جدًّا، وأخيرًا يليزافيتا زاروبينا الجاسوسة التي تحمل رتبة كولونيل.

هذا الكتاب رحلة مثيرة وشيقة وممتعة في عالم الجاسوسية من خلال أشهر جواسيس التاريخ، الذين طالما استأثروا باهتمام العالم، وكانت قصصهم، ولا تزال حديث الناس، ومعهم المؤرخون والباحثون والدارسون.

مجدي حسين كامل

فصل تمهيدي

عالم الجواسيس والجاسوسية

تلعب الجاسوسية في حياة الدول دورًا حاسمًا في تشكيل سياساتها، أو اتخاذ قراراتها ومن ثم تسعى من خلال أجهزة مخابراتها لاقتناص أكبر قدر من المعلومات السرية عن الدول الأخرى التي ترتبط معها بمصالح، أو تدخل معها في عداء.

ومن المؤسف، بل ومن الطبيعي أيضا، أن تكون عملية التجسس هي الطريق الأساسي للوصول لمثل هذه المعلومات.

ولم تعد الجاسوسية عبارة عن تجسس فرد على جماعة بل وصارت إلى حد ما تجسس دول بأكملها على دول أخرى أو ربما على العالم بأكمله، مما يعطي الإحساس بأننا نعيش في عالم مملوء بالجواسيس من حولنا.

وتُعدُّ الجاسوسية مهنة من أقدم المهن التي مارسها الإنسان داخل مجتمعات البشرية المنظمة منذ فجر الخليقة.

وقد مثلت ممارستها بالنسبة له ضرورة ملحَّة تدفعه إليها غريزته الفطرية للحصول على المعرفة ومحاولة استقراء المجهول وكشف أسراره التي قد تشكل خطرًا يترصد به في المستقبل.

ولذلك تنوعت طرق التجسس ووسائله بدءًا من الاعتماد على الحواس المجردة، والحيل البدائية، والتقديرات التخمينية، والانتهاء بالثورة التكنولوجية في ميدان الاتصالات والمعلومات.

وعلى مر العصور ظهر ملايين من الجواسيس، لكن قلة منهم هم الذين استطاعوا أن يحفروا أسماءهم في ذاكرة التاريخ، بما تمتعوا به من سمات شخصية فريدة أهلتهم لأن يلعبوا أدوارًا بالغة التأثير في حياة العديد من الأمم والشعوب.

الجاسوسية عالم لا مكان فيه للمشاعر أو العواطف، قوانينه لا تعرف الرحمة، وأساسها الكتمان والسرية والجرأة، ووقوده المال والنساء منذ الأزل.

هو عالم التناقضات بشتى جوانبها، الذي يطوي بين أجنحته الأخطبوطية إمبراطوريات وممالك، ويقيم نظمًا، ويدحر جيوشًا وأممًا، ويرسم خرائط سياسية للأطماع والمصالح والنفوذ.

والتجسس فن قديم تواجد منذ خلق الإنسان على وجه الأرض، حيث بدأ صراع الاستحواذ والهيمنة، وفرض قانون القوة باستخدام شتى الأساليب المتاحة، وأهمها الجاسوس الذي يرى ويسمع وينقل ويصف، فقد كان هو الأداة الأولى بلا منازع.

وفي القرن العشرين حدثت طفرة هائلة في فن التجسس، قلبت كل النظم القديمة رأسًا على عقِب، فبظهور التليفون والتلغراف ووسائل المواصلات السريعة، تطورت أجهزة الاستخبارات بما يتناسب وتكنولوجيا التطور التي أذهلت الأدمغة للسرعة

الفائقة في نقل الصور والأخبار والمعلومات خلال لحظات.

ومع انتهاء الحرب العالمية الأولى نشطت أجهزة الاستخبارات وشرعت في تنظيم أقسامها الداخلية للوصول إلى أعلى مرتبة من الكفاءة والإجادة، ورصدت لذلك ميزانيات ضخمة للإنفاق على جيوش من الجواسيس المدربين، الذين انتشروا في كل بقاع الأرض، ولشراء ضعاف النفوس والضمائر، كل هؤلاء يحركهم طابور طويل من الخبراء والعلماء، تفننوا في ابتكار وإنتاج أغرب الوسائل للتغلغل والتنصت وتلقط الأخبار ومغافلة الأجهزة المضادة.

كما تغيرت أيضًا نظريات التجسس، التي اهتمت قديمًا بالشؤون العسكرية في المقام الأول، إذ اتسعت دائرة التحليل الإستراتيجي والتسلح، وشملت الأمور الاقتصادية والاجتماعية والفنية والعلمية والزراعية.. إلخ.

وفي النصف الأخير من القرن العشرين، طورت أجهزة الاستخبارات في سباق محموم للتمييز والتفوق، وظهرت طائرات التجسس، وسفن التجسس، ثم أقمار التجسس التي أحدثت نقلة أسطورية في عالم الجاسوسية لدى الدول الكبرى، استلزمت بالتالي دقة متناهية في التمويه اتبعتها الدول الأقل تطورًا، التي لجأت إلى أساليب تمويهية وخداعية تصل إلى حد الإعجاز،كما حدث في حرب أكتوبر 1973 على سبيل المثال.

وبينما كان الصراع على أشده بين الشرق والغرب، بين حلف وارسو وحلف شمال الأطلسي، كان في الشرق الأوسط أيضًا صراع أشد قوة وحدة وعدائية بين العرب وإسرائيل، العرب يريدون دحر إسرائيل التي زرعها الاستعمار في قلب الوطن العربي، تشبثت بالأرض، وتنتهج سياسة المجازر والعدوان، وتنتهك كل القوانين والأعراف الدولية في وقاحة.

واشتعل الصراع، وتأججت الحروب السرية بين المخابرات العربية والإسرائيلية، وكانت بلا شك حروبا

شديدة الدهاء، موجعة الضربات، تقودها أدمغة ذكية تخطط، وتدفع بمئات الجواسيس إلى أتون المعركة، يتحسسون نقاط الضعف والقوة، ويحصدون المعلومات حصدًا.

ويمكن تعريف الجاسوس على حسب ما جاء في اتفاقية لاهاي - المادة 20: بأن الجاسوس هو الشخص الذي يعمل في الخفاء أو تحت شعار كاذب، ليحصل على معلومات عن العمليات العسكرية لدول محاربة بهدف إيصالها للعدو.

وكما يعمل الجواسيس في وقت الحرب فهم أيضًا في وقت السلم، بهدف الحصول على معلومات لتعزيز جبهة الدولة التي يتجسسون لحسابها في حالة نشوب حرب جديدة، كالحصول على معلومات عن تطور الأسلحة الحربية في الدول الأخرى، وما وصلت إليه من تكنولوجيا حديثة.

وأيضا من أجل تقوية الصراع القائم بين الدول على القواعد الإستراتيجية، والسيطرة على مناطق النفوذ،

والاستفادة من الاضطرابات السياسية في بقاع العالم المختلفة كمشكلة فلسطين ومشكلة العراق، عن طريق دس الفتن والمؤامرات السياسية لخدمة مصالحها السياسية والإستراتيجية.

ومن أهم ما يجب أن يتحلى به الجاسوس حتى ينجح في مهمته هو الذكاء وحسن البديهة والفراسة، فبهذه الصفات يستطيع أن يلتقط المعلومات بسرعة، ويحلل الأمور، ويستخلص النتائج.

كما يجب أن يتصف باللباقة وحسن التصرف وهي أهمية خاصة حين تتأزم الأمور ويبقى عليه أن يختار بين الموت والحياة. وهذا إلى جانب ضرورة إلمامه الجيد بلغة البلد الأجنبية التي يقوم فيها بمهمته، وأيضا معرفته لعادات وتقاليد الناس في هذا البلد.

كذلك ينبغي أن يتصف أي جاسوس بقوة الذاكرة بحيث يستطيع حفظ الوجوه وتسجيل المعلومات في رأسه دون أن ينسى منها شيئًا. وقبل كل هذه الصفات، يجب أن يتحلى الجاسوس بالشجاعة وحب المغامرة..

فلا قيمة لأية صفة من الصفات السابقة، إذا شعر الجاسوس ولو لمرة واحدة بالخوف أثناء مهمته.

وهناك الجاسوس المزدوج، هو الجاسوس الذي يعمل لحساب دولتين في وقت واحد (جاسوس بوجهين) وهو أذكى وأخطر أنواع الجواسيس فلا يمكن أن ينجح في هذه المهمة سوى الشخص الذي يتصف بالذكاء والمكر الشديدين حتى يستطيع أن يكسب ثقة الطرفين، ويخدع كلا منهما في نفس الوقت، وغالبا ما تكون حياة الجاسوس المزدوج هي رهن لأي خطأ بسيط قد يقع فيه دون قصد، لكن ما يحققه من مكاسب كبيرة من هذه اللعبة الخطرة يجعله لا يبالي حتى بحياته في سبيل ما يحصل عليه من أموال من كلتا الدولتين.

ويعد الجنس أحد أخطر سلاح تستخدمه المخابرات في عالم الجاسوسية، ومن هنا كان تركيز الأجهزة المخابراتية عبر التاريخ للمرأة الجاسوسة للإيقاع بكل مصادر المعلومات من مسؤولين سياسيين وعسكريين وغيرهم ممن يحتفظون بأسرار بلادهم الخطيرة..

فمن أسلحة المرأة الجاسوسة أنوثتها الطاغية واستخدامها في إغواء وإغراء الرجل في فخاخ سحرها، مستغلة ضعفه أمام جمالها وأنوثتها واستسلامه أمامها وإفشائه لأسرار هامة يمتلكها وهو في مواقع المسؤولية المختلفة.

وتؤكد أرشيفات أجهزة المخابرات وتاريخ الجاسوسية عمومًا إلى أن كثيرًا من الجواسيس الرجال والنساء لم يترددوا في استخدام الجسد للوصول إلى هدفهم، ويمكن ربط هذا بحقيقة أخرى تتلخص في أن أغلب من عملن بالتجسس كنَّ ممن يتمتعن بالجمال الفائق أو الجمال بحده الأدنى.

ولعلنا حين نسمع كلمة جاسوسية يتبادل المعنى في أذهاننا مرتبطًا بصورة المرأة الجميلة الجذابة التي تُفقد الرجال عقولهم وتسيطر عليهم وتدفعهم نحو ما تريد.إن أغلبية أجهزة المخابرات في العالم تستعين بالساقطات المنحرفات جنسيًا لخدمة أغراضها، حيث يسهل إغراؤهن بالمال أو التستر على فضائحهن أما في المؤسسات فلا، إذ يتم اختيارهن من بين

المجندات -مثلًا بجيش الدفاع الإسرائيلي- أوالموظفات بالأجهزة الأمنية والسفارات أو المتطوعات ذوات القدرات الخاصة، ويخضعن لتدريباتٍ معقدة عن الذكاء وصفاتهن المعبرة عن نفسها في مختلف الأمزجة، إنهن باختصار نسوةٌ مدربات على التعامل مع نوعية خاصة من البشر استرخصت بيع الوطن في سبيل لذة الجنس، ومن هنا ندرك أنهن نساءٌ أخريات يختلفن عن سائر النساء.

وعالم الجاسوسية عالم متوحش، لا يقر بالعلاقات والأعراف، ولا يضع وزنًا للمشاعر، قوانينه لا تعرف الرحمة، أساسها الكتمان والسرية والجرأة، ووقودها المال والنساء والشهوة.

عالم يطوي بين أجنحته الأخطبوطية إمبراطوريات وممالك ويقيم نظمًا ويدمر جيوشًا وأممًا ويرسم خرائط سياسية للأطماع والمصالح والنفوذ، فمنهن من باعت الوطن والدين في سبيل حبها للآخر العميل وأخرى اعتنقت ديانة أخرى في سبيل إرضاء حبيبها الجاسوس، ومنهن أيضًا من عملت ضد وطنها وضمت

أفراد عائلتها والمحيطين بها في دهاليز الجاسوسية، أو خانت قدسية زواجها ووطنها في سبيل لذة جنسية مع العدو.

رغم أن الجاسوسية لعبة قديمة إلا أنها لا تنتهي.. كانت وستظل أحد أخطر الأسلحة التي تلجأ إليها أجهزة الاستخبارات في العالم لحماية دولها أو أنظمتها السياسية من قوى معادية تتربص بها، بكشف ما تضمره لها من مؤامرات ومخططات فتحتاط، أو لمعرفة مواطن القوة لدى الأعداء والخصوم لضربها، أو حتى لدى الأصدقاء لوضعها في الحسبان عندما تسوء الأمور، أو تكون هناك حاجة لإبرام صفقات، أو عقد مفاوضات.

ولكن بعد نهاية الحرب الباردة باتت الجاسوسية عملية أكثر تعقيدًا من ذي قبل، بل وأصبح من الصعب للغاية كشفها. وبحلول الألفية الثالثة، راح العالم يشهد نوعًا جديدًا من التجسس تمتزج فيه عبقرية العلماء في القرن الحادي والعشرين من خلال ما يقدمونه من تقنيات متطورة بعبقرية جواسيس القرن بما يتمتعون

به من قدرة على الاختراق، واحترافية في التخفي، والأخطر تواجدهم في مواقع شديدة الحساسية، تجعل ما يقدمونه من أسرار يسيل له لعاب موكليهم، في الوقت الذي تضرب هذه الأسرار أمنهم القومي في الصميم!

رغم وجود أكثر الأقمار الاصطناعية والمراقبة الإلكترونية تطورًا في هذا القرن، إلا أنها لم تستطع أن تحل محل العميل الموجود في المكان المناسب القادر على الوصول إلى أدق المعلومات والأسرار الحساسة والمحمية جيدًا. كما شهد القرن الحالي أنواعًا جديدة من الجواسيس مثل «جواسيس التكنولوجيا»، و«جواسيس الإنترنت» وغيرهم، مع بقاء الأسلحة التقليدية للتجسس كالمال والجنس!

وتكمن المعضلة في أن معظم الجواسيس، الذين سقطوا، لم يتم اكتشافهم إلا بعد سنوات طويلة من عملهم الشيطاني، وتمريرهم أخطر وأدق الأسرار للأعداء، وغالبًا ما تم اكتشافهم نتيجة ارتكابهم أخطاء غير مقصودة، رغم حرصهم الشديد، أو وشاية قدمها

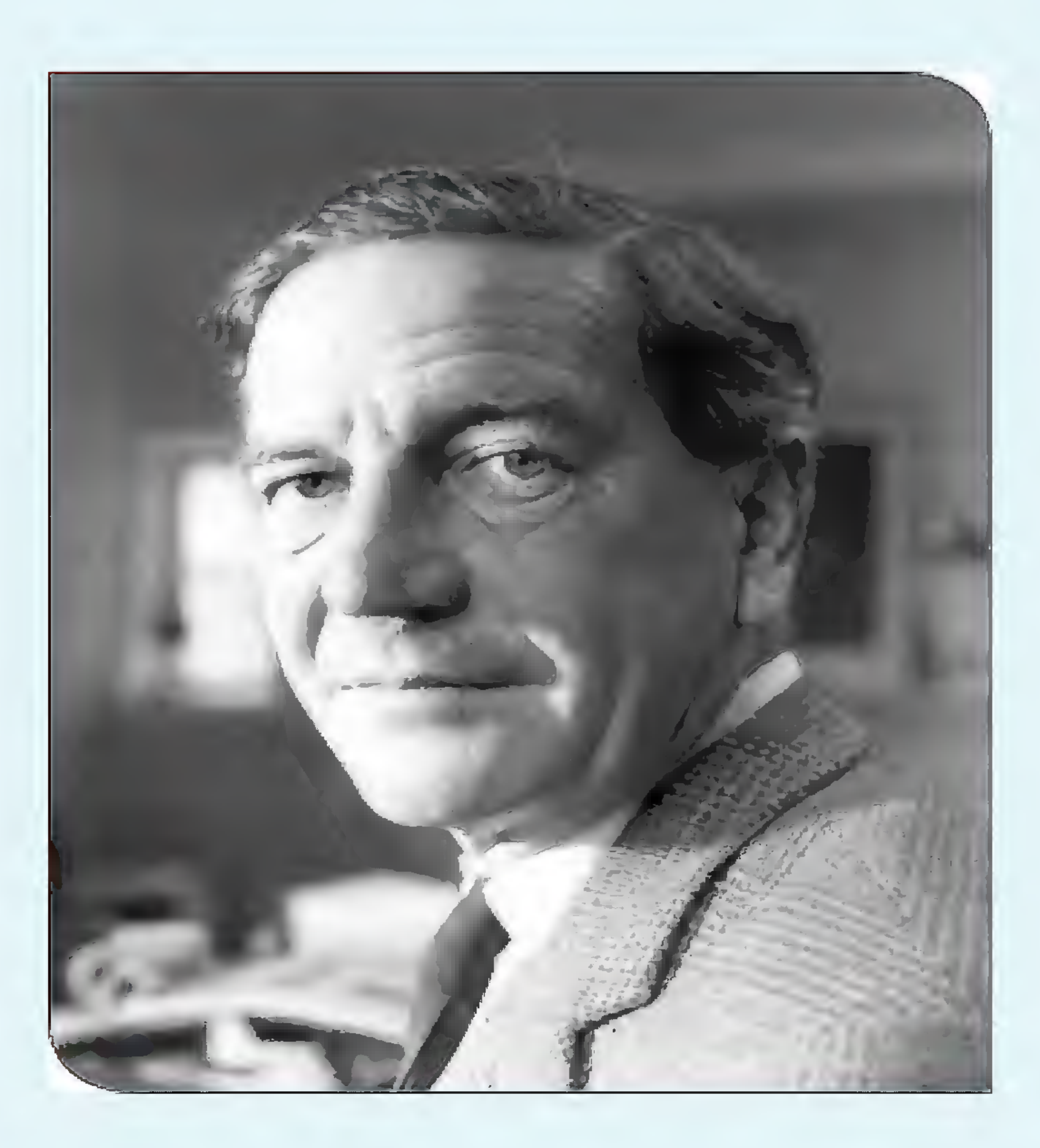
جاسوس منافس صديق، حيث إن الكثير من عمليات التجسس تمضي دون اكتشاف.

ومعضلة أخرى تتعلق بالكشف عن الجواسيس - إذا حدث - وهي الصدمة التي تسببها لأنظمة الحكم، التي تبدو أمام شعبها في وضعية من قصَّر في حماية الوطن، أو وضعية السذج الذين لا يستطيعون معرفة الخائن من المخلص في أجهزتهم، عندما يكون الجاسوس من بين عناصرها أو أفراد إحدى إداراتها!

1

كيم فيلبي..

أشهر جواسيس القرن الـ 20



هذا هو أشهر جواسيس القرن العشرين. قصة حياته أغرب من الخيال. وربما لم يحظ جاسوس عرفه العالم بمثل ما حظي به هو من شهرة واهتمام. وكما كانت بداية انخراطه في عالم الجاسوسية مثيرة، كانت نهايته بمثل القدر من الإثارة. أما ما بين البداية والنهاية فكان هو الجزء الأكثر إثارة من حياته.

كان كيم فيلبي مسؤولًا كبيرًا في جهاز المخابرات البريطانية عن مكافحة نشاط المخابرات السوفييتية «كي.بي.جي»، لكن السوفييت جندوه لحسابهم، رغم أنه كان مرشحًا لتولي إدارة المخابرات البريطانية.

وحين انكشف تجسسه لحساب السوفييت عام 1963، كانت الفضيحة مدوية في بريطانيا والغرب بل والعالم، ووتضاعفت أصداء الفضيحة عندما تمكن من الهرب إلى روسيا، حيث أمضى فيها بقية حياته.

وقلما نجد جاسوسًا لفت الانتباه كما فعل هارولد أدريان روسيل الشهير بكيم فيلبي.

كان فيلبي عبثيًا ومتعجرفًا وتهكميًا وعظيم الثقة بالنفس، وأيضا كان جاسوسًا ذكيًا، تمكن بكل مهارة من التفوق على وكالات التجسس البريطانية التي عمل معها.

ولكن فيلبي كان أيضًا ماركسيًا مخلِصًا، وضحى في سبيل الماركسية بكل شيء بما في ذلك جنسيته وسمعته ووطنه وأمته.

وفيلبي مثل الكثير من الجواسيس في الاستخبارات البريطانية لم يكن عليه أن يبذل جهودًا كبيرة لينجح في عمله، فقد ولد في الهند البريطانية لأسرة تنتمي للطبقة العليا وكان والده ضابطًا مدنيًا ذا رتبة عالية.

وعقب تخرجه في إحدى المدارس الأرستقراطية عام 1928، التحق بجامعة كامبردج وتخرج فيها عام 1933 من كلية ترنتي التي كانت أول بناء في عمله كجاسوس سوفييتي مزدوج.

ففيها قابل شبابًا مثله سوف يصبحون جواسيس سريين لموسكو مثل أنطوني بلانت وجاي بورجيس ودونالد ماكلين وآخرين.

وكانوا جميعًا قد أقسموا في وقت مبكر على الولاء للشيوعية وتم تجنيدهم كجواسيس للسوفييت، وإن كان فيلبي الذي عرف بشدة حذره لم ينضم أبدا للحزب الشيوعي، بل استغل الأموال التي كان والده يمده بها ليمضي عطلاته الصيفية في فرنسا والنمسا.

وفي عام 1932، ذهب إلى ألمانيا ليشهد الانقلاب المفاجئ الناتج عن انتخاب فرانز فون بابن كمستشار لألمانيا وانتخاب النازيين للرايخ.

وكما يذكر فيلبي في مذكراته فقد حرص على دراسة الوضع السياسي هناك حيث شارك في حروب شوارع دارت في ألمانيا، وانضم إلى الشيوعيين في صراعهم ضد أصحاب القمصان البنية (النازيين)، وعاد إلى كليته بجرح غائر في رأسه ادعى أنه نتج عن عاصفة أسقطته على قضيب معدني.

وبعد ذلك عاد مرة أخرى إلى ألمانيا حتى صادف مروج الدعاية والناشر الشيوعي ويلي مزنبرج، الذي ساعده في إقامة مؤتمر السلام العالمي مع اللورد روبرت سيسيل، الذي رأس المؤتمر.

وفي هذا الوقت، ارتبط فيلبي وأصدقاؤه بشكل عميق بالشيوعية وجندهم الحزب الشيوعي على يد رؤسائه مثل روي باسكال وموريس دوب.

ومن الواضح أنهم كانوا مستعدين للتجسس على إنجلترا البلد الذي تخلوا سرًّا عنه في سنواتهم الأولى في الجامعة.

وعند تخرجه عمل فليبي في الصحافة وبحث عن وظيفة في صحف سياسية معتدلة وأخفى معتقداته الشيوعية.

وعندما اندلعت الحرب الإسبانية حصل فيلبي على عمل كمراسل لصحيفة لندن وهي وكالة صحافة صغيرة لتغطية الحرب.

ولكنه في الواقع كان قد أرسل إلى إسبانيا من قبل السوفييت للتجسس على الثوار ضد الجمهوريين. وجند فيلبي وبورجيس نفسيهما مع البعثة الدراسية الأنجلو - ألمانية، وحضرا حفلات عشاء رسمية، أقيمت بهدف جلب تمويل للجماعات النازية إذ كان الصليب المعقوف -شارة الحزب النازي- يظهر بوضوح على الموائد الطويلة، ولكن عضويتهما لهذه الجماعة كانت لحساب «كي.جي.بي».

وكان انتماء فيلبى إلى عضوية جماعة البعثة «الأنجلو ألمانية» جعله يبرز نفسه كصحفي ورُحب به في مراكز قيادة فرانكو.

وتحرك من مدينة إلى أخرى وهي تحتل من قبل فرانكو وكان ينقل المعلومات من القادة الثوار ويرسلها إلى القيادات الشيوعية، وهي المعلومات التي كانت تراها موسكو أنها الأكثر أهمية.

وعندما انهار الحزب الجمهوري عام 1939 استخدمت صحيفة «تايمز» البريطانية فيلبي كمراسل لها في

ألمانيا.

هنا كان فيلبي في موقع ممتاز للتجسس على النازي لحساب السوفييت، ثم عاد إلى إنجلترا واندلعت الحرب بين بريطانيا وألمانيا، ولكنه أرسل إلى فرنسا.

وفي هذا الوقت أصبح مراسلًا حربيًّا متمرسًا وأظهر احترامًا زائدًا للقائد الأعلى البريطاني. وتمكن من الدخول إلى الأسرار العسكرية الأكثر أهمية والتي كان يرسلها إلى موسكو.

وعندما سقطت فرنسا، عاد إلى إنجلترا مرة أخرى. وعلى الرغم من عضويته في البعثة الأنجلو ألمانية إلا أنه قرر الانضمام إلى خدمة الاستخبارات البريطانية السرية، وتمكن ببراعة لا توصف من الانضمام إلى الاستخبارات السرية.

وفي مذكراته، يذكر تفاصيل تلك الفترة قائلا: «في صيف عام 1940 كانت المرة الأولى التي أقيم فيها اتصال بالخدمة السرية البريطانية، ولكن الأمر كان

قضية مثيرة بالنسبة لي لعدة سنوات في ألمانيا النازية، وفيما بعد في إسبانيا حيث خدمت كمراسل لصحيفة «تايمز» مع قوات الجنرال فرانكو».

وفي جزء آخر يكتب: «قررت أن أترك «تايمز» قبل أن تتركني لأن فكرة أن أظل أكتب ممجدًا عظمة القوات البريطانية، وروعة أخلاقيات جنودها للأبد كانت فكرة ترعبني».

وأضاف فيلبي في مذكراته: (المنظمة التي ارتبطت بالعمل بها كانت تطلق على نفسها لقب «خدمة الاستخبارات السرية»، أو كما كانت تعرف على نطاق واسع «إم 15» (جهاز الاستخبارات البريطانية الذي يحمل نفس الاسم حتى الآن) بينما كانت للعامة الأبرياء هي فقط الخدمة السرية، وكانت سهولة دخولي قد أدهشتني، وفيما بعد أدركت أن الاستعلام الوحيد الذي قامت به «إم 15» عني قبل التحاقي بها كان مجرد الاطلاع على اسمي في سجلاتهم والانتهاء بنتيجة مقتضبة تقول لا يوجد له سجل إجرامي، لذلك فإن كل فضيحة تجنيد جاسوس جديد في الإجراءات

البريطانية، يمكن أن تعود إلى قصة تجنيدي الغريبة وشديدة السهولة).

وتمكن أيضًا رفيقا فيلبي، بورجيس، وماكلين من الحصول على مناصب مهمة في الحكومة مكنتهما من الاطلاع على أسرار غاية في الأهمية.

وتمكن فيلبي أثناء عمله من أن يمنح المراقبين السوفييت كل جزء من المعلومات السرية التي تمكن من الحصول عليها.

ومع نهاية الحرب أصبحت إنجلترا والولايات المتحدة أقل ثقة في حليفهما السوفييتي وأدركا أن جوزيف ستالين لديه خطط ما بعد الحرب تتضمن الاستيلاء والسيطرة على دول وسط أوربا أثناء تحررها من الألمان.

وأراد تشرشل أن تتم مراقبة السوفييت عن قرب، وكما يذكر فيلبي فقد اقترح إنشاء مكتب مقاومة للشيوعية داخل الاستخبارات البريطانية، في حين

أدرك المشرف عليه أن فيلبي كان على صلة بضباط سوفييت ذوي رتب عليا في إنجلترا ودول أخرى.

وبهذا تمت الموافقة على خطة فيلبي التي أبهجت المشرف عليه السوفييتي أناتولي ليبيديف الذي استبدل ببوريس كورتوف مدير الاستخبارات المسؤول عن عمليات فيلبي التجسسية لصالح «كي.جي.بي» والذي أشرف لفترة طويلة على عمليات فيلبي.

ويقول فيلبي عن القسم الجديد الذي أنشأه، إن مكتبه كان مكونًا من طابق واحد فوق مكتب خدمات العمليات السرية الأمريكية، الذي ضم كلًّا من ويليام دونوفان وألين دالس أشهر رجال الاستخبارات الأمريكية في الحرب العالمية الثانية واللذين كان يراهما باستمرار وهما يأتيان للمبنى حتى أصبحا أصدقاء له، وكان كما يقول قد تمكن بسهولة من الحصول منهما على معلومات قيمة مكنته من التسلل إلى الاستخبارات الأمريكية التي أصبحت فيما بعد بقليل «وكالة المخابرات الأمريكية» «سي.آي.إيه».

وفي عام 1949، تم إرسال فيلبي إلى واشنطن كسكرتير أول للسفير البريطاني وكان يعمل كضابط اتصال بين «سي.آي.إيه» و«إم 15».

وبعد عام وصل رفيق فيلبي في التجسس لحساب السوفييت بورجيس إلى واشنطن ليعمل معه في نفس المكتب، وسرعان ما قاما معًا بمواصلة إرسال الأسرار إلى موسكو، ومنها بيانات غاية في السرية عن الأبحاث النووية التي يقوم بها حلف شمال الأطلنطي «الناتو».

وفي عام 1951، كان فيلبي أُرهق -تمامًا- من العمل كعميل مزدوج، وبدأ يرتكب الأخطاء الفادحة، ويفشل في إرسال المعلومات المهمة إلى السوفييت بسبب إسرافه في الشراب وعلاقاته النسائية، في حين أن بورجيس كان قد أصبح مدمن خمور، وسرعان ما قام بالكثير من الأخطاء والسلوكيات التي أغضبت بريطانيا، فتمت إعادته إلى لندن.

وقتها علم فيلبي أن «إم 15» كانت اشتبهت منذ فترة في دونالد ماكلين وأنها كانت على وشك اعتقاله مع بورجيس، وقام فيلبي بإبلاغ بورجيس.

وفي تطور مفاجئ للأحداث هرب كل من بورجيس وماكلين فجأة إلى موسكو، وكانت فضيحة هزت عالم الاستخبارات البريطانية والغربية بوجه عام. ولكنهما لم يكتفيا بهذا، بل عقدا مؤتمرًا صحفيًا في موسكو في 12 فبراير عام 1956، انتقدا فيه الدول الغربية ووصفاها بــ «الفاسدة والقمعية»، وأعلنا أنهما قد يئسا من تحسن الأمور ولهذا قررا أن يتركا بلديهما.

وقد ظل فيلبي لفترة آمنًا، ولكن بعدما جندت «سي.آي.إيه» الجاسوس التركي أحمدوف آغا، قدم ملف كيم فيلبي وساق الأدلة على كونه جاسوسًا مخلصًا لروسيا.

وعندما عاد فيلبي إلى إنجلترا واجهته «إم 15» بالمعلومات. وقرر في النهاية أن يخضع لاستجواب

طويل ودقيق اضطر فيه إلى إنكار أي اتصالات له مع السوفييت.

وقال إنه تم التشكيك به فقط، لأنه كان زميل كل من بورجيس وماكلين في الجامعة، ولكنه بريء تمامًا من هذه التهمة.

وبعد التحقيق، تقدم فيلبي بالاستقالة من مكتب الخارجية، وأجر شقة في لندن وعمل في بيع العقارات وأعمال تجارية أخرى معظمها في أوربا، ولكن السلطات البريطانية ظلت متشككة منه، في حين دافع آخرون عنه بشكل متحمس، ومنهم رئيس الوزراء البريطاني هالود مكملين، الذي قال -رسميًّا- إنه مواطن بريطاني صالح خدم بلده ببطولة.

وأدى هذا إلى قيام «إم 15» بإعادته إلى العمل مرة أخرى، ويفسر فيلبي في مذكراته الأمر بأن المجتمعات الاستخبارية البريطانية أخفت هويته حتى لا تكشف عن مدى سذاجة أعضائها الذين تم خداعهم من قبل

عميل سوفييتي مزدوج قاموا هم أنفسهم بتنشئته وترقيته والتودد إليه.

ولكن الشك في فيلبي تكرر مرة أخرى في 12 سبتمبر عام 1962، عندما تم القبض على جاسوس سوفييتي آخر هو أناتولي جوليستن، الذي أبلغ عن كيم فيلبي.

وفي 23 يناير 1963، ترك فيلبي أسرته وهرب إلى الاتحاد السوفييتي، في حين انتظرته زوجته في حفل عشاء.

وسار عبر مرفأ في ميناء بيروت، ومن هناك استقل سفينة إلى الميناء الروسي أوديسا، وعاش فيلبي لعدة شهور في فولجا على بعد آلاف الأميال من موسكو.

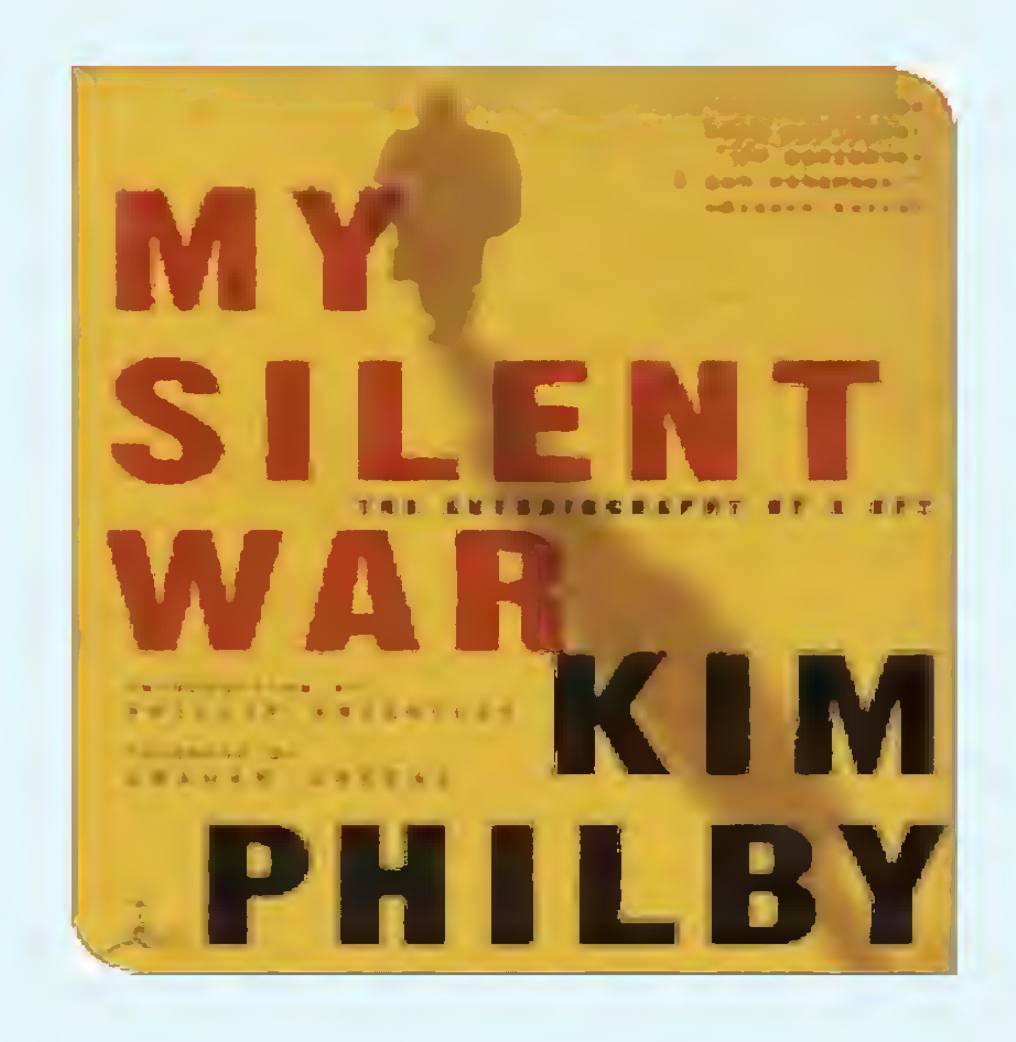
وعندما وصل موسكو كان بورجيس قد توفي إثر أزمة قلبية وكانت وفاته بسبب الإفراط في الشراب.

وتمكن فيلبي من أن يكون النموذج المثالي للجاسوس الشيوعي، وقد منحه السوفييت مكتبًا في مراكز قيادة الـ «كي.جي.بي» ولقب (جنرال).

كما تم منحه وسام لينين الذي كان يظهره بكل فخر لأصدقائه البريطانيين، الذين كانوا يزورون موسكو.

وظل فيلبي حتى النهاية يسخر من بلده الأم إنجلترا، ولم يعتبر نفسه أبدا خائنًا لبلده بريطانيا، أو كما كتب في مذكراته: «حتى تخون يجب أن تكون منتميًا أولا، وأنا لم أنتم أبدًا لهذا النظام المنافق في بريطانيا».

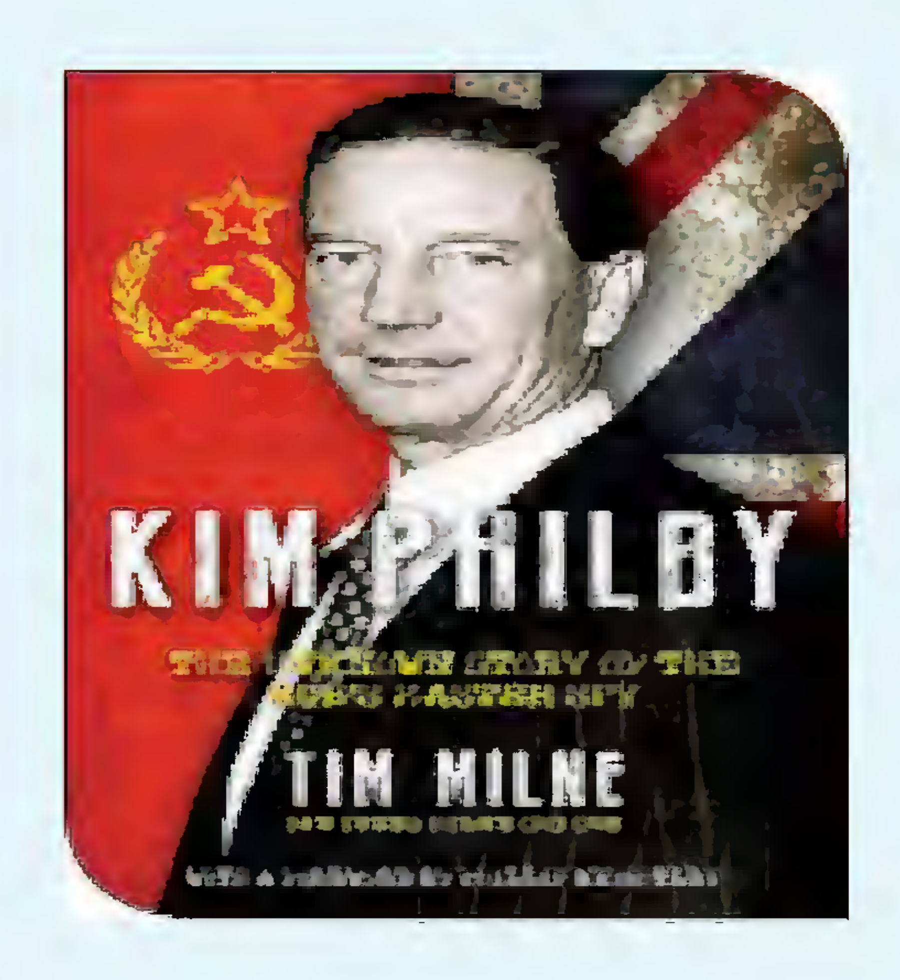
وفي مايو عام 1988، توفي فيلبي. وكان قد ذكر في نهاية مذكراته أنه يريد أن يدفن في الاتحاد السوفييتي «في هذا البلد الذي اعتبرته بلدي منذ الثلاثينيات»!

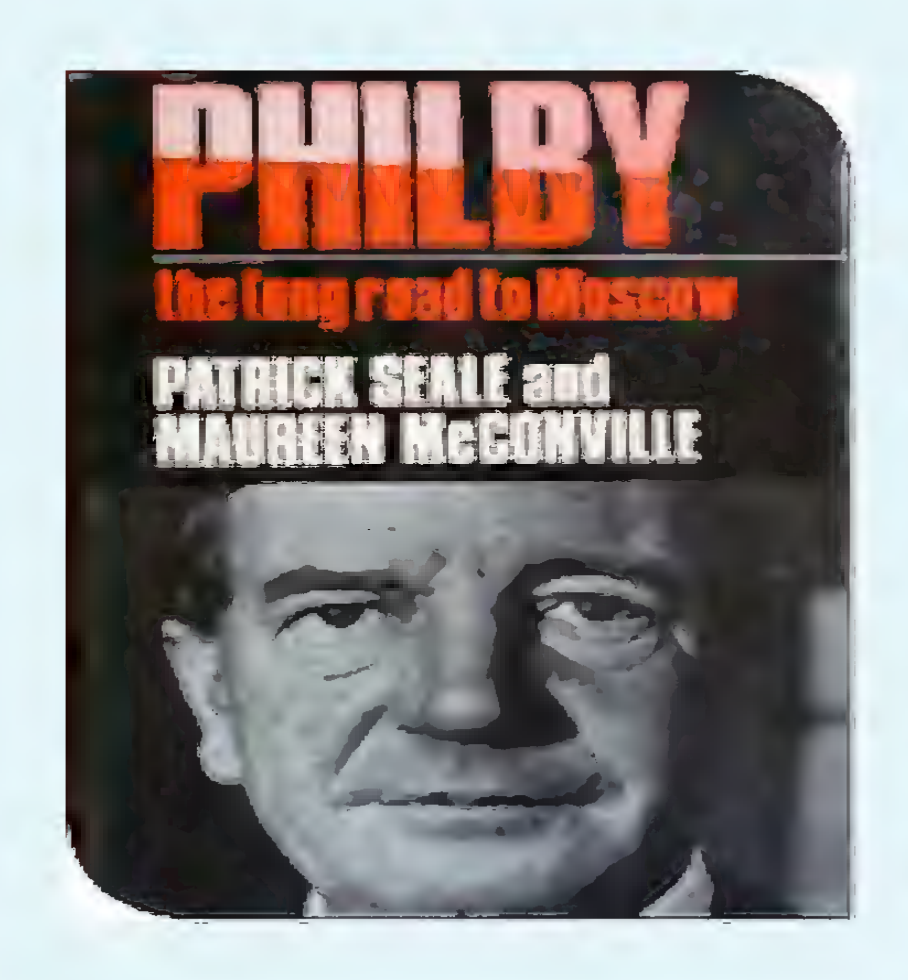


مذكرات كيم فيلبي «حربي الصامتة» التي أصدرها بعد هروبه وإقامته حتى وفاته في روسيا، والتي يروي فيها أسرار عمله كجاسوس مزدوج.



أحد الطوابع التذكارية، التي أصدرتها روسيا تقديرًا لخدمات الجاسوس البريطاني الأشهر كيم فيلبي


KIM PHILBY
TIM MILNE

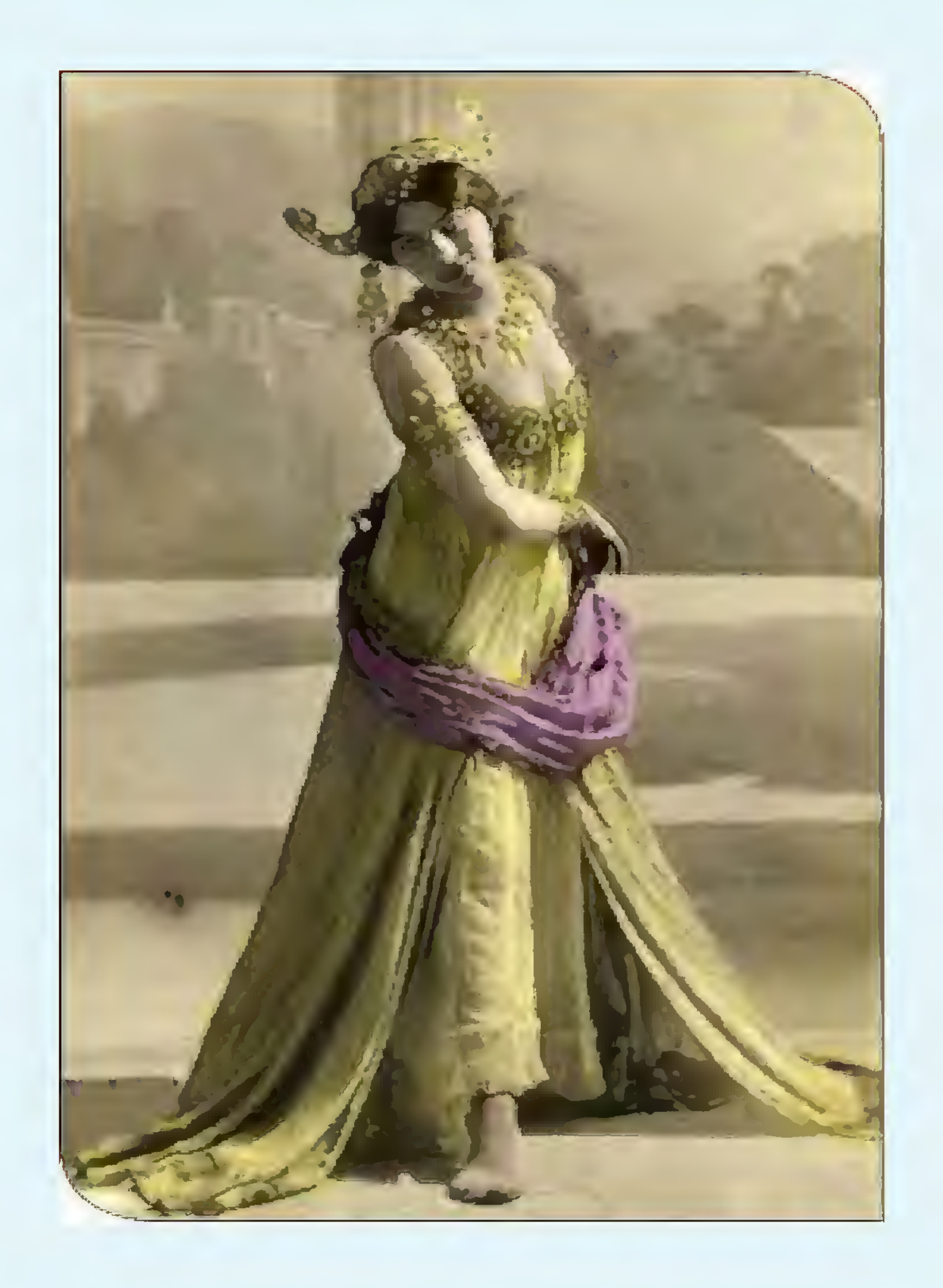

PHILBY
the long road to Moscow
PATRICK SEALE and
MAUREEN McCONVILLE

كتابان من عشرات الكتب التي تناولت حياة الجاسوس الأشهر فيلبي.

2

ماتا هاري..

نجمة الصباح!



لوا إنها وُلِدَت لتكون ملكة، ولكنها قررت أن تكون راقصة، ثم قررت أن تكون أشهر جاسوسة في التاريخ،

وقبل كل هذا وذاك كانت قد قررت أن تكون شيطانًا يتجسد في صورة امرأة!

اسمها الحقيقي «مارجريتا زيلا»، ولدت عام 1876 من أم إندونيسية وأب هولندي. ماتت أمها وهي في الرابعة عشرة من عمرها وسرعان ما مات أبوها بعدها.

وكانت طفولة مارجريتا سعيدة وهادئة، لكن تدليل والديها لها ترك أثرا مدمرًا على شخصيتها، إذ أفسدها هذا الدلال وولَّد لديها صفات الغرور والأنانية، كما جعلها تتطلع دائمًا إلى جذب انتباه الرجال وتتوقع منهم دائمًا الاهتمام.

ولكن سعادة مارجريتا لم يكن مقدرًا لها أن تدوم طويلا، ففي عام 1889 خسر والدها جميع استثماراته في صناعة النفط وأشهر إفلاسه، ومع غياب المال بدأت المشاكل تثور بين والديها لأتفه الأسباب، حتى وقع الطلاق بينهما، وغادر الأب منزل العائلة إلى الأبد.

ولأن المصائب لا تأتي فرادى -كما يقولون- لم تلبث والدة مارجريتا أن ماتت عام 1891 فانتقلت الفتاة للعيش في منزل جدها، الذي كان عجوزًا قاسيًا ومتسلطًا إلى أبعد الحدود.

في مراهقتها تفتحت مارجريتا مثل وردة وحشية، بعينيها السوداوين الواسعتين وشعرها الأسود الداكن، لتبدأ أنظار الرجال تنجذب إليها كالمغناطيس وصارت عيونهم النهمة تطاردها.

الفتاة نفسها لم تكن بريئة من تهمة إغواء الرجال لأنها شعرت مبكرًا بسحرها وتأثيرها عليهم، وقد مارست ذلك السحر منذ سن السادسة عشرة حين أقامت علاقة غير مشروعة مع مدير مدرستها، مما أدى إلى فضيحة مدوية انتهت بفصلها من المدرسة، وهروبها من بيت جدها الغاضب عما فعلته إلى بيت أحد أعمامها.

وعندما أصبحت مارجريتا، أو «ماتا هاري» ومعناها «نجمة الصباح» بالإندونيسية كما لقبوها فيما بعد، في

الثامنة عشرة التقت بالكابتن ماك ليود فشغف كل منهما بالآخر، وبعد قصة حب عميقة تزوجها، لكن الكابتن الوسيم كان «زير نساء»، يهجر بيته فترات طويلة وينطلق وراء حياة السهر والمجون ومصاحبة الفتيات ثم يعود.

وبعد زواجهما بسنة أنجبت «ماتا هاري» طفلًا مريضًا مات بعد سنة، ثم أنجبت طفلة أسمتها «باندا».

مرة اصطحب الكابتن زوجته الشابة إلى البلاط الهولندي، فأدهشت الحاضرين بجمالها الغريب وملامحها الشرقية، فشعرت حينئذ أنها لم تخلق للعيش بعيدًا عن الأضواء والترف والبذخ.

عُيّن الزوج بعد ذلك في مدينة «جافا» في الهند، وعاد لحياة السهر واللهو ولعب القمار، وكانت «ماتا هاري» تجيد الرقص الشرقي، فقد تعلمته من المعابد الهندوسية التي كانت تزورها، وكانت الحياة قد استحالت بينها وبين زوجها بسبب طموحها في الرقص، وتطور الأمر حتى انفصلا، وقد أخذ معه ابنته

التي توفيت لاحقًا في عمر «21» عامًا. جن جنونها وفشلت في البحث عن ابنتها فقررت الرحيل إلى باريس عاصمة النور والجمال، وأخذت ترقص في الملاهي، ومرة فوجئت بأحد ضباط المخابرات «الألمانية» في حجرتها، وعرض عليها العمل مباشرة لحساب المخابرات «الألمانية»، فوافقت وبدأت بتوطيد علاقاتها مع المسؤولين «الفرنسيين» وكبار قادة الجيش وأخذت المعلومات العسكرية تتسرب إلى «الألمان» على نحو أقلق رجال الأمن الفرنسي.

وبدأت الحرب العالمية الأولى سنة «1914»، وإذ بالراقصة الحسناء تغدو ممرضة في جيوش الحلفاء، كان الضباط يعجبون بـ«ماتا هاري» الممرضة ويفتنون بها، وكانوا لا يكتمونها سرًّا فتلاقيهم تحت جنح الليل، إنها المرأة التي أتقنت ترويض الرجال، تنتزع من أفواههم المعلومات العسكرية والخطط الحربية وتبعث بها إلى دائرة الجاسوسية الألمانية، وقد أدى عملها هذا إلى إحباط الكثير من خطط الحلفاء، وإلى إبادة الألوف من جنودهم، وبحكم علاقاتها الواسعة

والشبهات التي تدور حولها، وُضعت تحت المراقبة من قبل الأمن الفرنسي ليلًا نهارًا على أمل العثور على دليل إدانة واحد يتيح لهم إلقاء القبض عليها ومحاكمتها.

على الرغم من أنه لا يجوز اعتراض الحقائب الدبلوماسية وتفتيشها، فقد نجح رجال الأمن «الفرنسي» في التقاط خطابات باسم «هـ -21» من إحدى الحقائب الدبلوماسية وراحوا يفحصونها بكل دقة، لقد أنكرت «مارتا هاري» وراحت تدافع عن نفسها وتؤكد ولاءها «لفرنسا» وأنها على استعداد للعمل من أجلها.

وبدلًا من إدانتها، انتهت باتفاق أن تعمل لحسابهم نظرًا لعلاقاتها القوية بعدد من العسكريين والسياسيين الألمان، ووافقوا على ذلك وأرسلوها في مهمة سرية إلى «بلجيكا»، حيث التقت ببعض العملاء السريين الفرنسيين، وأعطتهم معلومات خطرة عن «الألمان»، وأصبحت «ماتا هاري» عميلة مزدوجة.

لكن اللعب على الحبلين لا يدوم طويلًا خاصة مع الألمان الذين اكتشفوا أمرها وأرادوا أن يردُّوا لها الصاع صاعين، وبدؤوا في مراسلتها بشكل صريح بخطابات مستخدمين شيفرة يفهمها «الفرنسيون»، مما جعل الفرنسيين يلقون القبض عليها بتهمة التجسس لحساب «الألمان»، مع وجود دليل قاطع يدينها وهو «الخطابات».

وليس كل مرة تسلم الجرَّة، فقد وقعت بين براثن «الأمن الفرنسي» المشهود له بقوته آنذاك، وفشلت في الدفاع عن نفسها، وتمت محاكمتها في «باريس» وصدر الحكم بإعدامها بالرصاص في 15 أكتوبر عام 1917.

وفي الليلة السابقة لإعدامها، خلعت ملابسها ورقصت أمام سجينتين وراهبتين عارية تمامًا، وقد قالت عنها إحدى الراهبتين: «لقد شاهدت شيطانًا يرقص ويتلوى».

وقد كُتبت عشرات الكتب التي تروي حياة ماتا هاري، كما تم إنتاج عدة أفلام عن حياتها أهمها وأشهرها فيلم «ماتا هاري» بطولة الممثلة العالمية الراحلة جريتا جاربو ورامون نافارو وإخراج سيدريك جيبسون وهو من إنتاج عام 1931.



أفيش فيلم «ماتا هاري» الذي قامت ببطولته الممثلة العالمية الراحلة جريتا جاربو، ويروي قصة أشهر جاسوسة في التاريخ.



كتاب سيلفيا كريستيل «ماتا هاري» كتاب من عشرات الكتب التي تناولت سيرة هذه الجاسوسة الأسطورية.

3

ريتشارد سورج..

الرجل ذو الوجوه الثلاثة



ر كان كيم فيلبي هو أشهر الجواسيس على الإطلاق، لأنه ببساطة كان يمثل الفضيحة -في وقتها- لأعتى جهاز استخباراتي في الكون، وهو جهاز الاستخبارات البريطاني «إم 15»، والذي كان في حينه يفوق جميع أجهزة مخابرات العالم قوة وعراقة وشهرة، ويكفي أنه سبق في نشأته وعمله نشأة وكالة المخابرات الأمريكية «سي.آي.إيه».

ولكن ومع ذلك هناك جواسيس آخرون نالوا شهرة هائلة بفضل قدرتهم على التخفي والتلون وإحاطة أنفسهم بهالة من الغموض، تضفي عليهم حالة من الوجود واللا وجود في آن واحد.

وربما لم يشهد عالم الجاسوسية عبقريًا باعتراف العالم أجمع كما ريتشارد سورج، لدرجة أنه قد أُطلِق عليه لقب «الأستاذ»، و«الرجل الغامض» و«العبقري».

ويحتل سورج في تاريخ الجاسوسية مكانة فريدة من نوعها، فهو الجاسوس الوحيد عبر التاريخ، الذي كان

لدوره الفعال الفضل، في حسم نتائج حرب عالمية كاملة، الحرب العالمية الثانية، أو بمعنى أدق، كان سورج، على الرغم من نهايته، أنجح جاسوس عرفه التاريخ.

وقد ظهر سورج لأول مرة في ألمانيا، إبان صعود نجم الزعيم النازي أدولف هتلر قبل الحرب العالمية الثانية، ولم يكن سورج من رجال الحزب النازي، أو حتى مؤيديه، لكن رغم ذلك كان يحمل بطاقة صحفية لأكبر الصحف المتحدثة بلسان هذا الحزب.

وكانت مقالاته السياسية وتحليلاته النقدية بارعة، لدرجة دفعت «جوبلز» وزير دعاية هتلر لإبداء إعجابه الشديد بسورج، مما أكسبه شهرة ونفوذًا لابأس بهما.

وفي الحال أصدر هتلر أوامره بتعيين سورج ملحقًا صحفيًّا في السفارة الألمانية باليابان، أحد أكبر حلفاء ألمانيا النازية، على أن يعمل في الوقت ذاته مراسلًا صحفيًّا لجريدته من هناك.

وفى منتصف عام 1935 تسلم سورج عمله في اليابان، وعلى عكس المألوف لم يقم سورج في إحدى حجرات السفارة، بل قام باستئجار فيلا صغيرة على أطراف مدينة طوكيو.

وحتى لا يثير حوله الشكوك، قدم سورج تفسيرًا عمليًّا لهذا الأمر، إذ بدا لهم شخصًا اجتماعيًّا يهوى إقامة الحفلات والسهرات الأنيقة، وراح يدعو كبار رجال الدولة في اليابان، حتى صار من أبرز شخصيات المجتمع، ليحظى بمنصب المترجم الرسمي لوزير الحرب الياباني شخصيًّا.

وفي نفس الوقت ظل سورج يرسل مقالاته وتحليلاته المدهشة إلى الجريدة في ألمانيا، ليتحول إلى نجم في سماء الدولة الألمانية واليابانية على السواء.

وفي خضم كل هذا، لم ينتبه أحد إلى الجانب الآخر لريتشارد سورج، والجانب الخفي والمظلم من شخصيته.

فقد كان سورج عميلا سوفييتيًا من البداية، وكان كل ما يفعله ليس سوى ستار يخفى وراءه انتماءه الحقيقي.. فمنذ عام 1936 قام سورج بتكوين شبكة جاسوسية اعتبرها الخبراء ثاني أكبر شبكة جاسوسية في التاريخ، بعد الشبكة التي قام بتكوينها المصري «رفعت الجمال» أو كما يسمى «رأفت الهجان» والتى لم يتم اكتشافها قط.

وفي خضم أحداث الحرب العالمية الثانية، اجتاح هتلر أوربا بجيوشه الدولة تلو الأخرى، حتى اقترب من حدود روسيا، وفي نفس الوقت أعلنت اليابان حليفة ألمانيا استعدادها لاجتياح روسيا من الناحية الأخرى، مما ألقى الرعب في قلوب الروس، فكيف سيحاربون على جبهتين في نفس الوقت. وهنا ظهرت أهمية سورج.

وبالفعل، سرعان ما أرسل إليهم رسالة شفرية تؤكد لهم أنه قد قام بترجمة وثيقة من داخل مكتب وزير الحرب الياباني شخصيًا، تؤكد أن المسألة ليست سوى

مناورة لتشتيت الجيش الروسي على جبهتين منفصلتين.

وقد أفادت تلك المعلومة الصغيرة الروس كثيرًا، فقد حشدوا قواتهم بأكملها علي الحدود الغربية، لينجح الروس في صد الهجوم الألماني الكاسح بمساعدة من الظروف الجوية القاسية التي لم يعتد عليها الجنود الألمان.

ولأن لكل شيء نهاية، فقد سقط سورج بصدفة محضة، عندما اعترض الألمان بالصدفة رسالة شفرية بين سورج والروس، ليلقوا عليه القبض، ويحكموا عليه بالإعدام.

وهناك كتب كثيرة تناولت سيرة سورج أو سيرجي، كما يطلق عليه السوفييت، لعل أهمها الكتاب الذي صدر في ستينيات القرن العشرين، بعنوان «الرجل ذو الوجوه الثلاثة» للكاتب الألماني هانز أوتو مسنر.

وكان سبب اختيار المؤلف للعنوان، هو أن سورج كانت له ثلاث شخصيات، ووثقت به ثلاث حكومات أجنبية (اليابان وألمانيا وروسيا) خدع بمنتهى المهارة اثنتين منها (بلده ألمانيا واليابان) ومنح إخلاصه وولاءه كله للثالثة (روسيا)، لذا فقد اعتبره المؤلف صاحب ثلاثة وجوه.

والمؤلف نفسه كان ملحقًا صغيرًا، في السفارة الألمانية في (طوكيو)، قبيل الحرب العالمية الثانية، ولقد كان (سورج)، وبعض أفراد شبكته الجاسوسية، ضيوفًا في حفل زواجه، وكان بعضهم من أقرب الناس إليه، ولكنه لم يعرف أبدًا حقيقة سورج، حتى ما بعد نهاية الحرب العالمية الثانية (1939-1945).

ويؤكد المؤلف في كتابه على أن: «سبب شهرة سورج الفائقة وأستاذيته المبهرة، في عالم الجاسوسية، التي أسهبت عشرات الكتب والمراجع في وصفها، والإشادة بها، والانبهار بخطوطها، طوال أكثر من نصف قرن من الزمان، إلى أنه الجاسوس الوحيد، في تاريخ

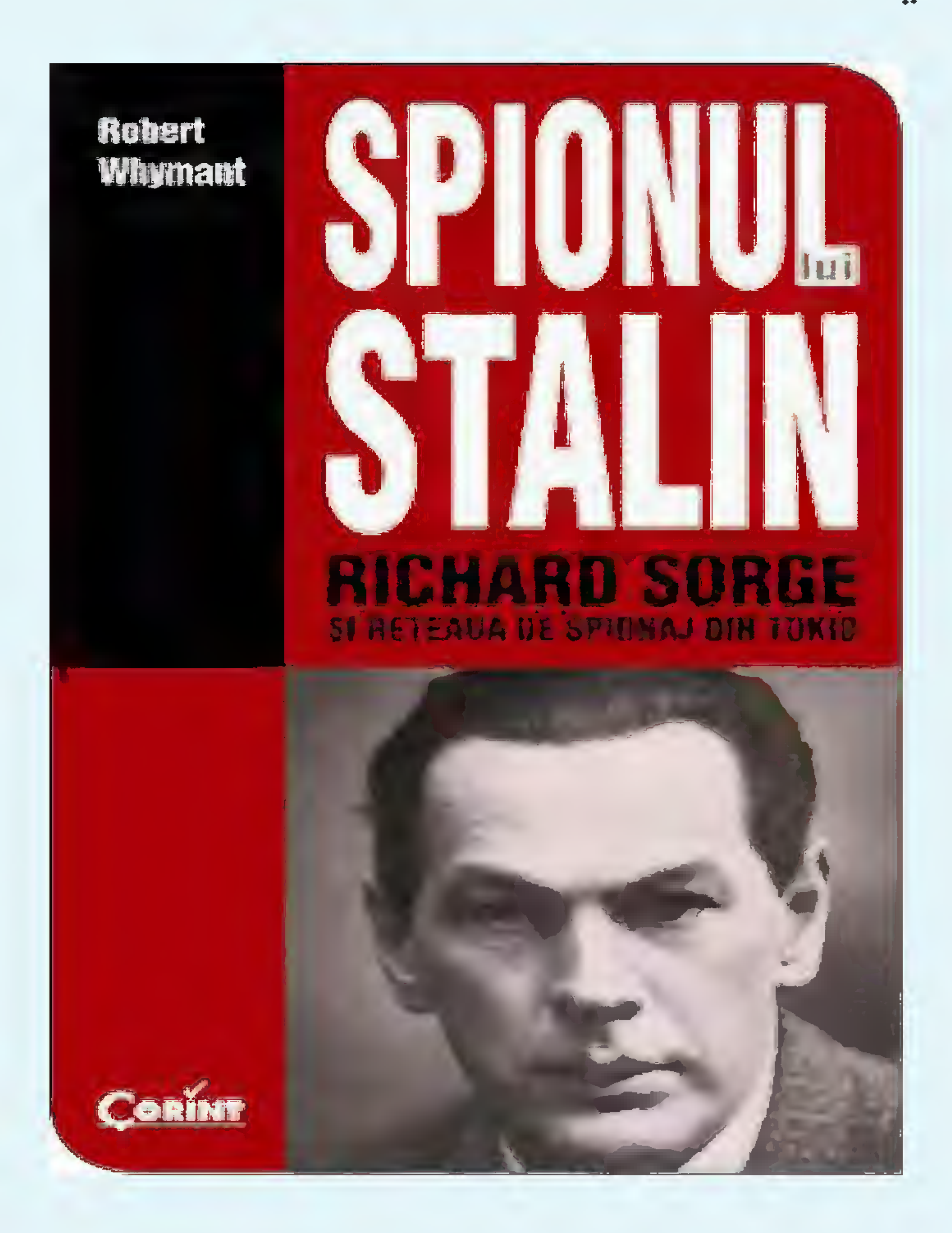
الجاسوسية كله، الذي كان لنجاحه الفضل الأوَّل، في تغيير مسار حرب طاحنة رهيبة».

ريتشارد سورج هو الابن الثاني لمهندس بترول ألماني،، وحفيد أدولف سورج، السكرتير الخاص للمفكر كارل ماركس، وأحد الذين اعتنقوا الشيوعية منذ مولدها.

ومن جامعات (كييل) و(هامبورج)، حصل (ريتشارد سورج) على درجة الدكتوراه، في العلوم السياسية، عام 1920، وفي اليوم نفسه، وقبل حتى أن يجف حبر شهادة الدكتوراه، كان يملأ استمارة الالتحاق بالحزب الشيوعي الألماني في هامبورج قبل أن يقطع صلاته بالشيوعيين تمهيدًا لعمله كجاسوس للروس لا يمكن الشك فيه..

وعندما أُعلِن تنفيذ حكم الإعدام في الدكتور ريتشارد سورج في السابع من نوفمبر 1944، الجاسوس السوفييتي، الذي حمل لقبًا فريدًا، بين كل الجواسيس، الذين عرفهم التاريخ هو لقب الأستاذ، نُكّست الأعلام

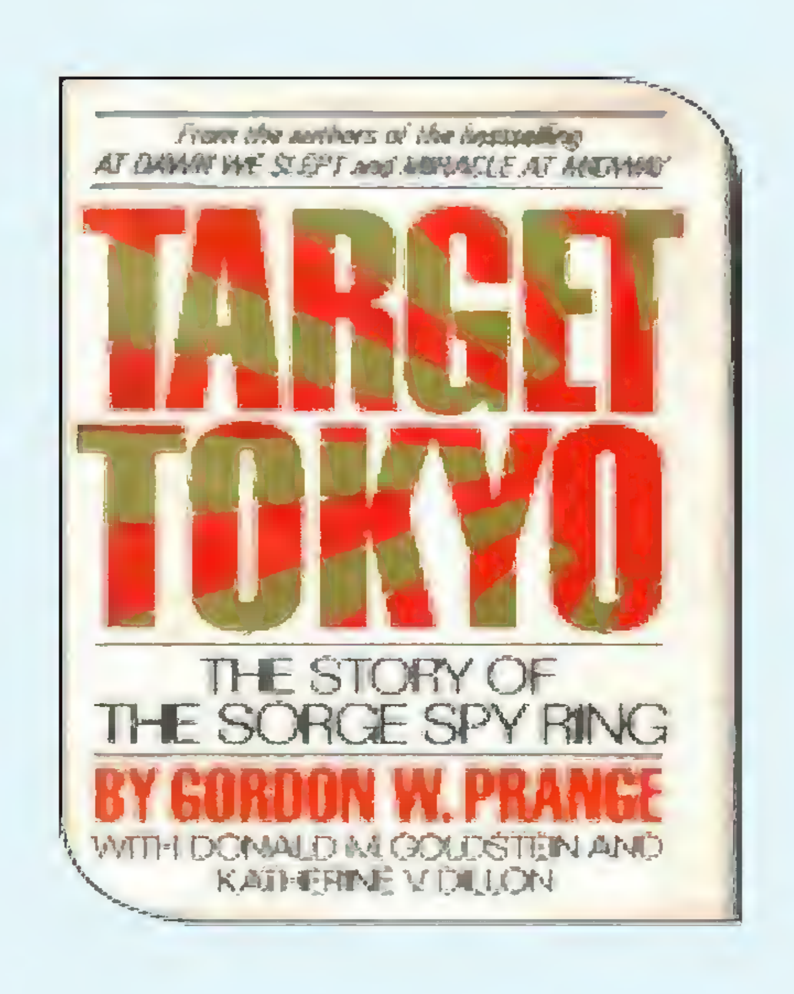
في الاتحاد السوفييتي كله، حدادًا على مصرعه. وتم إصدار طابع بريد يحمل صورته، كما حدث مع كيم فيلبي.



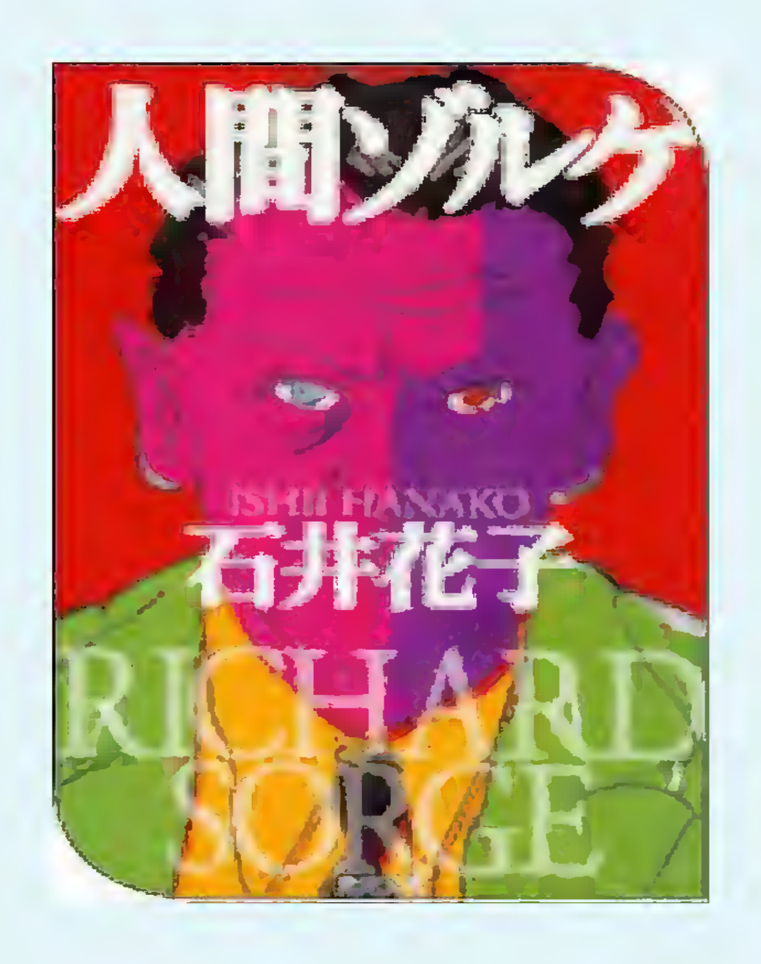
كتاب «جاسوس ستالين» عن حياة سورج.



الطابع التذكاري الذي أصدره الروس تخليدًا لذكرى وفاة جاسوسهم الألماني سورج.



«استهداف طوكيو» أحد الكتب التي تناولت عمل الجاسوس سورج كملحق دبلوماسي في اليابان.



وكتاب عنه باللغة اليابانية بعنوان «ريتشارد سورس».

4

آلدريتش آيمز..

رمز العار الأمريكي



عند تم إلقاء القبض على آلدريتش آيمز الضابط بقسم الاستخبارات المضادة في وكالة المخابرات الأمريكية «سي.آي.إيه»، والذى تجسس لحساب السوفييت، ثم لحساب الروس بعد سقوط الاتحاد السوفييتي، كشف

المسؤولون الاستخباراتيون الأمريكيون أنه تسبب في أكبر شرخ أمني على امتداد تاريخ الـ «سي.آي.إيه».

فعلى مدى تسعة أعوام تجسس فيها لحساب السوفييت ثم الروس، قبل سقوطه في عام 1994، كشف آيمز عن أكثر من مائة عملية سرية، وخان أكثر من ثلاثين عميلًا يتجسسون لحساب الوكالة، أو لأجهزة مخابرات غربية أخرى، مما تسبب في إعدام عشرة على الأقل من الروس والأوربيين الشرقيين الذين يعملون لصالح مخابرات الغرب ممن غدر بهم، كان من بينهم الميجور جنرال ديمترى بولياكوف السوفييتي، والذي تجسس لحساب الولايات المتحدة لمدة عشرين عامًا تقريبًا، قدم خلالها معلومات لا تقدر بثمن.

ومن الآثار المدمرة لخيانة آيمز، بالإضافة لكشفه عن عملاء «سي.آي.إيه»، قدم للأمريكيين معلومات مغلوطة قدمها له السوفييت والروس بعد تفكك الاتحاد السوفييتي حول تطويرات الأسلحة

السوفييتية، ومجهودات التسليح السوفييتية، ثم الروسية فيما بعد.

وطبقًا لما ورد في تقرير (لجنة النواب المنتقاة للإشراف على المخابرات)، فهناك 11 تقريرًا أُرسلت إلى الرؤساء رونالد ريجان وبيل كلينتون، مما قدمها آيمز!

وقد بدأ آيمز نشاطه التجسسي في 1985، عندما كان رئيسًا لقسم الاستخبارات المضادة) السوفييتية بـ «سي.آي.إيه». وعلى الرغم من كونه محاطًا بالشكوك لبعض الوقت، لاحتمال كونه عميلًا مهمًّا للسوفييت، إلا أن المحققين لم يبدءوا في تضييق الخناق عليه، حتى عام 1992.

وقد زلزل القبض على آيمز «سي.آي.إيه»، وأثار (الكونجرس)، الذي بدأ في المناداة بتطهير الوكالة مما أودى بمستقبل(جيمس وولزى)، مدير الوكالة، وأدى إلى تقاعد مبكر لعدة من ضباط الـ «سي.آي.إيه»، من ذوي المراكز العليا.

ووصف الكونجرس ما حدث باعتباره سلسلة من التخبطات لا تصدق، فقد فشل محققو الوكالة في الربط بين أسلوب الحياة المترفة الرغدة، التي يحياها (آيمز)، وإنفاقه ببذخ شديد، وبين إمكانية تقاضيه أموالًا طائلة مقابل التجسس؛ إذ دفع له السوفييت ثم الروس 2.7 مليون دولار على الأقل، أثناء عمله لحسابهم.

وذكر تقرير لجنة التحقيق، في قضية آيمز، كما يقول كتاب الجواسيس، أن فشل الوكالة في اكتشاف خيانة آيمز، أدى إلى خسارة كل أصول المخابرات، التي استهدفتها الـ «سي.آي.إيه»، في الاتحاد السوفييتي، في ذروة الحرب الباردة.

المدهش أن عملية اصطياد العميل قد بدأت في عام 1986، بعد إعدام ضابطي مخابرات سوفييت جندهما مكتب التحقيقات الفيدرالي الأمريكي «إف.بي.آي». واتجهت الشكوك في البداية إلى (إدوارد لي هوارد)، وهو ضابط بالـ «سي.آي.إيه»، ومنشق منذ عام 1985، أو حتى كلايتون لونترى، وهو من البحرية

الأمريكية، والمتهم بالتجسس على السـفارة الأمريكية في موسكو.

ولكن بعد اختفاء ثلاثة عملاء آخرين، لم يكن أمام المحققين سوى تقبل -وعلى مضض- الاحتمال الساحق، بأن تسرب المعلومات ينبع من الـ «سي.آي.إيه» نفسها، إلا أنه لم يتم بحث الأمر بين الـ«سي.آي.إيه» والـ«إف.بي.آي»، بشأن مخاوفهم تلك حتى عام 1991، حيث بدأت الـ«إف.بي.آي» تحرياتها تحت (الاسم الكودي) (المتحرك ليلًا)، ثم أطلق عليها فيما بعد عملية (إفلايس)، (الإفلايس هو خنجر قصير له حافتان)...

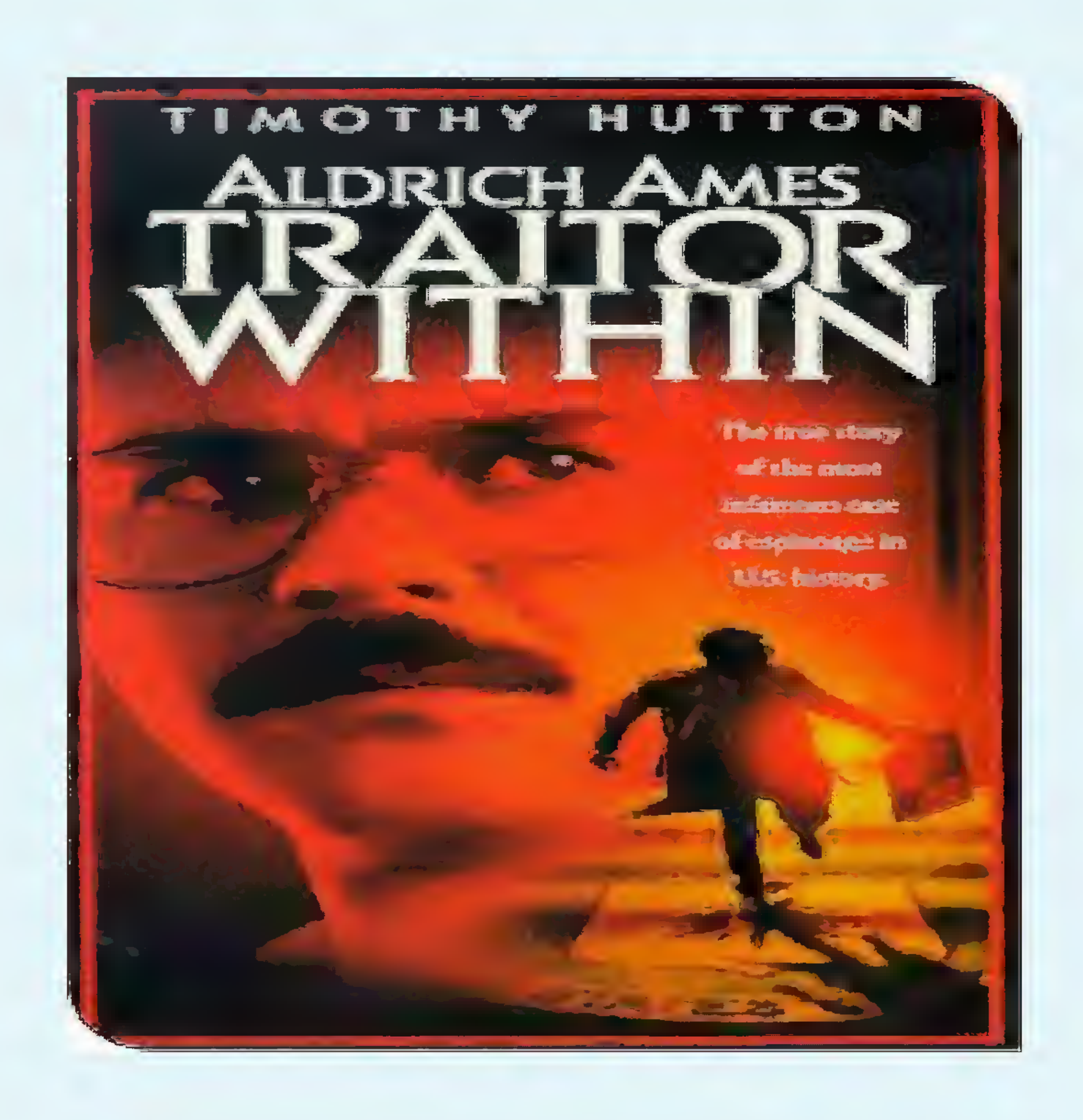
ولقد كان اسم (آيمز) ضمن عشرين اسمًا مشتبهًا فيهم، وذلك على الرغم من اجتياز ذلك الأخير لاختبار (جهاز كشف الكذب) في 1986 و1991، ثم نقل (آيمز) إلى قسم مكافحة الجاسوسية التابع لـ«سي.آي.إيه» وهو قسم غير حساس نسبيًا، إلا أنه ظل مستمرًا في التجسس، والحصول على وثائق بالغة السرية، لا تتعلق بعمله الجديد، حتى استطاعت الـ «إف.بي.آي»

في يونيو 1992 الحصول على تصريح من (محكمة المراقبة على المخابرات الأجنبية السرية)، بناءً على التماسها، بوضع أجهزة تنصت في تليفون (آيمز)، والتسلل إلى منزله؛ لوضع كاميرات وبراغيث إلكترونية، وكذلك التجسس على الكمبيوتر الشخصي بمنزله.

وفي أكتوبر 1992، ادعى (آيمز) أنه ذاهب لزيارة نسائية في (كولومبيا)، ولكنّ مراقبيه كانوا يعلمون أنه في طريقه إلى (كاراكاس) بـ (فنزويلا)، وقد شوهد (آيمز) مجتمعًا مع (عميل) سوفييتي، وهو تحت رقابة الـ «إف.بي.آي» السرية، وعلى الرغم من هذا، فقد تأخرت الـ«إف.بي.آي» في اعتقاله، على أمل ضبطه متلبسًا بالتقاط أي شيء من نقاط الإسقاط، ولكنها بدأت في تضييق الخناق عليه، عندما شعرت بتكاثر شكوك متعامليه السوفييت، وتم بالفعل القبض عليه في 21 فبراير 1994، قبل يوم واحد من ذهابه إلى موسكو، في اجتماع رسمي تـابع لـ «سي.آي.إيه»، مع

متخصصين من المخابرات الروسية في شؤون المخدرات.

واعترف (آيمز) بتهمة التجسس، وقبل الحكم عليه بالسجن مدى الحياة دون التمتع بطلب إطلاق السراح المشروط.



كتاب «آلدريتش آيمز: في بيتنا خائن» للكاتب الأمريكي تيموثي هوتون، الذي يروي خيانات هذا الجاسوس.

5

انشراح موسى..

أو دينا بن ديفيد!



هذه الجاسوسة هي واحدة من أشهر من عرفهن عالم الجاسوسية من النساء. وعندما نتحدث عن جواسيس الموساد عبر التاريخ سنجدها تقف في مقدمة السلم.

خيانة هذه المرأة لوطنها لم تتوقف فقط عن بيع نفسها لجهاز الاستخبارات الإسرائيلي، بل تجاوزتها لدرجة اعتناقها لليهودية، وتغيير اسمها ليكون دينا بن

ديفيد بدلًا من اسمها الحقيقي الذي دخلت به تاريخ الجاسوسية وهو «انشراح موسى»!

مشكلة انشراح موسى هي مشكلة كل امرأة تبحث عن الثراء السريع، وحياة الترف والبذخ، ضاربة عُرض الحائط بكل قيم الانتماء والولاء، ومتجردة من أي مشاعر وطنية، أو أي وازع من ضمير.

ومنذ أن كانت فتاة تنتظر العريس، كانت تضع نصب عينيها أن يكون فارس الرهان رجلا يمكن أن يخرجها من حياتها في صعيد مصر، ويطير بها إلى حياة أكثر تحررًا، وأكثر انفتاحًا، بعيدًا عن تقاليد الصعيد، وقيمه المتوارثة، وروادعه الأخلاقية، التي تؤمن بقيم العِرض والشرف، والسيرة الطيبة، كرأس مال الفتاة.

ولدت انشراح علي موسى عام 1937، لأسرة بسيطة، لم تمنعها ظروفها أو تقاليد الصعيد - آنذاك - من أن تواصل الابنة تعليمها لتحصل على الشهادة الإعدادية عام 1951.

ومنذ تلك اللحظة راحت الفتاة تتحين الفرصة لاقتناص زوج تتبدل معه حياتها بالكامل شريطة أن يأخذها بعيدًا عن الصعيد وقيوده.

ورغم أنها كانت محط أنظار كل شباب المنيا، بسبب جمالها الأخَّاذ، وأنوثتها المتدفقة، إلا أنها كانت ترفض الارتباط بأيٍّ منهم، لأن الزواج من أحدهم معناه أنها لن تغادر الصعيد.

وبالفعل تحقق لها ما أرادت، عندما اصطحبها والدها معه إلى القاهرة، عقب نجاحها لحضور زفاف أحد أقاربهم، فوجدتها فرصة لاقتناص زوج من خارج الصعيد.

وبالفعل التقت شابًّا من مدينة العريش يكبرها بثمان سنوات يدعى إبراهيم سعيد شاهين، وفي العرس تعرفت عليه وقررت الارتباط به، حتى قبل أن تعرف عنه كل شيء.

وبعد أيام قليلة، كان يقف على باب منزلها في المنيا، وعلى رغم معارضة والدتها لبعد المسافة بين المنيا والعريش، إلا أن انشراح تمسكت به ورأت فيه فتى أحلامها، وخلال مدة قصيرة، زُفت إليه وانتقلت للعيش معه في مدينة العريش حيث يقيم.

كان إبراهيم شاهين يعمل كاتب حسابات بمكتب مديرية العمل بالعريش، بدأ سلكه الوظيفي مغمورًا يتعجل زيادة دخله بوسائل مشروعة وغير مشروعة إلى أن وقع في جريمة رشوة لطخت سمعته وحبس ثلاثة أشهر، خرج بعدها ليكتشف مدى قسوة الظروف التي تمر به.

واجتاحت إسرائيل سيناء واحتلتها في يونيو 1967، وسط هذا المناخ كانت المخابرات الإسرائيلية تعمل بنشاط زائد، وتسعى لتصيد العملاء بسبب الضغوط المعيشية الصعبة وظروف الاحتلال، وبالفعل نجحت في استقطابه.

ولوح له ضابط الموساد الذي استقطبه بإغراءات ما كان يحلم بمثلها يومًا، نظير إغراقه بالنقود وتأمين حياته وذويه في العريش، وافق إبراهيم على التعاون مع الإسرائيليين في جمع المعلومات عن مصر، وتسلم -كدفعة أولى- ألف دولار في الوقت الذي لم يكن يملك فيه ثمن علبة سجائر.

وسافر شاهين إلى بئر سبع وهناك تغير المشهد، إذ تحول إلى جاسوس لإسرائيل وعينًا لها على وطنه.

وعندما رجع إلى بيته محملًا بالهدايا لزوجته وأولاده، دهشت انشراح وسألته عن مصدر النقود فهمس لها بأنه أرشد اليهود عن مخبأ فدائي مصري فكافأوه بألف دولار، بهتت الزوجة البائسة لأول وهلة ثم سرعان ما عانقت زوجها سعيدة بما جلبه لها، وقالت له في امتنان كانوا سيمسكونه لا محالة إن عاجلًا أم آجلًا، فسألها في خبث ألا يعد ذلك خيانة؟ فغرت فاها وارتفع حاجباها في استنكار ودهشة وأجابته: مستحيل، كان غيرك سيبلغ عنه ويأخذ الألف دولار، أنت ما فعلت إلا الصح.

وبدأت انشراح موسى منذ تلك اللحظة أحد أهم جواسيس الموساد الإسرائيلي، حتى بدا شاهين زوجها إلى جانبها تلميذًا في الجاسوسية، وراح الموساد ينظر إليها على أنها أحد أهم من يعتمد عليهم في تجسسه على مصر.

وحدث بعد تعطل المفاتيح الخاصة بجهاز الإرسال، أن عرضت انشراح السفر لإسرائيل لإحضار مفتاح جديد.

وسافرت بالفعل يوم 26 يوليو 1974 ففوجئ بها أبو يعقوب ودهش لجرأتها... وأراد الاحتفاء بها فأقام حفلًا صاخبًا ماجنًا على شرفها انتهى بليلة حمراء، ومنحها مكافأة لها 2500 دولار مع زيادة الراتب للمرة الثالثة إلى 1500 دولار شهريًا، وكان مرتب الموظف الجامعي حينذاك نحو 17 جنيهًا.

ومنذ تلك اللحظة أصبح اسم انشراح الحركي في ملفات الموساد «دينا بن ديفيد»، وهو الاسم الذي كانت تنادى به من جانب مسؤولي الموساد.

وأثناء وجود انشراح في إسرائيل، كانت هناك مفاجأة خطيرة تنتظرها في القاهرة فعندما كان إبراهيم يحاول إرسال أولى برقياته إلى إسرائيل بواسطة الجهاز - استطاعت المخابرات المصرية التقاط ذبذبات الجهاز بواسطة اختراع سوفييتي متطور جدًّا اسمه (صائد الموجات) وقامت القوات بتمشيط المنطقة بالكامل بحثًا عن هذا الجاسوس. ومع محاولة تجربة الجهاز للمرة الثانية أمكن الوصول لإبراهيم بسهولة.

وفي فجر 5 أغسطس 1974 كانت قوة من جهاز المخابرات المصرية تقف على رأس إبراهيم شاهين، ولما فتشوا البيت عثروا على جهاز اللاسلكي ونوتة الشفرة... والتزم إبراهيم الصمت... وكان بدنه كله يرتجف... سحبوه في هدوء للتحقيق معه في مبنى المخابرات العامة، بينما بقيت قوة من رجال المخابرات في المنزل مع أولاده الثلاثة تنتظر وصول انشراح.

وعلى رحلة طائرة أليطاليا رقم 791 في 24 أغسطس 1974، وصلت انشراح إلى مطار القاهرة الدولي قادمة من روما بعد شهر كامل بعيدًا عن مصر، تدفع أمامها

عربة تزدحم بحقائب الملابس والهدايا، ونظرت حولها تبحث عن زوجها فلم تجده، فاستقلت تاكسيًا إلى المنزل وهي في قمة الغيظ، وعندما همت بفتح الباب اقشعر جسدها فجأة، فدفعت بالباب لا تكترث، لكنها وقفت بلا حراك، وبالت على نفسها عندما تقدم أحدهم ورحب بها بقوله «حمدلله على السلامة يا مدام دينا».

وأمسك بحقيبة يدها وأخرج منها مفتاحين للجهاز اللاسلكي بدلًا من مفتاح واحد. وكانت بالحقيبة عدة آلاف من الدولارات دسها الضابط كما كانت، وتناول القيد الحديدي من زميله وانخرست الكلمات على لسانها فكانت تتمتم وتهذي بكلمات غير مفهومة، وقادوها مع ولديها إلى مبنى المخابرات وهناك جرى التحقيق مع الأسرة كلها.

وفي 25 نوفمبر 1974 صدر الحكم بإعدام انشراح وزوجها شنقًا، والسجن 5 سنوات للابن نبيل وتحويل محمد وعادل لمحكمة الأحداث.

وفي أواخر الثمانينيات، نشرت الصحف الإسرائيلية قصة تجسس إبراهيم شاهين وانشراح موسى على صفحاتها الأولى.

وذكرت الصحف أن ضغوطًا مورست على الرئيس السادات لتأجيل إعدام انشراح بأمر شخصي منه، ثم أصدر بعد ذلك عفوًا رئاسيًا عنها.

وقالت الصحف إن انشراح تمكنت (في صفقة لم تعلن عن تفاصيلها) من دخول إسرائيل مع أولادها الثلاثة، حيث حصلوا جميعًا على الجنسية الإسرائيلية واعتنقوا الديانة اليهودية، وبدلوا اسم شاهين إلى (بن ديفيد) وعادل إلى (رافي) ونبيل إلى (يوسي) ومحمد إلى (حاييم).

وبعد مبادلتها مع إسرائيل، استضافت الإذاعة الإسرائيلية دينا بن ديفيد (انشراح موسى سابقًا) التي قالت إنها فخورة بما قدمت لإسرائيل وللشعب الإسرائيلي.

كما نشرت صحيفة يديعوت أحرونوت عام 1989 موضوعًا عن انشراح وأولادها قالت فيه: إن انشراح شاهين (دينا بن ديفيد) تقيم الآن مع اثنين من أبنائها بوسط إسرائيل وهما محمد وعادل، بعد أن اتخذت لهما أسماء عبرية هي حاييم ورافي أما الابن الأكبر نبيل فقد غير اسمه إلى يوشي.

وتقول الصحيفة إن دينا بن ديفيد تعمل عاملة في دورة مياه للسيدات في مدينة حيفا وفى أوقات الفراغ تحلم بالعودة للعمل كجاسوسة لإسرائيل في مصرا بينما يعمل ابنها حاييم كحارس ليلي بأحد المصانع، أما الابن الأكبر فلم يحتمل الحياة في إسرائيل وهاجر هو وزوجته اليهودية إلى كندا، حيث يعمل هو وزوجته بمحل لغسل وتنظيف الملابس.



انشراح موسى بملابس السجن قبل مبادلتها في صفقة تبادل

مع إسرائيل لأسرى من حرب أكتوبر.

6

إيلي كوهين..

الجاسوس المستحيل!



ن إيلي كوهين أو «جون دارلنج» - اسمه الحركي أو كما أطلقت عليه المخابرات الإسرائيلية «المقاتل 88» أو كما يلقبه الغرب «الرجل المستحيل» وهو اللقب الذي أنتجوا فيلمًا سينمائيًا لهذا الجاسوس باسمه، كان أحد أخطر الجواسيس في تاريخ المخابرات الإسرائيلية «الموساد» إذ لم يكن أخطرهم على الإطلاق.

هو إلياهو بن شاؤول كوهين (18 مايو 1965) يهودي ولد بالإسكندرية التي هاجر إليها أحد أجداده سنة 1924.

وفي عام 1944 انضم كوهين إلى منظمة الشباب اليهودي الصهيوني في الإسكندرية. وبعد حرب 1948، أخذ يدعو مع غيره من أعضاء المنظمة لهجرة اليهود المصريين إلى فلسطين.

وبالفعل، في عام 1949 هاجر أبواه وثلاثة من أشقائه إلى إسرائيل بينما تخلّف هو في الإسكندرية. وقبل أن يهاجر إلى إسرائيل، عمل تحت قيادة (إبراهام دار)

وهو أحد كبار الجواسيس الإسرائيليين الذي وصل إلى مصر ليباشر دوره في التجسس ومساعدة اليهود علي الهجرة وتجنيد العملاء.

واتخذ هذا الجاسوس اسم جون دارلنج وشكّل شبكةً للمخابرات الإسرائيلية بمصر نفذت سلسلة من التفجيرات ببعض المنشآت الأمريكية في القاهرة والإسكندرية بهدف إفساد العلاقة بين مصر والولايات المتحدة الأمريكية.

وفي عام 1954، تم إلقاء القبض على أفراد الشبكة في فضيحة كبرى عرفت حينها بفضيحة لافون.

وبعد انتهاء عمليات التحقيق، كان إيلي كوهين قد تمكن من إقناع المحققين ببراءة صفحته إلى أن خرج من مصر عام 1955 حيث التحق هناك بالوحدة رقم 131 بجهاز الموساد، ثم أعيد إلى مصر ولكنه كان تحت عيون المخابرات المصرية التي لم تنسَ ماضيه فاعتقلته مع بدء العدوان الثلاثي على مصر في أكتوبر 1956.

وبعد الإفراج عنه، هاجر إلى إسرائيل عام 1957 حيث استقر به المقام محاسبًا في بعض الشركات وانقطعت صلته مع الموساد لفترة من الوقت، ولكنها استؤنفت عندما طرد من عمله وعمل لفترة كمترجم في وزارة الدفاع الإسرائيلية ولما ضاق به الحال استقال وتزوج من يهودية من أصل عراقي عام 1959.

وقد رأت المخابرات الإسرائيلية في كوهين مشروع جاسوس جيد فتم إعداده في البداية لكي يعمل في مصر، ولكن الخطة ما لبثت أن عدلت، ورأى الموساد أن أنسب مجال لنشاطه التجسسي هو دمشق.

وبدأ الإعداد الدقيق لكي يقوم بدوره الجديد، ولم تكن هناك صعوبة في تدريبه علي التكلم باللهجة السورية، لأنه كان يجيد العربية بحكم نشأته في الإسكندرية، وكان طالبًا في جامعة الملك فاروق وترك الدراسة فيها لاحقًا.

ورتبت له المخابرات الإسرائيلية قصة ملفقة يبدو بها سوريًّا مسلمًا يحمل اسم كامل أمين ثابت، هاجر

وعائلته إلى لإسكندرية ثم سافر عمه إلى الأرجنتين عام 1946 حيث لحق به كامل وعائلته عام 1947.

وفي عام 1952، توفي والده في الأرجنتين بالسكتة القلبية، كما توفيت والدته بعد ستة أشهر وبقى كامل وحده هناك يعمل في تجارة الأقمشة.

وتم تدريبه على كيفية استخدام أجهزة الإرسال والاستقبال اللاسلكي والكتابة بالحبر السري، كما راح يدرس في الوقت نفسه كل أخبار سوريا ويحفظ أسماء رجالها السياسيين والبارزين في عالم الاقتصاد والتجارة. مع تعليمه القرآن وتعاليم الدين الإسلامي.

وفي3 فبراير 1961، غادر كوهين إسرائيل إلى زيوريخ، ومنها حجز تذكرة سفر إلى العاصمة التشيلية سانتياجو باسم كامل أمين ثابت، ولكنه تخلف في بوينس آيريس حيث كانت هناك تسهيلات معدة سلفًا لكي يدخل الأرجنتين بدون تدقيق في شخصيته الجديدة.

وفي الأرجنتين، استقبله عميل إسرائيلي يحمل اسم أبراهام حيث نصحه بتعلم اللغة الإسبانية حتى لا يفتضح أمره، وبالفعل تعلم كوهين اللغة الإسبانية وكان أبراهام يمده بالمال ويطلعه على كل ما يجب أن يعرفه لكي ينجح في مهمته. وبمساعدة بعض العملاء تم تعيين كوهين في شركة للنقل وظل كوهين لمدة تقترب من العام يبني وجوده في العاصمة الأرجنتينية كرجل أعمال سوري ناجح فكون لنفسه هوية لا يرقى إليها الشك، واكتسب وضعًا متميزًا لدي الجالية العربية في الأرجنتين، باعتباره رجلًا وطنيًا شديد الحماس لبلده وأصبح شخصية مرموقة في كل مكان وتشير بعض الشائعات إلى تعرفه على العقيد أمين الحافظ، لكن توقيت استلام الحافظ منصب الملحق العسكري في بوينس آيريس كان قد تزامن مع سفر كوهين لسوريا مما ينفي أي علاقة مسبقة بين الرجلين.

وخلال المآدب الفاخرة، التي اعتاد كوهين -أو كامل أمين ثابت- إقامتها في كل مناسبة وغير مناسبة، ليكون الدبلوماسيون السوريون على رأس الضيوف، لم

يكن يخفي حنينه إلى وطنه سوريا، ورغبته في زيارة دمشق. لذلك، لم يكن غريبًا أن يرحل إليها بعد أن وصلته الإشارة من المخابرات الإسرائيلية ووصل إليها بالفعل في يناير 1962 حاملا معه آلات دقيقة للتجسس، ومزودًا بعدد من التوصيات الرسمية وغير الرسمية لأكبر عدد من الشخصيات المهمة في سوريا، مع الإشادة بنوع خاص إلى الروح الوطنية العالية التي يتميز بها، والتي تستحق أن تكون محل ترحيب واهتمام من المسؤولين في سوريا.

وبالطبع، لم يفت كوهين أن يمر على تل أبيب قبل وصوله إلى دمشق، ولكن ذلك تطلب منه القيام بدورة واسعة بين عواصم أوربا قبل أن ينزل في مطار دمشق.

وأعلن كوهين أنه قرر تصفية كل أعماله العالقة في الأرجنتين ليظل في دمشق مدعيًا حب الوطن. وبعد أقل من شهرين من استقراره في دمشق، تلقت أجهزة الاستقبال في الموساد أولى رسائله التجسسية التي لم

تنقطع على مدى ما يقرب من ثلاث سنوات، بمعدل رسالتين على الأقل كل أسبوع.

وفي الشهور الأولى، تمكن كوهين أو كامل من إقامة شبكة واسعة من العلاقات المهمة مع ضباط الجيش والمسؤولين العسكريين.

وكان من المعتاد أن يزور أصدقاءه في مقار عملهم، وكانوا يتحدثون معه بحرية عن تكتيكاتهم في حالة نشوب الحرب مع إسرائيل ويجيبون على أي سؤال فني يتعلق بطائرات الميج أو السوخوي، أو الغواصات التي وصلت حديثًا من الاتحاد السوفييتي أو الفرق بين الدبابة (ت-54) و(ت-55) وغيرها من أمور كانت محل اهتمامه كجاسوس.

وكانت هذه المعلومات تصل أولا بأول إلى إسرائيل ومعها قوائم بأسماء وتحركات الضباط السوريين بين مختلف المواقع والوحدات. وفي سبتمبر 1962، صحبه أحد أصدقائه في جولة داخل التحصينات الدفاعية بمرتفعات الجولان. وقد تمكن من تصوير

جميع التحصينات بواسطة آلة تصوير دقيقة مثبتة في ساعة يده أنتجتها المخابرات الإسرائيلية والأمريكية.

ومع أن صور هذه المواقع سبق أن تزودت بها إسرائيل عن طريق وسائل الاستطلاع الجوي الأمريكية، إلا أن مطابقتها مع رسائل كوهين كانت لها أهمية خاصة سواء من حيث تأكيد صحتها، أو من حيث الثقة بمدى قدرات الجاسوس الإسرائيلي. وفي عام 1964، زود كوهين قادته في تل أبيب بتفصيلات وافية للخطط الدفاعية السورية في منطقة القنيطرة.

وفي تقرير آخر، أبلغهم بوصول صفقة دبابات روسية من طراز (ت-54) وأماكن توزيعها وكذلك تفاصيل الخطة السورية التي أعدت بمعرفة الخبراء الروس لاجتياح الجزء الشمالي من إسرائيل في حالة نشوب الحرب. وازداد نجاح كوهين خاصة مع إغداقه الهدايا على مسؤولي حزب البعث.

وفي عام 1965، وبعد 4 سنوات من العمل في دمشق، تم الكشف عن كوهين عندما كانت تمر أمام بيته سيارة رصد الاتصالات الخارجية التابعة للأمن السوري. وعندما ضبطت أن رسالة مورس وجهت من المبنى الذي يسكن فيه حوصر المبنى على الفور، وقام رجال الأمن بالتحقيق مع السكان ولم يجدوا أحدًا مشبوهًا فيه، ولم يجدوا من يشكّون فيه في المبنى. إلا أنهم عادوا واعتقلوه بعد مراقبة البث الصادر من الشقة.

وفي رواية وهي الأقرب أنه كان يسكن قرب مقر السفارة الهندية بدمشق وأن العاملين بالاتصالات الهندية رصدوا إشارات لاسلكية تشوش على إشارات السفارة، وتم إبلاغ الجهات المختصة بسوريا التي تأكدت من وجود رسائل تصدر من مبنى قرب السفارة، وتم رصد المصدر وبالمراقبة تم تحديد وقت الإرسال الأسبوعي للمداهمة وتم القبض عليه متلبسًا وقبض على كوهين وأعدم في ساحة المرجة وسط دمشق في 18 مايو 1965.

وتؤكد تقارير المخابرات المصرية أن اكتشاف الجاسوس الإسرائيلي إيلي كوهين في سوريا عام 1965 كان بواسطة التعاون مع المخابرات السورية وفي نفس الوقت عن طريق الصدفة البحتة، حيث إنه في أثناء زيارته مع قادة عسكريين في هضبة الجولان تم التقاط صور له وللقادة العسكريين معه، وذلك هو النظام المتبع عادة لتلك الزيارات.

وعندما عرضت تلك الصور على ضباط المخابرات المصرية (حيث كان هناك تعاون بين المخابرات المصرية والسورية في تلك الفترة) تعرفوا عليه على الفور حيث إنه كان معروفًا لديهم لأنه كان متهمًا بعمليات اغتيال وتخريب عندما كان عضوًا في العصابات الصهيونية في مصر.

ويحكى في رواية أخرى أنه كان بواسطة العميل المصري في إسرائيل -آنذاك- رفعت الجمال أو رأفت الهجان الذي يقول:

«شاهدته مرة في سهرة عائلية حضرها مسؤولون في الموساد وعرفوني به أنه رجل أعمال إسرائيلي في أمريكا ويغدق على إسرائيل بالتبرعات المالية».. ولم يكن هناك أي مجال للشك في الصديق اليهودي الغني، وكنت على علاقة صداقة مع طبيبة شابة من أصل مغربي اسمها (ليلى) وفي زيارة لها بمنزلها شاهدت صورة صديقنا اليهودي الغني مع امرأة جميلة وطفلين فسألتها من هذا؟ قالت إنه إيلي كوهين زوج شقيقتي ناديا وهو باحث في وزارة الدفاع وموفد للعمل في بعض السفارات الإسرائيلية في الخارج، ولم تغب المعلومة عن ذهني كما أنها لم تكن على قدر كبير من الأهمية العاجلة.

وفي أكتوبر عام 1964 كنت في رحلة عمل للاتفاق على أفواج سياحية في روما وفق تعليمات المخابرات المصرية وفي الشركة السياحية وجدت بعض المجلات والصحف ووقعت عيناي على صورة إيلي كوهين فقرأت المكتوب أسفل الصورة، (الفريق أول على عامر والوفد المرافق له بصحبة القادة العسكريين في سوريا

والعضو القيادي لحزب البعث العربي الاشتراكي كامل أمين ثابت)، وكان كامل هذا هو إيلي كوهين الذي سهرت معه في إسرائيل وتجمعت الخيوط في عقلي فحصلت على نسخة من هذه الجريدة اللبنانية من محل بيع الصحف بالفندق وفي المساء التقيت مع (قلب الأسد) محمد نسيم رجل المهام الصعبة في المخابرات المصرية وسألته هل يسمح لي أن أعمل خارج نطاق إسرائيل؟ فنظر إليّ بعيون ثاقبة:

- ماذا؟

- قلت: خارج إسرائيل.

- قال: أوضح.

- قلت: كامل أمين ثابت أحد قيادات حزب البعث السوري هو إيلي كوهين الإسرائيلي مزروع في سوريا وأخشى أن يتولى هناك منصبًا كبيرًا.

- قال: ما أدلتك؟

- قلت: هذه الصورة ولقائي معه في تل أبيب، ثم إن صديقة لي اعترفت أنه يعمل في جيش الدفاع. ابتسم قلب الأسد وأوهمني أنه يعرف هذه المعلومة فأصبت بإحباط شديد ثم اقترب من النافذة وعاد فجأة واقترب مني وقال: «لو صدقت توقعاتك يا رفعت لسجلنا هذا باسمك ضمن الأعمال النادرة في ملفات المخابرات المصرية».

وعقب هذا اللقاء طار رجال المخابرات المصرية شرقًا وغربًا للتأكد من المعلومة، وفي مكتب مدير المخابرات في ذلك الوقت السيد صلاح نصر تجمعت الحقائق وقابل مدير المخابرات الرئيس جمال عبد الناصر، ثم طار في نفس الليلة بطائرة خاصة إلى دمشق النقيب حسين تمراز من المخابرات المصرية حاملًا ملفًّا ضخمًا وخاصًّا إلى الرئيس السوري أمين الحافظ.

وتم القبض على إيلي كوهين وسط دهشة الجميع وأعدم هناك في 18 مايو 1965.

ويقول رأفت الهجان: «حضرت جنازته في إسرائيل بين رجال الموساد بعد أن أعلنت الصحف العربية نبأ القبض عليه، وشاركت الأصدقاء الحزن عليه».

وهناك فيلم أمريكي شهير اسمه «جاسوس المستحيل - The Impossible Spy» تم إنتاجه عام 1987، بطولة جون شيا في دور كوهين الجاسوس الإسرائيلي الشهير، وصور في إسرائيل.

كما أن هناك مسلسلًا عربيًّا يروي قصته اسمه «باب الحارة» في جزئيه الرابع والخامس.

وقد صدر في دمشق كتاب بعنوان «حقائق لم تنشر عن الجاسوس الصهيوني إيلي كوهين وقصته الحقيقية» للواء المتقاعد صلاح الضللي الرجل الذي رأس المحكمة العسكرية السورية التي حكمت على كوهين بالإعدام.

ويميط الكتاب اللثام عن حقيقة المهمة التي أوفد كوهين لأجلها إلى سوريا في البداية، وهي لم تكن

بقصد التجسس وجمع المعلومات عن سوريا، بل من أجل البحث عن مساعد الضابط النازي أنجمان، الذي تم اختطافه من الأرجنتين إلى إسرائيل، فقد كان مساعده هو لويس برونر الذي توفرت لدى المخابرات الصهيونية الموساد معلومات أنه موجود في دمشق، وهي طلبت من كوهين تعقبه والعثور عليه بأي ثمن. وأمضى الجاسوس الإسرائيلي قرابة الستة أشهر وهو يبحث في دمشق عن برونر أو شبيه له ولكن دون جدوى. وبعد عودته إلى إسرائيل، حيث تم تعليق مهمته من قبل الموساد عرض كوهين على المخابرات الإسرائيلية أن تعيده مرة أخرى إلى دمشق بعد أن كون شبكة من العلاقات مع تجار ومسؤولين وبالتالي صار وجوده في سوريا أمرًا مفيدًا للموساد! وبسبب هذا الإلحاح أعيد كوهين إلى سوريا حتى لقي مصيره.

أما الأمر المهم الآخر الذي يؤكده المؤلف، فهو تأكيده أنه ليس للقاهرة أي علاقة بموضوع المساهمة في الكشف عن إيلي كوهين، موضحًا أن الحكومة السورية أرسلت كتابًا رسميًا إلى الحكومة المصرية تسألها عن

هذا الموضوع الذي تم نشره في الصحف، فأرسلت الحكومة المصرية كتابًا تنفي فيه نفيًا قاطعًا هذه المعلومات، مؤكدة أنه ليس لديها أية معلومة بهذا الخصوص.

7

كلاوس فوكس..

الجاسوس النووي!



في عام 1945، عندما ألقت إحدى الطائرات العسكرية الأمريكية أول قنبلة ذرية في التاريخ على مدينة هيروشيما، راح مساعد قائد الطائرة الذي يدعى روبرت ليويس يراقب ما حدث عند انفجارها من

ارتفاع كبير، فانصعق من المشهد وقال: «يا إلهي ما هذا العمل الشنيع الذي اقترفناه؟».

وفي الحقيقة، لم تكن هذه الجريمة الإنسانية إلا ثمرة نجاح مشروع مانهاتن الأمريكي لصنع القنبلة الذرية الذي تم تبنيّه وفقًا لتوصية عدد من العلماء كانوا يراقبون تطورات أحداث الحرب العالمية الثانية.

ففي اليوم الثاني من شهر أغسطس من عام 1939، قبل نحو شهر على اندلاع الحرب، كتب العالم ألبرت آينشتاين رسالة شارك في صياغتها فريق من كبار علماء الذرة والفيزياء النووية إلى الرئيس الأمريكي فرانكلين روزفلت أخبروه فيها أن ألمانيا النازية بزعامة أدولف هتلر تقوم بجهود حثيثة لفصل اليورانيوم 235 بطريقة التخصيب من أجل صنع قنبلة ذرية.

وكان وقع هذا الخبر على الأمريكيين مخيفًا إلى درجة دفعت الرئيس روزفلت لإعطاء أوامره بالبدء الفوري بتنفيذ خطة لإنتاج القنبلة الذرية وفقًا للنصائح

والتعليمات التي وردت في رسالة آينشتاين، وأطلق على تلك الخطة الاسم الحركي «مشروع مانهاتن».

وبالفعل تم إنتاج أول قنبلة نووية (ذرية)، بفضل جهود علماء مشروع مانهاتن، ومن بينهم عالم الفيزياء الألماني كلاوس فوكس، الذي ستستيقظ أمريكا - فيما بعد - على كابوس مريع كان هو من تسبب فيه.

كان كلاوس فوكس مسيحيًا اعتنق الشيوعية وغادر ألمانيا بعد وصول حزب الاشتراكيين القوميين إلى الحكم في عام 1933، بعد صدور أمر بالقبض عليه عقب حريق مبنى الرايخستاج، الذي اتهم فيه الشيوعيون بتنفيذه.

وقد استقر به المقام بعد تنقل بين البلاد في لندن، حيث عمل هناك فترة من الوقت.

بعد ذلك، حصلت الولايات المتحدة على خدماته، واستدعته ليكون أحد العلماء البريطانيين المشاركين

في مشروع مانهاتن، الذي كانت تقوم به أمريكا لإنتاج أول قنبلة ذرية.

وأثناء عمله في لوس ألاموس، المعمل الوطني المكلف بإنتاج أول قنبلة ذرية، كان فوكس مسؤولًا عن العديد من الحسابات النظرية الهامة المتعلقة بإنتاج أول سلاح نووي ثم النماذج المبكرة من القنبلة الهيدروجينية.

وقد ظل على عقيدته السياسية مؤمنًا بالنظرية الشيوعية، وكان هو الجاسوس الذي سرب كل الأسرار إلى الاتحاد السوفييتى ليساعده على دخول النادي الذري.

فبعد نجاح مشروع مانهاتن لصنع القنبلة الذرية الأمريكية وإلقائها على مدينتي هيروشيما وناجازاكي، بدأت دول العالم الكبرى تتسابق لامتلاكها.

بالفعل تمكن الاتحاد السوفييتي من سرقة أسرار الاكتشافات التي تمكن روبرت أوبنهايمر وإنريكو

فيرمي ورفاقهما من التوصل إليها من خلال مشروع مانهاتن.

وكان من المفارقات الغريبة أن تسريب أسرار القنبلة الذرية من أمريكا إلى روسيا تم عن طريق أحد العلماء المشاركين في مشروع مانهاتن هو كلاوس فوكس.

وقد ولد فوكس في 29 ديسمبر في عام 1911 لقس لوثري، التحق بـجامعة لايبزج، حيث كان والده أستاذ اللاهوت، وانخرط في السياسة الطلابية، والتحق بالفرع الطلابي من الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني قبل أن يطرد منه وينضم -كما أسلفنا- إلى الحزب الشيوعي الألماني.

وقد اختبأ بعد حريق الرايخستاج، وهرب إلى إنجلترا، حيث حصل على دكتوراه الفلسفة من جامعة بريستول، ثم حصل على دكتوراه العلوم من جامعة إدنبرة.

وبعد أن اندلعت الحرب العالمية الثانية في أوربا، احتـُجز في جزيرة مان، ولاحقًا في كندا.

وبعد عودته إلى بريطانيا في 1941، أصبح مساعدًا لـرودلف پايرلز، الذي كان يعمل على «سبائك الأنابيب» - مشروع القنبلة الذرية البريطانية.

وقد بدأ تسريب المعلومات عن المشروع إلى الاتحاد السوفييتي عبر روث كوتشنسكي، ذات الاسم الحركي «سونيا»، الشيوعية الألمانية، والتي كانت تعمل برتبة مقدم في المخابرات العسكرية السوفييتية، وكانت تعمل مع شبكة جواسيس رتشارد سورگه في الشرق الأقصى.

وفي 1943، ذهب فوكس وپايرلز إلى جامعة كولومبيا، في مدينة نيويورك، ليعملا في مشروع منهاتن. وفي أغسطس 1944 التحق فوكس بقسم الفيزياء النظرية في لوس ألاموس، المعمل الوطني، عاملًا تحت إشراف هانز بته.

وفي يناير 1950، اعترف فوكس أنه كان جاسوسًا. وقد حـُكم عليه بأربعة عشر عامًا حبسًا ونُزعت عنه الجنسية البريطانية.

وقد أطلق سراحه في 1959، بعد حبس تسع سنوات وهاجر إلى جمهورية ألمانيا الديمقراطية (ألمانيا الشرقية)، حيث انتُخب في أكاديمية العلوم واللجنة المركزية في حزب الوحدة الاشتراكي الألماني. ولاحقًا عـُيـِّن نائب مدير معهد الأبحاث النووية في روسن دورف، حيث عمل حتى تقاعد في 1979 ليموت في برلين قبل الوحدة الألمانية بعام واحد فقط.

8

سيدني رايلي..

جيمس بوند الحقيقي!



أحد أشهر الجواسيس في القرن العشرين. سر شهرته أنه كان يستخدم جاذبيته لإغراء زوجات السياسيين والعسكريين، لانتزاع المعلومات الثمينة منهم. ويُعرَف سيدني رايلي بأنه التجسيد الحي المباشر لشخصية

جيمس بوند السينمائية، التي تم استلهامها من شخصيته.

فقد ابتكر إيان فليمنج شخصية جيمس بوند الشخصية الأسطورية الجاسوسية من خلال متابعته للجاسوس البريطاني سيدني ريلي.والمعروف أن فليمنج كان يعمل بالمخابرات البريطانية، قبل تخصصه في الكتابة.

وعلى مر العصور ظهر ملايين من الجواسيس، لكن قلة منهم هم الذين استطاعوا أن يحفروا أسماءهم في ذاكرة التاريخ، بما تمتعوا به من سمات شخصية فريدة أهلتهم لأن يلعبوا أدوارًا بالغة التأثير في حياة العديد من الأمم والشعوب، ومن هؤلاء بالطبع سيدني رايلي.

وقد كانت المخابرات السوفييتية تطارد رايلي في كل أنحاء الارض، بعد أن صدر في حقه أكثر من عشرين حكمًا بالإعدام.

ومع ذلك كان يدخل الاتحاد السوفييتي ويخرج منه دون أن يكتشفه أحد. كما أن رايلي كان يحمل أحد عشر جواز سفر أصليًا لإحدي عشرة جنسية مختلفة وله مع كل جواز سفر زوجة في ذلك البلد الذي ينتمي له الجواز كما كان يجيد التحدث بست لغات حية بطلاقة.

وقد أطلق على رايلي لقب الجاسوس الخفي، ورغم أنه حمل أكثر من جواز سفر إلا أنه ولد في تيبراري في أيرلندا في 4 مارس عام 1874.

وفي سن 19 اكتشف رايلي أن أباه الكولنيل في الجيش الروسي ليس أباه، وأنه كان ثمرة لعلاقة بين أمه وطبيب من فيينا، وأن اسمه الحقيقي هو شيفوند جيورغيفيتش روزنبلوم.

وصدمة اكتشافه بأنه يهودي جعلته يهرب من روسيا إلى جنوب أمريكا على سفينة بريطانية. وعمل هناك في الميناء وفي إصلاح الطرقات وكعامل زراعي، ثم عمل طباخًا في بعثة بريطانية تستكشف مجاهل

الأمازون، وعندما هاجم السكان المحليون المعسكر، كانت براعة ريلي في إطلاق الرصاص هي التي أرعبتهم وردتهم.

وتأثر قائد البعثة الميجر فوثرجيل بشجاعته وبتمكنه من عدة لغات منها الروسية والألمانية وأعطاه 1500 جنيه وعرض عليه أن بعمل في الخدمة السرية. وبدأ عمل رايلي كعميل حر.

وعندما دخل القرن العشرين، كان في هولندا بشخصية ألمانية يراقب مساعدات الهولنديين للبوير الذين كانوا يحاربون البريطانيين في جنوب إفريقيا. وكانت لريلي موهبة خارقة في توقع مناطق المشاكل الكبيرة في العالم والحضور فيها باكرًا، وقد لاحظ إمكانيات النفط المكتشف في الشرق الأوسط وقد حذر بريطانيا من أنها قد تخسره.

وذهب إلى إيران وعلم أن الشاه أعطى امتيازات التنقيب لويليام دي ارسي وهو أسترالي، وكان في كانز يناقش الدعم المالي للمشروع مع روتشلد الثري

وتنكر ريلي كقسيس ودخل إلى اليخت العائلي الراسي على الساحل الفرنسي يطلب معونات للفقراء، وبينما كان روتشيلد يكتب له الشيك سحب دي أرسي جانبا، ووعده بأن الحكومة البريطانية ستزيد علي أي عرض يقدمه روتشيلد.

وفي مايو 1950 قبض أرسي 900000 جنيه كأرباح من الشركة التي تكونت بجهود رايلي. وهي شركة البترول البريطاني الشهيرة «بي.بي» وبعد ذلك أمضى عدة سنوات في الشرق الأقصي يجمع المعلومات عن القوة البحرية الروسية ودفاعاتها الشرقية.

وفي عام 1914، عاد إلى أوربا ونفذ عددًا من المهمات التي لا يمكن تصديقها، ونال بسببها الصليب البريطاني العسكري، وقبل أن تندلع الحرب تمكن من التسلل إلى معامل كروب للسلاح في ايسن كعامل يحمل اسم كارل هاهن. وقد تطوع لنوبات عمل ليلية إضافية تمكن خلالها من السطو على ملفات فائقة السرية في مكاتب المصنع العظيم ونقل كل تفصيلات برنامج

إنتاج الأسلحة وعندما ضبط متلبسًا قتل اثنين من الحراس وهرب.

وفي روسيا كان متنكرًا كرجل أعمال غني وتبرع بتنظيم أسبوع سان بطرسبرج للطيران. وكان يجمع المعلومات بسهولة من الزوار الألمان عن تطور الطائرات ثم أقنع بناة البحرية الألمانية بلوهم وفوس ليجعلوه وكيلهم المعتمد لتصدير المنشآت البحرية إلى روسيا، وقد كسب عمولات كبيرة من المبيعات فكان نجاحه رائعًا، لدرجة أن البريطانيين في سان بطرسبرج تقدموا بشكوى لسفير بريطانيا مفادها أن هذا الرجل كان يحرم الشركات البريطانية من الأعمال.

وفي عام 1917 عاد ريلي إلى لندن وبرغم أنه تجاوز الأربعين فقد تطوع لتجربة نوع جديد من التجسس وذلك بالنزول بالمظلة خلف خطوط العدو وجمع المعلومات. وقد أنزل بالمظلة قرب مانهايم مع أوراق مزورة تثبت أنه من معاقي الحرب في الجيش الألماني، وخلال ثلاثة أسابيع حصل على معلومات هامة عن خطط الهجوم الألمانية لعام 1918.

ثم تنكر رايلي كضابط ألماني وأمضى عدة أيام في مقر للضباط في كونيجبرج في شرق بروسيا يسجل كل ما يسمعه من معلومات. وكان أعظم انتصار له هو الجلوس في اجتماع للقيادة العليا الألمانية كان يحضرة القيصر نفسه.

وتمكن ريلي من أن يجعل نفسه سائقًا لضباط من معاوني الأمير روبرشت من بافاريا وأثناء ذهابه معه إلى مجلس الحرب تظاهر ريلي أن السيارة قد تعطلت ورفع غطاء المحرك ليحاول إصلاحها وعندما انضم إليه الضابط الذي فقد صبره قتله بضربة على الرأس في هدوء الطريق المظلم ولبس زيه العسكري، وذهب للاجتماع معتذرًا ببرود عن التأخير لأن سائقه سقط مريضًا وجلس يسجل ملاحظاته حول خطط المعارك المقبلة، وتمكن من إنذار الإدميرالية البريطانية عن هجوم بالغواصات لتدمير خطوط الإمداد عبر الأطلسي. ووجد قادة غواصات اليوبون أهدافهم محمية جدًّا بالمدمرات القوية.

وفي إبريل 1918 عاد ريلي ثانية إلى روسيا وكان البولشفيك قد استلموا السلطة في السنة السابقة. وكان من المحتمل أن يعلنوا السلام مع الألمان ويسمحوا لقوة القيصر كلها بأن تتوجه نحو الغرب. ووافق رئيس الوزراء البريطاني دايفد لويد جورج على محاولة قلب النظام الشيوعي لإيقاف الهدنة مع الألمان، ولكنه ما إن دخل موسكو حتى اعتقلته الاستخبارات البلشفية.

9

هبة سليم..

فتاة جولدا مائير المدلّلة!



ر لا يعرف التاريخ جاسوسة احتلت كل هذه المساحة من الاهتمام بقدر عميلة جهاز الاستخبارات الإسرائيلي هبة سليم.

فهذه الفتاة الحسناء المصرية كانت محور مناقشات ومباحثات قادة ثلاث دول في آن واحد، هي مصر وأمريكا وعميلتها إسرائيل، وهم الرئيس المصري الراحل أنور السادات، والرئيس الأمريكي الراحل ريتشارد نيكسون، ورئيسة وزراء إسرائيل جولدا مائير.

وربما لا يعرف التاريخ جاسوسة كانت سببًا في تأجيل دولة بحجم مصر لحرب بمثل حجم حرب تحرير المصريين لأراضيهم التي تحتلها إسرائيل، كما هبة سليم.

لم تكن هبة سليم مجرد فتاة عادية بالنسبة للدولة العبرية، بل كانت كنزًا ثمينًا جعل منها امرأة فوق العادة، ففي أول زيارة قامت بها الحسناء الصعيدية «هبه عبدالرحمن سليم عامر» إلى تل أبيب استقبلتها المقاتلات الإسرائيلية في الجو لمصاحبة الطائرة التي

تقلها قبل نزولها لمطار بن جوريون مثلما جرت العادة عند استقبال الملوك والرؤساء.

ووصفتها «جولدا مائير» رئيسة وزراء إسرائيل -آنذاك- بأنها شخصية «استثنائية» وكانت تصر على أن تجلس على يمينها في الاجتماعات المغلقة التي كانت تضم قادة الجيش وجهاز الاستخبارات «الموساد».

وكانت مائير تقول دائما -كما كشفت الصحف الإسرائيلية- بعد سقوط هذه الجاسوسة: إن «هبة قدمت للدولة العبرية ما لم يقدمه قادتها على مدى الصراع العربي الصهيوني».

وتمثل قصة حياة الجاسوسة هبة سليم القصة الحقيقية لفيلم «الصعود إلى الهاوية»، وهي من أكثر ملفات الجاسوسية في المخابرات المصرية إثارة وخطورة.

يطل ملف الجاسوسة هبة سليم، كواحد من أشهر هذه الملفات، ليس فقط باعتبار أن المعركة التي دارت بين

جهاز المخابرات المصري ونظيره الإسرائيلي «الموساد»، كانت الأشرس بين الجهازين خلال تلك الفترة التي جرت فيها وقائع تلك القصة والتي استبقت حرب أكتوبر بسنوات قليلة، وإنما لكون هبة هي أول جاسوسة عربية، نجحت أجهزة الاستخبارات الإسرائيلية في تجنيدها.

وبعد سقوطها في قبضة جهاز المخابرات المصرية، بشهور قليلة، حضر هنري كسينجر وزير خارجية الولايات المتحدة إلى أسوان لمقابلة الرئيس السادات حاملا له رجاء من الرئيس نيكسون وجولدا مائير بإنقاذ «هبة سليم».

وهنا أظهر السادات فطنة وذكاءً ألمعيًّا كعادته، وبادر كسينجر بأن هبة تم إعدامها بالفعل، وليس لديه ما يمكن فعله.

وما أن انتهت المقابلة، حتى أمر السادات بتنفيذ حكم الإعدام فيها بعد دقائق من تلقيه طلب كسينجر، موصيًا بنقل اعتذاره لنيكسون.

وقد جرى ذلك في أول لقاء يجمع السادات بمسؤول أمريكي، بعد حرب أكتوبر أثناء التمهيد لمفاوضات فك الاشتباك بين مصر وإسرائيل، مما يشير بوضوح لأهمية ومكانة الجاسوسة الحسناء لدي إسرائيل التي وضعتها كأول مطلب قبل بدء المفاوضات.

والآن فلنتابع معًا قصة هذه الجاسوسة التي قلبت العالم رأسًا على عقب، وأقامت جولدا مائير مأتمًا عقب إبلاغها بإعدامها!

كانت هبة سليم أو هبة عبد الرحمن سليم عامر في البداية فتاة من فتيات نادي الجزيرة مثل أية فتاة مصرية من الطبقة الغنية، عاشت حياة مرفهة، في بيت أسرتها الفاخر الكائن في ضاحية المهندسين الراقية، غير عابئة بما كانت تمر به مصر خلال فترة الستينيات من تحولات.

ومثل غيرها من بنات تلك الطبقة، راحت الفتاة الجميلة تقضي معظم وقتها في نادي الجزيرة الشهير، وسط مجموعة من صديقاتها اللاتي لم يكن يشغلهن

حينذاك، سوى الصرعات الجديدة في الملابس، ومغامرات بعضهن وقصصهن العاطفية الملتهبة في أروقة النادي.

وعندما وقعت نكسة عام 1967، لم تكن هبة قد جاوزت العشرين من عمرها وكانت قد حصلت على شهادة الثانوية العامة، فألحت على والدها الذي كان يعمل وكيلًا لوزارة التربية والتعليم، في السفر إلى باريس لإكمال تعليمها الجامعي، إذ كانت الغالبية العظمى من أبناء تلك الطبقة لا يلتحقون بالجامعات المصرية، ويفضلون الجامعات الأوربية عليها.

وأمام ضغوط الفتاة المدلَّلة، وافق الأب من دون أن يخطرعلى باله ولو للحظة واحدة، ما سوف تتعرض له ابنته في فرنسا، ليس بسبب حاجز اللغة، حيث كانت هبة قد درست الفرنسية منذ طفولتها، وإنما بسبب ما كان ينتظرها هناك من شرك لم تقوَ على مقاومة السقوط فيه، فكان سقوطًا مريعًا وصادمًا.

وفي فرنسا، وجدت هبة سليم ما كانت تنشده من حرية، وفي مدرجات الجامعة كان الاختبار الأول لتلك الحرية المنشودة عندما تعرفت إلى فتاة يهودية من أصول بولندية دعتها ذات مساء لسهرة في منزلها، لتجد نفسها فجأة أمام عدد من الشبان اليهود بينهم ضابط مخابرات إسرائيلي، والذين تعجبوا من قبولها الدعوة في بادئ الأمر، لكنهم سرعان ما راحوا يمطرونها بآيات الغزل، باعتبارها -من وجهة نظرهم- مصرية جريئة ومتحررة لا تلتفت لحالة الحرب التي يعيشها بلدها، وتؤمن بالحرية إلى أقصى مدى.

لم يكن الشاب اليهودي الذي كان في حقيقته ضابط مخابرات إسرائيلي، بحاجة إلى مجهود كبير لينجح في تجنيد هبة، حيث كانت المناقشات الدائرة منذ فترة قد أتت ثمارها سريعًا، وباتت المصرية الغارقة حتى أذنيها في وهم الحرية الغربية تنظر بإيمان عميق إلى إسرائيل، باعتبارها واحة الديمقراطية والحرية الجديدة.

لذا لم يكن أمام الضابط الوسيم سوى أن يشعل الفتيل مرة واحدة، ويؤكد لها أن تلك الدولة الديمقراطية الحرة القوية، قادرة بكل تأكيد على حماية أصدقائها بل وباستطاعتها بسهولة شديدة أن تنقذهم من أي خطر يتعرضون له، في أي مكان في العالم.

وقد حدث أن روت هبة لهذا الشاب اليهودي أو ضابط الموساد المتخفي حكايتها مع ضابط بالجيش المصري قبل رحيلها إلى باريس.

وروت له أن هذا الضابط واسمه فاروق عبد الحميد الفقي قد سقط في غرامها منذ شاهدها لأول مرة بصحبة عدد من صديقاتها في نادي الجزيرة، ولكنها كانت غير راغبة في الارتباط به حيث كان بالنسبة لها شابًا عاديًا لا يملك من مقومات فتى أحلامها شيئًا.

عندما روت هبة ذات يوم لضابط الموساد الإسرائيلي عن الضابط فاروق، ومطارداته الساذجة لها في أروقة النادي وعبر هاتف بيت أسرتها، كاد يطير من الفرح بذلك الصيد الثمين ولم لا وقد تغيرت الخطة، فبدلا

من أن ينحصر دور هبة في اللعب بأدمغة الطلاب العرب الذين يدرسون في الجامعات الفرنسية المختلفة بات من الممكن أن تلعب دورًا أكبر وأهم.

ولم يضع ضابط الموساد وقتًا ولم تمر سوى أيام معدودات حتى رسم لها خطة لاصطياد فاروق وتجنيده بأي ثمن، حتى لو كان هذا الثمن هو خطبتها له.

وعادت هبة إلى القاهرة، وراحت تتردد على نادي الجزيرة مجددًا، وتسأل صديقاتها الذين تعجبوا كثيرًا لآرائها المتحررة للغاية عن فاروق، الذي ظهر بعد فترة قليلة غير مصدق أن الفتاة التي طالما تمناها لنفسه تبحث عنه.

لم يصدق الضابط العاشق نفسه عندما فاجأته هبة ذات يوم بدلال مصطنع بسؤال حول مصير علاقتهما التي بدأ الناس يتحدثون عنها، فأخبرها فاروق أنه يتمناها زوجة له منذ فترة وأنه على استعداد لأن

يذهب ليطلب يدها من أسرتها فورًا فارتسمت على وجه هبة ابتسامة انتصار عريضة.

كان فاروق دائم التغيب لفترات، وكانت تلك الفترات فرصة لشجار مفتعل تمكنت من خلاله هبة أن تحصل على بعض المعلومات الأولية عن طبيعة عمل خطيبها العاشق، وكانت المفاجأة التي لم تتوقعها أنه يخرج في مهمات عسكرية على جبهة القتال، لتنفيذ مواقع جديدة لصواريخ حصلت عليها مصر سرًّا من روسيا، سيكون لها دور فعال في قطع يد إسرائيل إذا ما فكرت في العدوان على مصر.

كان فاروق يشعر أمام ثقافة هبة الفرنسية الرفيعة ووجهات نظرها شديدة التحرر بنقص شديد، راح يعوضه بالتباهي أمامها بأهمية عمله، وهبة من جانبها تسخر مما يقول حتى كانت المفاجأة التي لم تتوقعها ذات يوم، عندما دعاها إلى بيته وتحدث معها في أدق الأسرار العسكرية قبل أن يفاجئها بعدد من الخرائط العسكرية الخطيرة التي كان يحملها في حقيبة خاصة، ويشرح لها بالتفاصيل أماكن المواقع الجديدة.

أرسلت هبة ما حصلت عليه من معلومات من فاروق إلى باريس حيث ضابط الموساد الذي يتولاها برعايته، وأرسل هذه المعلومات من فوره إلى تل أبيب التي سرعان ما توصلت إلى صحة هذه المعلومات وخطورتها، فطلبت من رجلها في فرنسا أن يوليها اهتمامًا كبيرًا، باعتبارها عميلة فوق العادة.

ولم تمض سوى أسابيع قليلة حتى تلقت هبة التعليمات الجديدة والتي تمثلت في العمل بكل الطرق للحصول على طبيعة تسليح هذه المواقع، والمواد المستخدمة في بناء قواعد الصواريخ ومواقعها التبادلية المقترحة. كانت التعليمات الجديدة تقتضي أن تسافر هبة إلى باريس على وجه السرعة، فسافرت بعد أن تحججت لخطيبها العاشق بإنهاء أوراق رسالتها للدكتوراه، بينما كانت تحمل في مفكرتها الصغيرة صفحات دونت فيها معلومات غاية في السرية والأهمية لدرجة حيرت ضابط المخابرات الإسرائيلي، الذي سألها صراحة كيف تستطيع الأم الكبيرة مكافأتك على هذه المعلومات الخطيرة؟

وكانت الإجابة تتمثل في عشرة آلاف فرنك فرنسي حملها ضابط الموساد إلى هبة قبل أيام من عودتها إلى القاهرة مع وعد بمبالغ أكبر وحياة رغدة في باريس، لكن هبة رفضت النقود بشدة وقبلت فقط أن تعيش الحياة الرغدة، لتقضي ثلاثة أشهر على نفقة الموساد في العاصمة الفرنسية قبل أن تعود إلى القاهرة مجددًا بالتكليفات الجديدة، التي كانت تتمثل في تجنيد خطيبها الضابط بالجيش المصري. فوجئ المقدم فاروق الفقي بالطلب الذي نزل على قلبه كالصاعقة بينما كانت هبة تموء مثل قطة وهي تعبث في خصلات شعره، وانتفض فاروق من رقدته لكنه فهم بعد لحظات من الصمت العميق أنه لم يعد باستطاعته أن يتراجع.

كان فاروق قبل ذلك بساعات قد فوجئ بفرط جرأة هبة معه عندما طلبت منه أن يصطحبها إلى منطقة هادئة بسيارته، لكن السيارة لم تكن مناسبة لتنفذ الفتاة المتحررة ما كانت تخطط له فطلبت من فاروق أن يذهبا إلى شقته.

وكاد عقل فاروق يطير وهو يرى حلمه يتحقق، هبة ترقد إلى جواره وكانت الرغبة قد أعمت قلبه فلم يشعر بكارثة السقوط، ليكتشف بعدما أفاق من سكرة العشق أنه صار عميلًا للموساد نجحت هبة بمساعدة فاروق في الحصول على وثائق وخرائط عسكرية غاية في الخطورة عن منصات صواريخ «سام 6» المضادة للطائرات. وفيما كانت الأنباء السارة تنهمر على تل أبيب كان جهاز المخابرات المصري يبحث عن حل للغز الكبير، والذي كان يتمثل في تدمير مواقع الصواريخ الجديدة أولًا بأول بواسطة الطيران الإسرائيلي، وحتى قبل أن يجف البناء.

وكانت المعلومات كلها تشير إلى وجود عميل عسكري يقوم بتسريب معلومات سرية جدًّا إلى إسرائيل.

انتقلت هبة إلى باريس للحصول على مكافأتها الكبرى وهناك عرض عليها ضابط الموساد زيارة إسرائيل.

ووصفت هبة -فيما بعد- تلك الرحلة مشيرة إلى أن طائرتين حربيتين رافقتا الطائرة التابعة لطيران

(العال) التي أقلتها إلى تل أبيب عندما دخلت المجال الجوي الإسرائيلي كحرس شرف تحية لها، في إجراء لا يتم إلا مع الرؤساء والملوك فقط.

وفي مبنى الموساد كان هناك استقبال أكبر، فقد كان في استقبال هبة جولدا مائير وعاميت رئيس جهاز الموساد، حيث أقيم حفل استقبال ضخم، انتهى إلى مفاجأة عندما وجدت هبة نفسها أمام مدخل مكتب فخم واصطف على الطريق المؤدي إليه عشرة من كبار الجنرالات يؤدون التحية العسكرية، قبل أن تفاجأ بأنها وجهًا لوجه أمام جولدا مائير شخصيًا، التي قدمت هبة إلى الجمع قائلة: «أيها السادة إن هذه الآنسة قدمت لإسرائيل خدمات أكثر مما قدمتم لها جميعًا».

بعد عدة أيام عادت هبة إلى باريس وزاد يقينها بأن إسرائيل جنة يريد العرب تدميرها، بينما كان البحث لا يزال جاريًا في القاهرةعن الجاسوس الغامض، حتى اكتشف الأمر أحد مراقبي الخطابات الصادرة إلى الخارج في قسم تابع للمخابرات المصرية.كان الخطاب موجهًا من فاروق إلى هبة، وكانت سطوره تفيض

بالعواطف الجياشة، لكن الذي لفت انتباه المراقب الذكي تمثل في عبارة كتبها مرسل الخطاب تقول إنه «قام بتركيب إيريال الراديو الذي عنده» وكان عصر إيريال الراديو قد انتهى.

وانقلبت الدنيا في جهازي المخابرات الحربية والمخابرات العامة وتشكلت لجان من أمهر الرجال، مسحت شوارع حي الدقي حيث كان يقيم فاروق، حتى عثر أحد أفراد فرقة البحث على جهاز الإيريال فوق إحدى البنايات، ليكتشف ضباط المخابرات أن الشقة التي يصل إليها سلك الإيريال تخص ضابطًا يعمل وقتها مديرًا لمكتب إحدى القيادات المهمة في الجيش وكان هو نفسه المقدم فاروق عبدالحميد الفقي.

كان فاروق في تلك الأثناء في مهمة عسكرية بعيدًا عن القاهرة وعندما عاد إلى مكتبه، كان نائب مدير المخابرات الحربية في انتظاره، يجلس خلف المكتب، فارتجف فاروق من الرعب، وقال في الحال: «إنتوا عرفتوا؟».

وفي التحقيقات التي أجريت في مبنى المخابرات المصرية اعترف فاروق بما حدث، وكيف جندته خطيبته، لكنه قال إنه لم يكن يعلم أن المعلومات التي قدمها لها كانت ستفيد العدو، وقدم فاروق سريعًا للمحاكمة العسكرية التي قضت بإعدامه رميًا بالرصاص، لكن جهاز المخابرات كان له رأي آخريتمثل في استثمار ما يضعه جهاز الموساد من ثقة في فاروق وشريكته، فطلب من فاروق أن يستمر في نشاطه خاصة أن هبة لم تعلم بعد بأمر القبض عليه والحكم بإعدامه.

اقتيد فاروق إلى مكان خاص بالمخابرات المصرية، وخضع لسيطرة نخبة من الضباط تولت توجيهه، ليتم إرسال رسائل بواسطة جهاز اللاسلكي من صنع المخابرات الحربية، تم توظيفها بدقة ضمن مخطط للخداع فيما تواصل الاتصال مع هبة بعد القبض على فاروق لمدة شهرين، قبل أن تقرر المخابرات المصرية استدراج هبة إلى القاهرة بهدوء، حتى لا تنجح في الهرب إلى إسرائيل إذا ما اكتشفت الأمر.

كانت خطة القبض على هبة تتضمن أن يسافر ضابطان كبيران من جهاز المخابرات إلى ليبيا لمقابلة والد هبة الذي كان يشغل وظيفة كبيرة هناك، وإقناعه بأن ابنته تورطت في عملية خطف طائرة مع منظمة فلسطينية، وأن الشرطة الفرنسية على وشك القبض عليها، وما يهم هو ضرورة هروبها من فرنسا لعدم توريطها، ولمنع الزج باسم مصر في مثل هذه العمليات الإرهابية.

وطلب الضابطان من والد هبة أن يساعدهما بأن يطلبها للحضور لرؤيته بزعم أنه مصاب بذبحة صدرية. أرسل الوالد برقية عاجلة لابنته فجاء ردها سريعًا ببرقية تطلب منه أن يغادر طرابلس إلى باريس، حيث إنها حجزت له في أكبر المستشفيات هناك، وأنها ستنتظره بسيارة إسعاف في المطار، فقامت المخابرات المصرية بالتنسيق مع نظيرتها الليبية التي قامت بحجز غرفة في مستشفى طرابلس للأب، الذي أرسل مجددًا لابنته يخبرها بعدم قدرته على السفر إلى باريس لصعوبة حالته.

وتأكدت المخابرات الإسرائيلية من صحة البرقية بأن أرسلت شخصين للتأكد من وجود والد هبة في المستشفى الليبي وعندها فقط سمح لها بالسفر على متن طائرة ليبية في اليوم التالي إلى طرابلس.

وعندما نزلت هبة عدة درجات من سلم الطائرة في مطار طرابلس وجدت ضابطين مصريين في انتظارها، صحباها إلى حيث تقف طائرة مصرية على بعد عدة أمتار، فسألتهما: إحنا رايحين فين؟ فرد أحدهما: المقدم فاروق عايز يشوفك. فقالت: هو فين؟. فقال لها: في القاهرة. صمتت برهة ثم سألت: أمال أنتم مين؟ فقال: إحنا المخابرات المصرية.

أسرع تنفيذ لحكم بالإعدام:

مثلت هبة سليم أمام القضاء المصري ليصدُر بحقها حكم بالإعدام شنقًا بعد محاكمة اعترفت أمامها بجريمتها، وأبدت ندمًا كبيرًا على خيانتها بل إنها تقدمت بالتماس لرئيس الجمهورية لتخفيف العقوبة لكن التماسها رفض وأعدم فاروق الفقي بيد قائده بعد

شنق هبة سليم بأيام، ونفذ حكم الإعدام فيها بطريقة لم تحدث من قبل، وكان وقتها هنري كيسنجر وزير الخارجية الأمريكي قد حضر إلى أسوان لمقابلة الرئيس السادات، في أول زيارة له إلى مصر بعد حرب أكتوبر وفوجئ السادات به يطلب منه بناء على رغبة شخصية من جولدا مائير أن يخفف الحكم على هبة سليم، التي كانت تقضي أيامها في أحد السجون المصرية.

وفطن السادات أن الطلب سيكون بداية لطلبات أخرى ربما تصل إلى درجة إطلاق سراحها، فنظر إلى كيسنجر في دهاء شديد قائلًا: «تخفيف حكم؟.. لقد أُعدمت». وعندما سأل كيسنجر في استغراب: «متى؟» فرد السادات دون أن ينظر لمدير المخابرات الحربية الذي كان يقف على بعد خطوات وكأنه يصدر له الأمر: «النهارده». أما الضابط العاشق المقدم فاروق عبد الحميد الفقي فقد استقال قائده من منصبه لأنه اعتبر نفسه مسؤولًا عنه بالكامل.

وعندما طلبت منه القيادة العامة سحب استقالته، رفض بشدة وأمام إصرار القيادة على ضرورة سحب استقالته خاصة والحرب وشيكة.. اشترط القائد للموافقة على ذلك أن يقوم هو بتنفيذ حكم الإعدام في الضابط الخائن.

ولما كان هذا الشرط لا يتفق والتقاليد العسكرية، وما يتبع في مثل هذه الأحوال فقد رفع طلبه إلى وزير الدفاع الذي عرض الأمر على الرئيس السادات القائد الأعلى للقوات المسلحة فوافق فورًا ودون تردد.

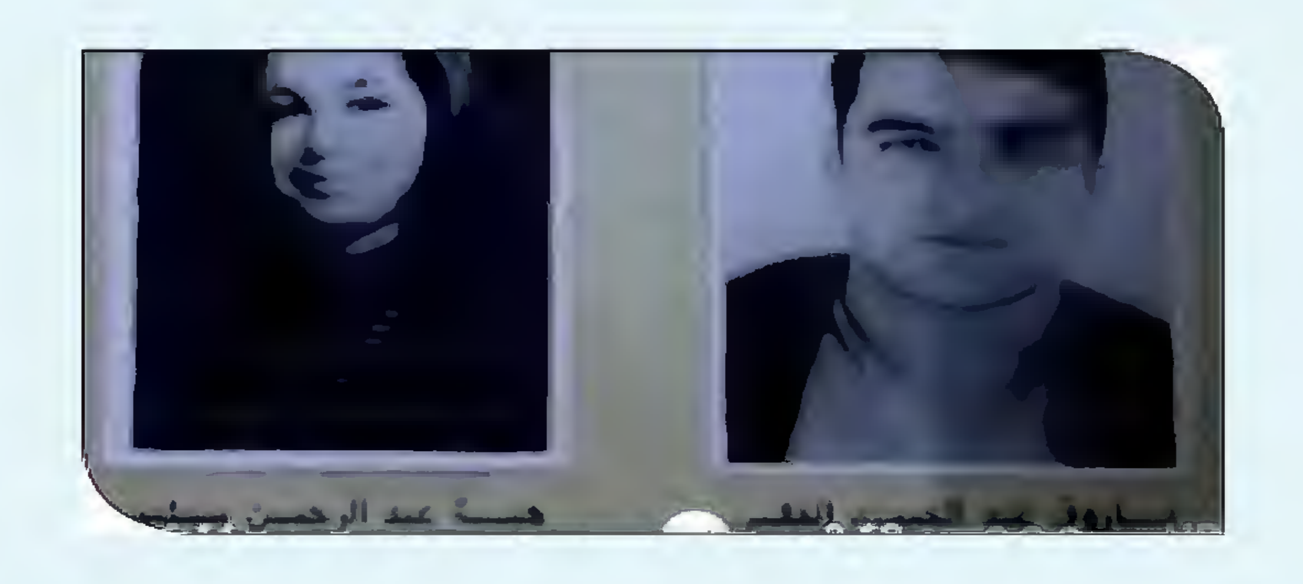
الثابت في ملفات جهاز المخابرات المصري أن هبة سليم عملت لمصلحة جهاز الموساد، ليس من أجل المال، وإنما من أجل وهم كبير سيطر على عقلها، وخدعة أكبر تملكت وجدانها، صورت لها إسرائيل في صورة دولة عظمى لا تُقهر.

في المقابل كانت هبة سليم تمثل بالنسبة لجهاز الاستخبارات الإسرائيلي الكثير، لذلك لم يكن غريبًا أن تبكي جولدا مائير حزنًا على مصير فتاتها المفضلة.

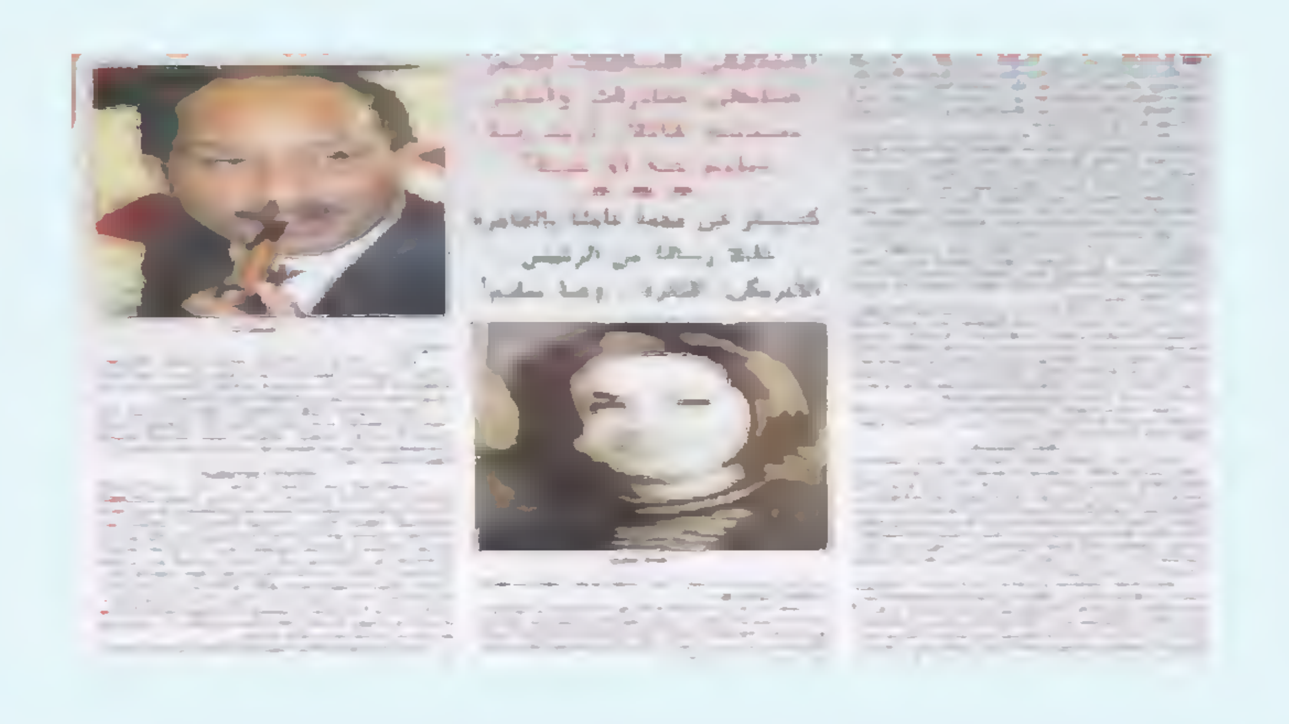
والثابت أيضًا أنه مثلما بدأت قصة هبة سليم على نحو مثير، انتهت بصورة أكثر إثارة، حيث صدر الحكم بإعدامها ونفذ في دقائق، بعدما بدأت الضغوط الأمريكية والإسرائيلية تتزايد على القاهرة لإطلاق سراحها.



هبة سليم في لقطة نادرة تقف في الصف الثاني من اليمين بين موشي ديان وزير الدفاع وجولدا مائير.. لقد كان الجميع يتعامل مع هذه الخائنة باعتبارها واحدة منهم!!



هبة سليم والضابط فاروق عبد الحميد الفقي الذي أوقعت به وعندما سقطت سقط معها



صورة السادات وصورة هبة سليم في تقرير يكشف ما دار بينه وبين كسينجر حولها

10

جورج بليك..

جاسوس مع سبق الإصرار!!



يرى البريطانيون أن جورج بليك واحدًا من أكثر من خانوا بريطانيا في التاريخ، وأكثر من أهانوها أيام الحرب الباردة، عندما كشف عن هوية عشرات الشخصيات، البعض يقول المئات ممن كانوا يعملون لصالح جهاز المخابرات البريطاني «إم 16»، ومن ثمّ بعد فراره من السجن الذي كان يحتجز فيه عام 1966 في لندن.

ولد بليك في روتردام عام 1922 ووالده ألبيرت وليم بيهار يهودي مصري يحمل جواز سفر بريطانيًا أما والدته فهولندية، وقد انضم المراهق جورج بيهار إلى المقاومة الهولندية ضد النازيين عندما احتلوا البلاد ولكنه اضطر للهرب إلى بريطانيا، حيث انضم لمنظمات سرية تتابع العمل ضد ألمانيا وغير اسمه إلى جورج بليك وعمل أخيرًا كضابط مخابرات في الاحتياط الطوعي للبحرية الملكية.

ونقل بعد الحرب إلى وزارة الخارجية بسبب إجادته لعدة لغات، وعندما صدرت الأوامر بسبب قضية فوشنر أن كل موظفي المخابرات يجب أن يكونوا من مواليد بريطانيا كان بليك في خضم عمله كنائب للقنصل وعميل للاستخبارات الهجومية البريطانية MI6 في كوريا، وقد اعتقله الشيوعيون ووضع في معسكر استجواب بكوريا الشمالية لعدة أشهر، وقد تم نفي الاقتراحات بأنه تعرض لعملية غسيل دماغ في هذه الفترة بشهادة رفاقه في السجن، فقد قالوا إنه كان يقاوم سجانيه بشجاعة شديدة.

في عام 1953 كان يعمل في برلين لصالح الاستخبارات الهجومية البريطانية، وكانت تعليماته تقضي بالتسلل إلى شبكة التجسس السوفييتية في المدينة، والتي كانت خلال الخمسينيات منطقة المجابهة في الحرب الباردة بين الشرق والغرب.

وكانت لندن ولمدة أربع سنوات راضية عن عمله المعقد في هذا المستنقع من الجاسوسية والعمالة المزدوجة، ولكي يثبت حسن نيتة للسوفييت فقد كان

يزودهم ببعض المعلومات السرية بعلم لندن، وكانت إدارة الجاسوسية الهجومية مقتنعة أنها تحصل على أكثر مما تعطي وفي الحقيقة فقد كانوا مضلّلين.

وظهرت حقائق جديدة عام 1961 عندما اعتقل جاسوس ألماني للروس، التجأ للغرب جاسوس بولوني وتبين بعد فوات الأوان أن العميل المزدوج بليك عميل ثلاثي، وكان يعمل عندئذ في بيروت كما كان اعتراض رسالته لتحذير موسكو من أن جوردون لوندال سيعتقل هو آخر دليل تحتاجه إدارة الجاسوسية الهجومية على خيانته، وأرسل عميل إلى لبنان ليناقشه في منصب جديد عرض عليه بلندن وهي نفس الطريقة التي استخدمت لمحاولة إعادة فيلبي إلى لندن بعد سنتين، وفي حين أن فيلبي هرب إلى روسيا فإن بليك الذي لم يعتقد أنه قد كشف عاد إلى لندن حيث اعتقل.

وحاولت حكومة ماكميلان أن تسوغ المحاكمة السرية على أساس أن العملاء الغربيين الذين أفشي بليك سرهم ما زالوا يهربون من خلف الستار الحديدي. وفي

الحقيقة أنه في ذلك الوقت تم اعتقالهم جميعًا وأعدموا رميًا بالرصاص أو سجنوا، وافتضح أمر أكثر من 40 عميلًا معاديًا للشيوعية في كل أنحاء العالم.

وكانت هناك أسرار مزعجة أخرى اطلع عليها مستشارو حزب العمال: الزعيم هوج جيتسكل ونائبه جورج براون والوزير السابق إيمانويل شانيول في اجتماعهم مع رئيس الوزراء ماكميلان ووزير الخارجية نورمان بدووك.

قام بليك في برلين بتصوير كل وثيقة سرية عبرت المكتب وسلمها للمخابرات الروسية، وقد كان يختبئ في المكتب عندما كان رجل الأمن يغلق في وقت الغداء، ويعمل بدون أن يزعجه أحد. وقد أخبر الروس عن مكان وجود بعض الألمان الشرقيين الهامين الذين التجأوا إلى الغرب وتمكنت المخابرات الروسية من اختطافهم وإعادتهم إلى الستار الحديدي، كذلك أفشى سر أهم المشاريع الطموحة للغرب وأكثرها كلفة وهو ما سمي بالعملية الذهبية.

والعملية الذهبية مشروع مشترك بين وكالة المخابرات المركزية الأمريكية وبين المخابرات الهجومية البريطانية، يقوم على بناء نفق باتجاه برلين الشرقية لوضع أجهزة تعترض الرسائل بين الروس والألمان الشرقيين وقد نضجت الفكرة في يناير 1953 واستمر الحفر ثلاثة أشهر، وكان النفق يبدأ في محطة الرادار الجديدة قرب مقبرة رودوف في برلين الغربية ويمتد نحو نصف ميل تحت الأسلاك الشائكة للحدود بين برلين الشرقية والغربية بـ 3 و7 أمتار.

ووضعت في النفق أنابيب حديدية ضخمة (قطر 1و2 متر) تصل بين حجرات كبيرة تحتوي أجهزة مراقبة ولوحة مقسم هاتف، وأجهزة تكييف الهواء، كذلك ركبت فيها ميكروفونات متقدمة جدًّا وأجهزة تكبير الصوت وأجهزة لتسجيل المكالمات وآلات طابعة وأصبح بإمكان المتسللين من أمريكيين وبريطانيين وألمان غربيين أن يستمعوا إلى 400 محادثة هاتفية في وقت واحد، وقد اعترضت مكالمات خطوط الحكومة الألمانية الشرقية، وقيادة المخابرات الروسية

في شارع كارلشورست ومركز قيادة الجيش الروسي واتصالات مع موسكو ودول أخرى في حلف الأطلنطي.

وخلال الشتاء الأول أدت الحرارة المتصاعدة من النفق لإذابة الثلج على الأرض فوقه، وبسرعة تم تركيب شبكة تبريد في سقف النفق وتتابعَ العمل بنشاط داخل الأنبوب المغلق بنظام كهربائي في هذا النفق السري.

وفي 22 إبريل عام 1956 بدأ حرس الحدود لألمانيا الشرقية والمخابرات الروسية بالحفر فوق النهاية الشرقية للنفق، وصدرت الأوامر لطاقم النفق بالتراجع إلى النهاية الغربية ووقفت أجهزة المخابرات الغربية تراقب بعجز الروس وهم يستغلون الموضوع إعلاميًّا أفضل استغلال، حتى إنهم نظموا رحلات للتفرج على اكتشافهم لأكثر من 40000 شخص.

وفي الحقيقة فإن وكالة المخابرات المركزية الأمريكية كانت تشك منذ أشهر بأن النفق قد اكتشف، لأن

الاتصالات الهاتفية بين المكاتب المراقبة قد هبطت فجأة للحد الأدنى، وقد أمكن التأكد من هذه الشكوك بعد اعتقال بليك الذي ادعى أنه أخبر السوفييت عن النفق منذ أن تمت الموافقة على بدء العمل فيه. ترى هل كان الغرب مضللا في السنوات الثلاث الماضية؟

وقد تابع بليك عمالته في الشرق الأوسط، ففي عام 1958 كشف المصريون شبكة التجسس البريطانية كلها في المنطقة، وتم إيقاف بعض العملاء وسحب آخرين بسرعة تحت التغطية الدبلوماسية، وقد هدد الرئيس جمال عبد الناصر بكشف أسماء الجواسيس علنًا في إذاعة القاهرة ولكنه لم يفعل ذلك، وقد لزمت سنوات لإعادة بناء شبكة التجسس في المنطقة.

ولم يكن ناصر محبًا للبريطانيين فقبل سنتين أرسل رئيس وزرائهم أنتوني إيدن قواته لتهاجم مدينة السويس، كما يعتقد أن إدارة المخابرات الهجومية كانت متورطة في المؤامرة التي حاول فيها إرهابيون مصريون اغتيال ناصر وهي مؤامرة لم يقدر لها أن تنفذ، ولكن كشف شبكة التجسس عام 1958 لم يكن

الهدف منه الانتقام من البريطانيين فقط، إذ إن الروس كانوا يمدون ناصر بالأسلحة ولم يرغبوا بوجود الجواسيس الغربيين لمراقبة العملية فعلا لم يكونوا موجودين والفضل لجورج بليك.

تري هل كان رؤساء بليك مخطئين عندما سمحوا له أن يعرف أكثر مما ينبغي؟ وقد قال منتقدو إدارة الجاسوسية الهجومية إنه على الرغم من أن العميل المزدوج يجب أن يضحي ببعض الأسرار ليكسب ثقة العدو فإن معرفته بأسرار حيوية جدًّا تجعله عرضة للابتزاز أو التعذيب إذا كشف أمره، وأن رؤساءه يجب أن يلاموا إذا انحرف للخيانة.

وقد انتحر الكولونيل تشارلز جيلسون وهو رئيس قسم روسيا في إدارة المخابرات الهجومية في أوربا حتى عام 1958، بأن أطلق على نفسه النار في روما بعد التقاعد، وكان التفسير الرسمي لذلك مشاكل مادية؟

بليك الجاسوس الذي سبب أضرارًا لإدارة المخابرات الهجومية تأتي في أهميتها مباشرة بعد الأضرار التي

سببها كيم فيلبي لم يقضِ في السجن إلا جزءًا بسيطًا من ال42 سنة التي حكم عليه بها، ففي أكتوبر 1967 خلع القضبان التي لم تثبت جيدًا بالأسمنت في إحدى نوافذ سجن وورم وود في لندن، واختفى ليظهر بعد فترة قصيرة في موسكو، ومرة أخرى تمكن الروس من العناية بأحد رجالهم.

وكان عمل بليك في السجن الإشراف الإداري على المطعم، وفي يوم هربه أدخل في السجلات الوارد والصادر وكتب ملاحظة ساخرة يعتذر فيها عن إتمام الحساب بسبب ضيق الوقت!!

11

أوليج بنكوفسكي..

جاسوس برتبة كولونيل!



ن أوليج بنكوفسكي أحد أكثر جواسيس الحرب الباردة بين الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة الأمريكية الذين حققوا نجاحًا ملحوظًا.

وبينما كان بنكوفسكي يخدم ككولونيل في المخابرات الحربية السوفييتية في أوائل الستينيات، التقط آلاف الصور لوثائق بالغة السرية بكاميرا دقيقة، ومرر الميكروفيلم إلى المخابرات الأمريكية والبريطانية.

ولا يزال الأمريكان يعدونه أفضل جاسوس سوفييتي عمل لصالح الغرب خلال حقبة الحرب الباردة، وكيف لا، وقد كان يشغل موقعًا حيويًا ومنصبًا مركزيًا في سلك الاستخبارات العسكرية السوفييتية، ومن ثم انفتحت أمامه كل أسرار الكرملين في مجالات التسليح على وجه الخصوص مما جعل تجنيده لحساب واشنطن وبالطبع خيانته لموسكو وإذاعته أسرارها ضربة معلم كما يقولون في تاريخ الجاسوسية الحديثة.

فقد زود الجاسوس السوفييتي العميل أمريكا بكنز من المعلومات الخطيرة ليس أقلها ما تلقته منه المخابرات المركزية الأمريكية من معلومات مفصلة عن سياسات الكرملين العسكرية وعن برامج الأسلحة السوفييتية المتطورة باهظة التكاليف. وقد كانت واشنطن تحسب

لها ألف حساب وشملت المعلومات رسومات دقيقة لمواقع الصواريخ المنصوبة على الأرض الروسية، ورغم أن هذه الأحداث التجسسية وقعت خلال حقبة الحرب الباردة. وكانت التحدي الأكبر الذي يقابل هذا الجاسوس السوفييتي هو أنه يرتكب تلك الممارسات الجاسوسية في موسكو، المليئة بالآلاف من موظفي الاستخبارات السوفييتية «كي جي بي»، بالإضافة إلى أن الإعدام كان المصير الذي ينتظر أي جاسوس يتم الإمساك به، فلم يكن أخطر في ذلك الوقت من تنفيذ مهمة القيام بالجاسوسية في موسكو.

وتحت هذه الظروف الصعبة، قدم بنكوفسكي معلومات ساعدت على إنهاء «أزمة الصواريخ الكوبية» دون إشعال حرب.

ففي عام 1962، قام طيار من طائرة استطلاع U-2 بالتقاط صور لغرب كوبا من الجو، أظهرت وجود سلسلة من الصواريخ غير المعتادة، ولم تشاهد في كوبا قبل ذلك، فأحدثت تلك الصور قلقًا بالغًا لمحللي وكالة الاستخبارات المركزية «سي آي إيه»، لذا قاموا

بفحص معلومات قدمها لهم بنكوفسكي لمعرفة ماهية تلك الصواريخ.

وكان بنكوفسكي قد قام بالتقاط صور لكتيبات عسكرية بالغة السرية، بينهما كتيب لصاروخ يحمل اسم «آر 12» تم تصميمه لحمل رأس نووية قوته التفجيرية ميجاطن وهي قوة انفجارية تعادل مليون طن من ثالث نتريت التولين، وتوصل المحللون إلى أن الصواريخ الكوبية هي من ذات الطراز، وأسدوا نصحًا للرئيس الأمريكي آنذاك جون كنيدي اعتمادًا على معلومات بنكوفسكي. وأصدر كنيدي أمرًا بحصار أمريكي بحري لكوبا.

لكن قصة نجاح الجاسوس الروسي توقفت عندما تمكنت «كي جي بي» من إلقاء القبض عليه في 22 أكتوبر عام 1962.

وقالت الصحف البريطانية -آنذاك- إن الأسباب التي دفعت بنكوفسكي إلى أن يعمل كجاسوس ضد بلده تمثلت في كرهه للزعيم السوفييتي نيكيتا خروشوف،

كما كان غاضبًا من عدم ترقيته إلى رتبة الجنرال، بما جعله راغبًا في معاقبة السوفييت.

وتم إعدام الجاسوس الروسي أوليج بنكوفسكي عام 1963 بعد أقل من عام من اعتقاله.



12

إليزابيث ثورب..

الجاسوسة العارية!



نت فاتنة وجمالها لا يُقاوَم..وأنوثتها كانت طاغية، بحيث كانت تستحوذ على اهتمام الرجال الطامحين للحصول، ولو على نظرة حانية منها أو التفاتة بسيطة.

الاسم الحركي الذي حملته هذه الجاسوسة هو «سينشيا» أما اسمها الحقيقي فهو إيمي إليزابيث تورب، والتي سميت بعدها بيتي باك.

هذه الفاتنة كانت واحدة من أكثر الجاسوسات المحترفات في الحرب العالمية الثانية، حيث بلغت بها الجرأة اقتحام السفارة الفرنسية في واشنطن لسرقة كتب الشفرات البحرية الفرنسية من خزينة في غرفة مقفلة تحظى بحراسة رهيبة.

ولدت إيمي إليزابيث تورب في أمريكا وتزوجت دبلوماسيًّا بريطانيًّا يدعي آرثر باك خلال ثلاثينيات القرن الماضي.

وقد كان زوجها جافًّا غليظًا لايتناسب أبدًا مع زوجة بهذا الجمال وبروح المغامرة، ولكنها بقيت معه لأن طبيعة عمله سمحت لها بالذهاب إلى التشيلي وإسبانيا وبولندا، وفيها سنحت لها الفرصة ببدء حياة المغامرة إذ تلقت دعوة من الاستخبارات البريطانية عام 1937 للعمل لحسابها وقد قبلت فورًا.

أخذت إيمي الاسم الرمزي سينشيا، وأصبحت بسرعة عشيقة لموظف مرموق في وزارة الخارجية البولونية، أعطاها معلومات هامة عن التطورات في ألمانيا وفي تشيكوسلوفاكيا.

ولكن الأهم من ذلك أنها علمت عن مهندسين بولونيين يعملون في صنع آلة الشيفرة الألمانية السرية، وكان ذلك الخطوة الأولى في عملية سمحت للبريطانيين بالحصول على مفاتيح الرموز التي أطلعتهم على اتصالات هتلر السرية.

وفي سنة 1941 كانت سينشيا في نيويورك وانضمت لمجموعة النجوم العاملين لصالح رابطة الأمن البريطانية.

وعندما احتاج وليم ستيفنسون لمن يستكشف أسرار السفارة الإيطالية وسفارة فيشي الفرنسية لم يجد أفضل منها لذلك، فجهز لها شقة مريحة في واشنطن وأخذت تحضر حفلات الكوكتيل لعلية القوم في العاصمة الأمريكية، وجددت من معرفتها بالأدميرال

ألبرتو ليز وقد أصبح الملحق العسكري لموسوليني في الولايات المتحدة الأمريكية.

وبعكس غيرها من جاسوسات الإغراء، لم تخف نواياها عن عشيقها فأخبرته صراحة أنها تريد مفاتيح الشيفرة الإيطالية لتعطيها لمخابرات الحلفاء لتستخدم ضد بلاده.

وكان مفتونًا بها لدرجة أنه أحضر لها ما طلبت لتنسخها وقد ذهل العاملون في رابطة الأمن البريطانية للسهولة التي حققت بها هذا الإنجاز الهام. وقال أحدهم: «إن من المدهش أن رجلًا في مثل خبرة الأدميرال ومنصبه الهام وبرغم تدريبه السابق وعقيدته الوطنية قد نسي كل شيء في سبيل الحب».

وساعدت مفاتيح الشيفرة الإيطالية الأسطول البريطاني علي مناورة أسطول المحور الأكبر عددًا في البحر المتوسط، وكان لذلك أهمية عظيمة في حملة الخلفاء على شمال إفريقيا.

وعندما أوقعت سينشيا الأدميرال ليز في حبائلها، وأعطاها كل ما تريد رمت به بدون شفقة، وأخبرت مكتب التحقيقات الفيدرالي الأمريكي عن معرفته بعمليات التخريب التي حدثت في الموانى الأمريكية، فاعتبر شخصًا غير مرغوب به وطُرد من أمريكا، كان هدفها التالي سفارة فيشي الفرنسية. وكانت حكومة فيشي ألعوبة بيد النازية كونتها لحكم فرنسا المحتلة، وكان المسؤول الإعلامي في السفارة الكابتن تشارلز بروس طيارًا بحريًّا سابقًا.

وقد تعاون مع المخابرات البريطانية قبل الحرب، ولكنه كان حانقًا على الحلفاء لأن الأسطول البريطاني هاجم البحرية الفرنسية في عام 1940 ليغرق أكبر عدد ممكن من القطع، حتى لا يستخدمها الألمان ضد الحلفاء بعد السيطرة على فرنسا، كما أن بروس لم يكن يحب الأمريكيين فقد اعتبرهم أجلافًا لم يستطيعوا تفهم الموقف الدقيق لبلاده.

وبهدوء وتخطيط استطاعت سينشيا أن تربحه لجانبها، فقد كان جمالها لا يضاهيه إلا ذكاؤها،

واستسلم لها بروس وتعلق بها لدرجة أنه وافق على أن تنتقل إلى نفس الفندق الذي يقيم فيه مع زوجتة الثالثة، وقد أطلعها على وجود كمية من الذهب الفرنسي مخبأة في جزر المالرتينيك في البحر الكاريبي، فأرسلت رابطة الأمن البريطانية عملاءها للاستيلاء على الذهب ومنع النازيين من استعماله.

وقد استعمل ستيفنسون هذا الذهب كتأمين أثناء المباحثات للحصول على قروض للمجهود الحربي البريطاني من الأمريكيين.

كما علمت عن مؤامرات النازيين ضد مواصلات الحلفاء البحرية وكشفت عملاء الألمان في أمريكا الشمالية والجنوبية، الذين يعملون من خلال المؤسسات الفرنسية ثم صدرت لها أوامر جديدة صعبة وهي الاستيلاء على الشيفرة البحرية الفرنسية الجديدة وهي محفوظة في غرفة محصنة في السفارة الفرنسية في واشنطن ولم يكن بروس قادرًا على الوصول إليها، وخططا معًا لقصة الغرام الحزينة التي أقنعا بها الحارس الليلي.

وأدت الهدايا وقصة الزوج الذي يخشى الفضيحة لتليين الحارس ثم أحضرا له زجاجة الشمبانيا مع المنومات. وكانت شكوك الحارس في محلها فيما كان مستغرقًا في النوم أدخلت سينشيا وبروس خبير الأقفال من باب جانبي للسفارة فدرس وضع الخزانة التي احتوت الشيفرة، وفي الليلة التي رأت عينا الحارس فيها سينشيا العارية كان عملاء رابطة الأمن البريطانية في الغرفة الحصينة ينسخون الشيفرة.

وكانت هذه العملية ضربة موفقة للجاسوسية غيرت وجه الحرب، وقد ورد في وثائق رابطة الأمن البريطانية أن إغراء سينشيا لعدد من الرجال الهامين في فترة الحرب قد فتح الطريق إلى تحرير فرنسا وإلى قهر ألمانيا في النهاية.

ونبهت سينشيا لندن للآلة السرية التي اعتمدها هتلر للرد على نجاح الحلفاء بفك رموز الشيفرة الألمانية في الحرب العالمية الأولى، فقد صمم على أن لا يسمح لأحد باعتراض مراسلاته العسكرية.كما اعترض خبراء الشيفرة في الغرفة 40 في مركز بليتكر هول مراسلات

القيصر في الحرب الأولى وكانت الآلة السرية تحول الرسائل لتشويش غير مفهوم ثم تبثها برموز مورس، ولا يمكن أن تفك رموز الرسالة إلا من قبل من يملك آلة أخرى مشابهة.

وحاولت الاستخبارات البريطانية أن تعرف المزيد بعد تنبيه سينشيا، وكان للمخابرات اليولونية عملاء في المصانع التي تركب فيها الآلة السرية واستطاعت الحصول على الكثير من التفاصيل عنها، ثم تمكنوا من تسليم البريطانيين نموذجًا مشابهًا لها، وفي عام 1941 حصلت البحرية الملكية على آلة أصلية من غواصة ألمانية مدمرة، وصنع العلماء البريطانيون آلة تماثلها في الروعة مع جهاز أتوماتيكي لفك الشيفرة.

وبدأ فريق بقيادة الكاتب إدوارد هاستينفر بنشاط شديد بتسجيل الرسائل الألمانية وفك شيفرتها، واتخذ له مقرًا في بيت ريفي في بلتشلي بارك في باكينجهام شامير دعي بالمحطة «إكس»، وقد قدمت سيلا من المعلومات التي لا تقدر بثمن.

واستطاعت البحرية الملكية أن تطارد الغواصات الألمانية وتدمر منها أكثر من قدرة ألمانيا على إنتاج المزيد.

كما حذرت مونتجومري من فخ نصبه له رومل لتدمير جيشه الثامن بعد معركة العلمين، كما أدت هذه المعلومات لإغراق البارجة بسمارك. وكان الحلفاء على اطلاع علي آخر الخطط الحربية للقيادة الألمانية، وكان من الهام جدًّا أن لا يعلم هتلر أن البريطانيين اخترقوا رموزه السرية حتى لا يغيرها بآلة أو طريقة أخرى لا يستطيعون معرفتها.

واضطر الحلفاء مرارًا لأن يعضوا على شفاههم وهم يتفرجون على كوارث يستطيعون منعها، فمثلا كانوا يعلمون أن المقاتلات الألمانية ستهاجم الطائرة التي تحمل ليزلي هوارد في مهمته السرية لحساب قائد رابطة الأمن البريطانية في أمريكا وليم ستيفنسون، لأنهم فكوا رموز الأمر الصادر بذلك عن القيادة الجوية الألمانية، وكان تحويل مسار الطائرة أو إلغاء الرحلة يهدد بكشف قدرة الحلفاء على اعتراض المراسلات

العسكرية الألمانية وبالتالي دفع هوارد حياته ثمنًا لهذا السر.

وفد تطوعت سينشيا لمزيد من الأعمال في أوربا وأرادت أن تنزل بالمظلة خلف خطوط العدو لتقوم ببعض الاغتيالات، وبرغم أنها تعرضت للمخاطر قبلا ولكن رؤساءها لم يرغبوا بالتضحية بها، وبعد عام 1945 طلق بروس زوجته ووجد زوج سينشيا أرثر باك مقتولا بالرصاص في الأرجنتين، وكانت صحته سيئة قبل ذلك، وأصبح الطريق مفتوحًا لزواج العاشقين وعاشا في قصر في جنوب فرنسا حتى عام 1963، حيث توفيت أعظم جاسوسات الإغراء في العالم من السرطان، وتوفي بروس بعد ذلك بعشر سنوات.

WANTED



FOR QUESTIONING BY THE FBI

Amy Elizabeth Pack
alias Cynthia, Judy Brackett, Betty Thorpe
Suspected of Espionage

If you see this person, contact local authorities immediately.



«مطلوب القبض عليها».. هكذا كان البحث عن إليزابيث في كل مكان لاعتقالها

13

دوسان بوبوف..

«مستر تريسكل»!



ن الاسم الكودي له «مستر تريسكل» ويعتقد البعض أنه الأصل الحقيقي لشخصية «جيمس بوند»، وليس سيدني رايلي المعروف تاريخيًا بأنه النسخة الأصلية من جيمس بوند.

كان بوبوف وسيمًا ومثقفًا ولديه ثقة عالية بالنفس، وكان محاميًا بارعًا في يوغوسلافيا، وكان محبوبًا من السيدات بصفة خاصة.

وكان صديقًا لـ«آلان فليمنج» المؤلف الإنجليزي مبتكر شخصية «جيمس بوند»- ولعل هذا ما يدفع البعض للاعتقاد بأنه استوحى منه شخصية جيمس بوند.

وكان لبوبوف دور رئيسي في حسم الحرب العالمية الثانية لصالح قوات التحالف، بعد أن كان قادة المحور بقيادة الزعيم الألماني أدولف هتلر قاب قوسين أو أدنى من تحقيق نصر كاسح وإلحاق هزيمة نكراء بقادة بريطانيا وروسيا بعد أن استسلمت له باريس.

ويعد بوبوف الذي ولد في يوغوسلافيا السابقة عام 1912 أحد أنجح عملاء الاستخبارات البريطانية على مدار التاريخ.

وكان بوبوف يتمتع بكل ما يجب أن يتمتع به الجاسوس من ذكاء وشجاعة ولباقة في الحديث

وقدرة على الخداع وإلباس الباطل ثوب الحقيقة، كما كان لقدرته على الإيقاع بالنساء اللواتي كان يستخدمهن في تسريب وجمع المعلومات دور كبير في حياته.

وقد نشأ وترعرع بوبوف في مدينة دوبروفنيك اليوغسلافية حيث كان أبوه يعمل كمدير لأحد المصارف، وتلقى بوبوف تعليمه في كل من بريطانيا وفرنسا وألمانيا وتدرب لدى أحد المحامين بعد تخرجه وعندما اندلعت الحرب، كان بوبوف شأن معظم الجواسيس في ذلك الوقت، يعمل في مجال الاستيراد والتصدير.

وحدث أن التقاه أحد أصدقائه الألمان من جامعة فراينبورج، حيث كان يدرس لفترة واقترح عليه العمل مع جهاز الاستخبارات الألماني، غير أن ولاء بوبوف كان متجهًا إلى مكان آخر.

وبعد أن أوهم صديقه، الذي كان يدعى جوني جيبسن، بقبول العرض توجه الداهية الشاب إلى السفارة

البريطانية في بلجراد وبدأ حياة الجاسوسية كعميل مزدوج.

وبعد وضع أسس التعامل مع المخابرات الألمانية جمع بوبوف حقائبه التي كانت تحتوي على كل ما يلزم عمل الجاسوس من حبر سري وأدوات فك الشفرة ورحل إلى بريطانيا في مهمة أراد منه الألمان فيها جمع معلومات عن خطوط الدفاع الساحلية البريطانية ومدافع «آك آك» وحجم شهرة رئيس الوزراء البريطاني آنذاك تشرشل وأشياء أخرى متعلقة بعملية «سي ليون» أو «أسد البحر» كما تعني ترجمتها، والتي كان الهدف منها غزو بريطانيا من قبل القوات النازية.

وبمجرد وصول بوبوف إلى الأراضي البريطانية استطاع الهروب من مراقبة الألمان واتجه إلى مقابلة رجال جهاز «إم آي 5» وهو جهاز الاستخبارات البريطاني الداخلى - الخارجى إم آى 6 -، للاتفاق على آلية العمل وكان من المهم لإنجاح مهمته أن يقوم بوبوف بإعطاء معلومات صحيحة إلى حد ما للألمان

على أن تكون غير دقيقة أو قديمة بحيث لا يمكن للألمان الاستفادة منها، وفي الوقت نفسه يستطيع بوبوف من خلالها كسب ثقة الألمان.

ومرت السنون واستطاع بوبوف بفضل عبقريته وإمكاناته الفائقة أن يضلل الألمان في أشياء عدة وإفادة الإنجليز في الوقت نفسه بما كان يحصل عليه من معلومات من النازيين.

وعلى الرغم من الكفاءة المعروفة لجهاز الاستخبارات الألماني وقتها والشهرة العالمية التي كان يتمتع بها رجال جهاز «أبوير» إلا أن العملاء الألمان في بريطانيا لم يكن لديهم الأدوات والوسائل التي تمكنهم من أداء عملهم بشكل دقيق شأن زملائهم في البلدان الأخرى، ومن ثم فإن جميعهم تقريبًا وقعوا في أيدى الاستخبارات البريطانية وتحولوا إلى عملاء مزدوجين شأن بوبوف الذي كان يلعب دورًا كبيرًا في هذا الصدد، ومن قبيل المفارقة هنا أن بوبوف استطاع تحويل صديقه جيبسن الذي كان قد دفعه إلى العمل مع

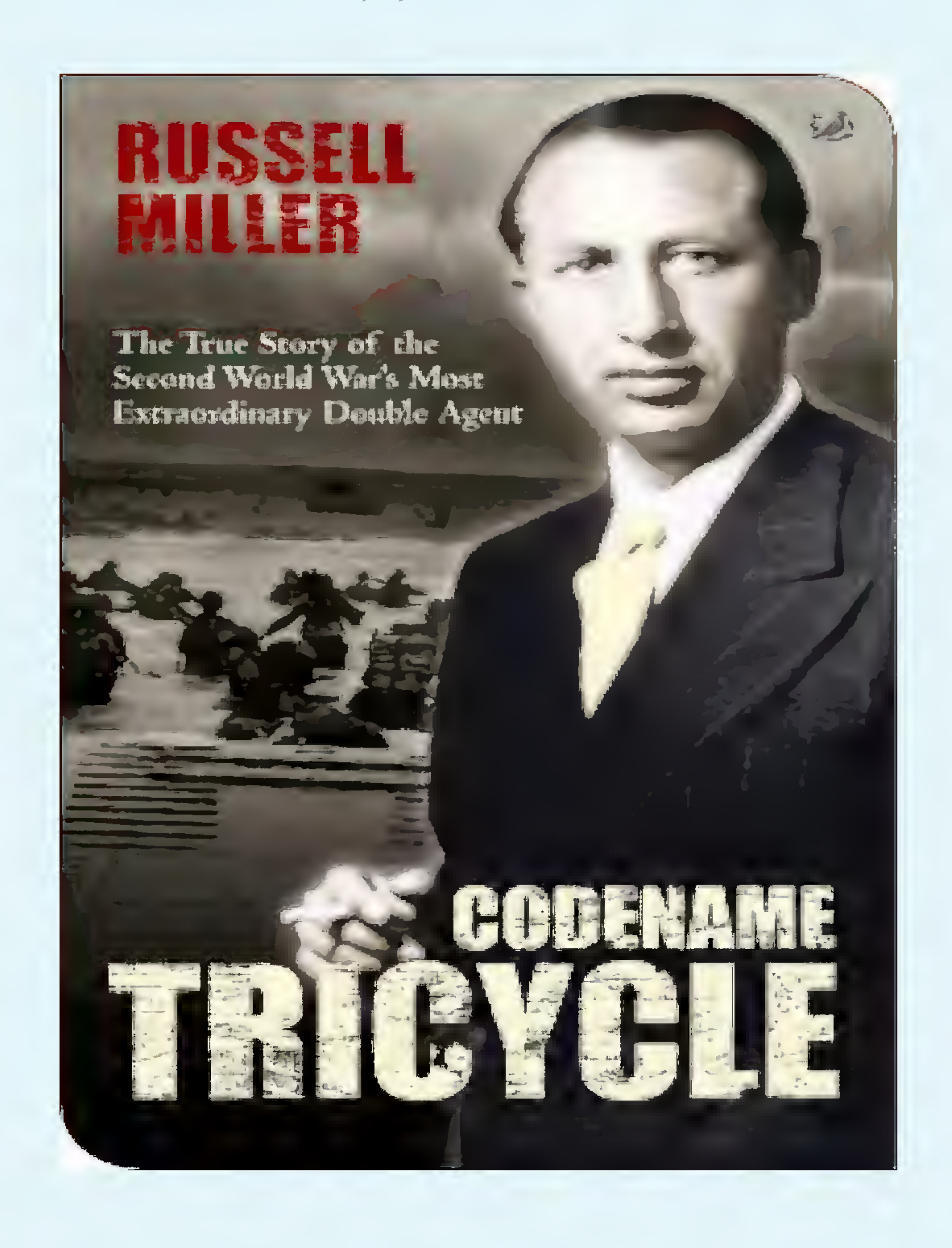
الألمان من عميل ألماني إلى عميـل مزدوج يعمل أيضًا لصالح المخابرات البريطانية.

وفي 1941 قرر الألمان إرسال بوبوف إلى الولايات المتحدة وقبيل رحيله إلى نيويورك أخبره صديقه جيبسن أن الألمان يحاولون الحصول على معلومات حول القاعدة البحرية الأمريكية في بيرل هاربور، تمهيدًا للقيام بعملية عسكرية ضدها عن طريق اليابانيين، فما كان من بوبوف إلا أن أخبر مكتب التحقيقات الفيدرالي الأمريكي بذلك ولكن دون جدوى حيث رفض قادة المكتب تصديق بوبوف وشككوا في قدراته واتهموه بأنه زير نساء لايهتم إلا بإيقاع الجنس الناعم في حبائله، وبالتالي لم يعلم الرئيس الأميركي وقتها فرانكلين روزفلت بأمر الهجوم الذي وقع بعد ذلك بالفعل.

وعلى الرغم من عدم نجاحه في إبطال هجوم اليابانيين على بيرل هاربور، إلا أن بوبوف كان له دور كبير في حسم أمر الحرب بعد ذلك، إذ استطاع عن طريق حيله وقدراته البارعة في خداع الآخرين أن

يضلل الألمان ويدفعهم إلى الاعتقاد بأن الضربة الأساسية التي سيقوم بها الإنجليز ستكون على مضيق دوفر بين إنجلترا وفرنسا وليس على منطقة نورماندي التي بالفعل هاجمها البريطانيون بمساعدة الأمريكيين والكنديين والمتطوعين الفرنسيين واستطاعوا تحقيق النصر الحاسم الذي أنهى الحرب العالمية الثانية لصالح قوات التحالف.

وقضى بوبوف السنوات التي أعقبت الحرب في فرنسا، وفي 1974 نشر مذكراته بعنوان: «الجاسوس والجاسوس المضاد» قبل أن يتوفى في عام 1981.



مستر تريسكل.. هكذا احتل اسم هذا الجاسوس الحركي أغلفة الكتب والمجلات

14

رأفت الهجان..

حطم أسطورة الموساد



رأفت الهجان هو الاسم الحركي للمواطن المصري رفعت علي سليمان الجمال، الذي رحل إلى إسرائيل بتكليف من المخابرات المصرية في إطار خطة منظمة

في يونيو عام 1956، وتمكن من إقامة مصالح تجارية واسعة وناجحة في تل أبيب وأصبح شخصية بارزة في المجتمع الإسرائيلي.

وقام الهجان ولسنوات طويلة بالتجسس وإمداد جهاز المخابرات المصري بمعلومات مهمة تحت ستار شركة سياحية داخل إسرائيل، حيث زود بلاده بمعلومات خطيرة منها موعد حرب يونيو لسنة 1967.

وكان له دور فعال في الإعداد لحرب أكتوبر سنة 1973، بعد أن زود مصر بتفاصيل عن خط بارليف.

وقد أحدثت عملية الكشف عن الدور الذي لعبه رأفت الهجان هزة عنيفة لجهاز الاستخبارات الإسرائيلي «الموساد»، وإنهاء ما كان يحاول الترويج له من أنه جهاز أسطوري، ويستحيل اختراقه، بينما التف المصريون والعرب حول هذه الشخصية، حيث نظروا إليه كبطل قومي في مصر عمل داخل إسرائيل بنجاح باهر لمدة 17 سنة. وتم بث مسلسل تلفزيوني عن

حياة الهجان وقام بتمثيل دوره الممثل المصري محمود عبد العزيز.

من جهة أخرى كان الرد الرسمي من جانب المخابرات الإسرائيلية في البداية «إن هذه المعلومات التي أعلنت عنها المخابرات المصرية ما هي إلا نسج خيال ورواية بالغة التعقيد، وإن على المصريين أن يفخروا بنجاحهم في خلق هذه الرواية». لكن وتحت ضغوط الصحافة الإسرائيلية، صرح رئيس الموساد الأسبق إيسر هاريل أن «السلطات كانت تشعر باختراق قوي في قمة جهاز الأمن الإسرائيلي، ولكننا لم نشك مطلقا في جاك بيتون وهو الاسم الإسرائيلي للهجان».

وبدأت الصحافة الإسرائيلية ومنذ عام 1988، تحاول التوصل إلى حقيقة الهجان أو بيتون، أو الجمال فقامت صحيفة «جيروزاليم بوست» الإسرائيلية بنشر خبر تؤكد فيه أن جاك بيتون، أو رفعت الجمال يهودي مصري من مواليد المنصورة عام 1919 وصل إلى إسرائيل عام 1955، وغادرها للمرة الأخيرة عام 1973.

وقالت إنه استطاع أن ينشئ علاقات صداقة مع عديد من القيادات في إسرائيل، منها جولدا مائير رئيسة الوزراء السابقة، وموشي ديان وزير الدفاع. وبعد سنوات قام صحفيان إسرائيليان وهما إيتان هابر ويوسي ملمن بإصدار كتاب بعنوان «الجواسيس» وفيه قالا إن العديد من التفاصيل التي نشرت في مصر عن شخصية الهجان صحيحة ودقيقة.

وُلِدَ رفعت على سليمان الجمال في محافظة «دمياط» المصرية في الأول من يوليو 1927، حيث كان والده يعمل في تجارة الفحم، أما والدته فكانت ربة منزل تنتمي لأسرة عريقة، وكانت تجيد اللغتين الإنجليزية والفرنسية، وكان له شقيقان هما لبيب ونزيه، إضافة إلى أخ غير شقيق هو سامي.

وبعد ذلك بسنوات تحديدًا في عام 1936 توفي «علي سليمان الجمال» والد رفعت الجمال وأصبح «سامي» الأخ غير الشقيق لـ «رأفت» هو المسؤول الوحيد عن المنزل، وكانت مكانة «سامي» الرفيعة، وعمله كمدرس لغة إنجليزية لشقيق ملكة مصر

(فريدة) تؤهله ليكون هو المسؤول عن المنزل وعن إخوته بعد وفاة والده، وبعد ذلك انتقلت الأسرة بالكامل إلى القاهرة، ليبدأ فصل جديد من حياة هذا الرجل الذي عاش في الظل ومات في الظل.

وكان رفعت -آنذاك- شخصية غير مسؤولة، وكان طالبًا مستهترًا لا يهتم كثيرًا بدراسته، وبرغم محاولات أخيه سامي أن يخلق من رفعت رجلًا منضبطًا ومستقيمًا إلا أن رفعت كان على النقيض من أخيه سامي فقد كان يهوى اللهو والمسرح والسينما، بل إنه استطاع أن يقنع الممثل الكبير بشارة واكيم بموهبته ومثل معه بالفعل في ثلاثة أفلام، لذا رأى إخوته ضرورة دخوله لمدرسة التجارة المتوسطة رغم اعتراض رفعت على إلحاقه بمثل هذه النوعية من المدارس. في المدرسة بدأت عيناه تتفتحان على البريطانيين وانبهر بطرق كفاحهم المستميت ضد الزحف النازي، تعلّم الإنجليزية بجدارة، ليس هذا فقط بل أيضًا تعلم أن يتكلم الإنجليزية باللكنة البريطانية. ومثلما تعلم رفعت الإنجليزية بلكنة بريطانية تعلم الفرنسية بلكنة أهل باريس.

وتخرج رفعت في عام 1946 وتقدم بطلب لشركة بترول أجنبية تعمل بالبحر الأحمر للعمل كمحاسب واختارته الشركة برغم العدد الكبير للمتقدمين، ربما نظرًا لإتقانه الإنجليزية والفرنسية ثم طُرد من تلك الوظيفة بتهمة اختلاس أموال. تنقل رفعت من عمل لعمل وعمل كمساعد لضابط الحسابات على سفينة الشحن «حورس» وبعد أسبوعين من العمل غادر مصر لأول مرة في حياته على متن السفينة وطافت «حورس» طويلا بين المواني: نابولي، جنوة، مارسيليا، برشلونة، جبل طارق، طنجة، وفي النهاية رست السفينة في ميناء ليفربول الإنجليزي لعمل بعض الإصلاحات وكان مقررًا أن تتجه بعد ذلك إلى بومباي الهندية.

وهناك في ليفربول وجد عرضًا مغريًا للعمل في شركة سياحية تدعى سلتيك تورز وبعد عمله لفترة مع تلك الشركة غادر إلى الولايات المتحدة دون تأشيرة دخول أو بطاقه خضراء، وبدأت إدارة الهجرة تطارده مما اضطره لمغادرة أمريكا إلى كندا ومنها إلى ألمانيا، وفي

ألمانيا اتهمه القنصل المصري ببيع جواز سفره ورفض إعطاءه وثيقة سفر بدلا عن جواز سفره، وألقت الشرطة الألمانية القبض عليه وحبسته ومن ثم رُحّل قسرًا لمصر.

ومع عودة رفعت إلى مصر، بدون وظيفة، أو جواز سفر، وقد سبقه تقرير عما حدث له في «فرانكفورت»، وشكوك حول ما فعله بجواز سفره، بدت الصورة أمامه قاتمة إلى حد محبط، مما دفعه إلى حالة من اليأس والإحباط، لم تنته إلا مع ظهور فرصة جديدة، للعمل في شركة قناة السويس، تتناسب مع إتقانه للغات. ولكن الفرصة الجديدة كانت تحتاج إلى وثائق، وأوراق، وهوية. هنا، بدأ «رفعت» يقتحم العالم السفلي، وتعرَّف على مزوِّر بارع، منحه جواز سفر باسم علي مصطفى، يحوي صورته، بدلا من صورة صاحبه الأصلي. وبهذا الاسم الجديد، عمل رفعت في شركة قناة «السويس»، وبدا له وكأن حالة الاستقرار قد بدأت.

وقامت ثورة يوليو 1952، وشعر البريطانيون بالقلق، بشأن المرحلة القادمة، وأدركوا أن المصريين يتعاطفون مع النظام الجديد، فشرعوا في مراجعة أوراقهم، ووثائق هوياتهم، مما استشعر معه رفعت الخطر، فقرَّر ترك العمل، في شركة قناة «السويس»، وحصل من ذلك المزوِّر على جواز سفر جديد، لصحفي سويسري، يُدعى تشارلز دينون.

وهكذا أصبح الحال معه من اسم لاسم ومن شخصية مزورة لشخصية أخرى إلى أن ألقي القبض عليه من قبل ضابط بريطاني أثناء سفره إلى ليبيا بعد التطورات السياسية والتغيرات في 1953، وأعادوه لمصر. واللافت في الموضوع أنه عند إلقاء القبض عليه كان يحمل جواز سفر بريطانيًا، إلا أن الضابط البريطاني شك أنه يهودي وتم تسليمه إلى المخابرات المصرية التي بدأت في التحقيق معه على أنه شخصية يهودية.

وبالنسبة لرفعت فيقول في مذكراته عن هذه المرحلة في حياته: وبعد أن قضيت زمنًا طويلًا وحدى مع

أكاذيبي، أجدني مسرورًا الآن إذ أبوح بالحقيقة إلى شخص ما. وهكذا شرعت أحكي لحسن حسني كل شيء عني منذ البداية. كيف قابلت كثيرين من اليهود في استوديوهات السينما، وكيف تمثلت سلوكهم وعاداتهم من منطلق الاهتمام بأن أصبح ممثلا. وحكيت له عن الفترة التي قضيتها في إنجلترا وفرنسا وأمريكا، ثم أخيرًا في «مصر». بسطت له كل شيء في صدق. إنني مجرد مهرج، ومشخصاتي عاش في التظاهر ومثل كل الأدوار التي دفعته إليها الضرورة ليبلغ ما يريد في حياته.

واستنادًا إلى المخابرات المصرية كانت التهمة الرئيسية للهجان عند إرجاعه إلى مصر قسرًا هي الاعتقاد أن الهجان هو ضابط يهودي واسمه ديفيد أرنسون حيث كان الهجان يحمل جواز سفر بريطانيًا باسم دانيال كالدويل، وفي نفس الوقت تم العثور بحوزته على شيكات موقعة باسم رفعت الجمال وكان يتكلم اللغة العربية بطلاقة. كان الضابط حسن حسني من البوليس السري المصري هو المسؤول عن

استجواب الهجان، وبعد استجواب مطول، اعترف رفعت الجمال بهويته الحقيقية وكشف كل ما مرت عليه من أحداث واندماجه مع الجاليات اليهودية، حتى أصبح جزءًا منهم واندماجه في المجتمع البريطاني والفرنسي.

وقام حسن حسني بدس مخبرين في سجنه ليتعرفوا على مدى اندماجه مع اليهود في معتقله، وتبين أن اليهود لا يشكون ولو للحظة بأنه ليس يهوديًا مثلهم، وتم في تلك الأثناء واستنادًا إلى المخابرات المصرية التأكد من هوية الهجان الحقيقية.

وبعد محاولات عديدة اتسمت بالشد والرخي من قبل ضابط البوليس السري حسن حسني، عُرض خياران للهجان إما السجن وإما محو الماضي بشخصيته بما فيه رفعت الجمال وبداية مرحلة جديدة وبهوية جديدة ودين جديد ودور قمة في الأهمية والخطورة والعمل لصالح المخابرات المصرية الحديثة النشوء، وبعد أن وافق رفعت الجمال على هذا الدور بدأت عمليات تدريب طويلة وشرحوا له أهداف الثورة وعلم

الاقتصاد، وسر نجاح الشركات متعددة القوميات، وأساليب إخفاء الحقائق لمستحقي الضرائب ووسائل تهريب الأموال بالإضافة إلى عادات وسلوكيات وتاريخ وديانة اليهود، وتعلم كيف يميز بين اليهود الأشكناز واليهود السفارديم وغيرهم من اليهود. وأعقب هذا تدريب على القتال في حالات الاشتباك المتلاحم والكر والفر، والتصوير بآلات تصوير دقيقة جدًّا، وتحميض الأفلام وحل شفرات رسائل أجهزة الاستخبارات والكتابة بالحبر السري، ودراسة سريعة عن تشغيل الراديو، وفروع وأنماط أجهزة المخابرات والرتب والشارات العسكرية. وكذلك الأسلحة الصغيرة وصناعة القنابل والقنابل الموقوتة وهكذا انتهى رفعت الجمال وولد جاك بيتون في 23 أغسطس 1919 من أب فرنسي وأم إيطالية وديانته يهودي أشكنازي وصار له جواز سفر إسرائيلي صادر من تل أبيب برقم (146742) وانتقل للعيش في حي في الإسكندرية تسكنه الطائفة اليهودية وحصل على وظيفة مرموقة في إحدى شركات التأمين وانخرط في هذا الوسط وتعايش معهم حتى أصبح واحدًا منهم.

وهناك جدل حول الضابط المسؤول عن تجنيد الهجان وزرعه داخل إسرائيل فبعض المصادر تشير إلى حسن حلمي بلبل وهو أحد الرجال الذين أنشأوا المخابرات المصرية العامة، وكان يرمز له في مسلسل رأفت الهجان باسم حسن صقر، وكان عبد المحسن فايق مساعدًا له وكان يرمز له في المسلسل باسم محسن ممتاز.

بينما يعتقد البعض الآخر أن اللواء عبد العزيز الطودي أحد ضباط المخابرات المصرية العامة الذي كان يرمز له في مسلسل رأفت الهجان باسم عزيز الجبالي، كان مسؤولا عن الاتصال وعمل رفعت الجمال داخل إسرائيل، بينما يذهب البعض الآخر أن العملية كانت مجهودًا جماعيًا ولم تكن حكرًا على أحد.

وفي مذكراته يكشف «رفعت الجمّال» بأنه قد انضمّ، أثناء وجوده في الإسكندرية، إلى الوحدة اليهودية، التي أنشأها الكولونيل اليهودي إبراهام دار، لحساب المخابرات الحربية الإسرائيلية «أمان»، والتي شرع بعض أفرادها في القيام بعمليات تخريبية، ضد بعض

المنشآت الأمريكية والأجنبية، على نحو يجعلها تبدو كما لو أنها من صنع بعض المنظمات التحتية المصرية، فيما عرف بعدها باسم فضيحة لافون، نسبة إلى بنحاس لافون، وزير الدفاع الإسرائيلي آنذاك. وفي الوحدة 131، كان (رفعت الجمّال) زميلًا لعدد من الأسماء، التي أصبحت فيما بعد شديدة الأهمية مثل مارسيل نينو وماكس بينيت، وإيلي كوهين، ذلك الجاسوس الذي كاد يحتلّ منصبًا شديد الحساسية والخطورة، بعد هذا بعدة سنوات، في سوريا.

وأثناء رحلة الجمّال الطويلة في مشوار عمله الجاسوسي والاستخباري تنقل لعدد من المحطات المهمة للوثوب إلى هدفه أهمها فرنسا وإيطاليا والعراق، الذي زاره بمهمة رسمية عام 1965 على عهد الرئيس العراقي الراحل عبد السلام عارف ضمن اتفاق الوحدة الثلاثية بين مصر والعراق وسوريا، حيث اتفقت الحكومات الثلاث لاتخاذ خطوات من شأنها تفعيل الإجراءات الخاصة بالوحدة من خلال تنفيذ خطة التبادل الإستراتيجي للدفاع المشترك الخاص

بانتشار القطع العسكرية لتلك الدول على أراضيها، حيث أرسلت بعض وحدات المشاة وأسراب الطائرات العراقية لمصر وسوريا، وتم استقبال وحدات تلك الدول في العراق بضمنها كتيبة من القوات الخاصة المصرية ومجموعة من عناصر جهاز المخابرات المصري العامل ضد «إسرائيل» وكان بضمنهم رفعت الجمال.

ويقول رفعت في مذكراته عن تلك الفترة:مرة أخرى وجدت نفسي أقف عند نقطة تحول خطيرة في حياتي. لم أكن أتصور أنني لا أزال مدينًا لهم، ولكن الأمر كان شديد الحساسية عندما يتعلق بجهاز المخابرات. فمن ناحية روعتني فكرة الذهاب إلى قلب عرين الأسد. فليس ثمة مكان للاختباء في إسرائيل، وإذا قُبض عليّ هناك فسوف يسدل الستار عليّ نهائيًا، والمعروف أن إسرائيل لا تضيع وقتًا مع العملاء الأجانب. يستجوبونهم ثم يقتلونهم. ولست مشوقًا إلى ذلك. ولكني كنت أصبحت راسخ القدمين في الدور الذي تقمصته، كما لو كنت أمثل دورًا في

السينما، وكنت قد أحببت قيامي بدور «جاك بيتون». أحببت اللعبة، والفارق الوحيد هذه المرة هو أن المسرح الذي سأؤدي عليه دوري هو العالم باتساعه، وموضوع الرواية هو الجاسوسية الدولية. وقلت في نفسي أي عرض مسرحي مذهل هذا؟... لقد اعتدت دائمًا وبصورة ما أن أكون مغامرًا مقامرًا، وأحببت مذاق المخاطرة. وتدبرت أمري في إطار هذه الأفكار، وتبين لي أن لا خيار أمامي. سوف أؤدي أفضل أدوار حياتي لأواجه خيارين في نهاية المطاف: إما أن يُقبض عليّ وأستجوب وأشنق، أو أن أنجح في أداء الدور وأستحق عليه جائزة الأوسكار.

تسلم الجمال مبلغ 3000 دولار أمريكي من المخابرات المصرية ليبدأ عمله وحياته في إسرائيل. وفي يونيو 1956 استقل سفينة متجهة إلى نابولي قاصدًا أرض الميعاد.

ومن إنجازات رفعت الجمال أو رأفت الهجان تزويد مصر بميعاد العدوان الثلاثي على مصر قبله بفترة مناسبة إلا أن السلطات لم تأخذ الأمر بمأخذ الجد،

وتزويد مصر بميعاد الهجوم عليها في 1967 إلا أن المعلومات لم تأخذ مأخذ الجد لوجود معلومات أخرى تشير بأن الهجوم سيكون منصبًّا على سوريا.

ومن نجاحاته أيضًا، إبلاغ مصر باعتزام إسرائيل إجراء تجارب نووية، واختبار بعض الأسلحة التكنولوجية الحديثة، أثناء لقائه برئيسه علي غالي في ميلانو.

كما زود مصر بالعديد من المعلومات التي ساعدت مصر على الانتصار في حرب أكتوبر، وكانت له علاقة صداقة وطيدة بينه وبين موشي ديان وعيزر وايزمان وشواب وبن جوريون.

وبالنسبة لمذكراته، فقد قرر الهجان أن يكتب مذكراته، وأودعها لدى محاميه، على أن يتم تسليمها لزوجته بعد وفاته بثلاث سنوات حتى تكون قد استعادت رباط جأشها ولديها القدرة على أن تتماسك وتتفهم حقيقة زوجها الذي عاش معها طوال هذه السنوات الطوال. ويروي في مذكراته كيف حصل على امتياز التنقيب عن البترول المصري، في عام 1977، ليعود

أخيرًا إلى مصر وفي نهاية مذكراته، يتحدَّث رفعت الجمَّال عن إصابته بمرض خبيث، وتلقيه العلاج الكيمائي، في أكتوبر، وقد كتب «الجمال» وصية تفتح في حال وفاته، وكان نصها كالتالي:

«هذه وصيتي. أضعها أمانة في أيديكم الكريمة. السلام على من اتبع الهدى. باسم الله الرحمن الرحيم إنّا لله وإنّا إليه راجعون. لقد سبق وتركت معكم ما يشبه وصية، وأرجو التكرم باعتبارها لاغية، وهأنذا أقدم لسيادتكم وصيتي بعد تعديلها إلى ما هو آت: في حالة عدم عودتي حيًّا أرزق إلى أرض الوطن الحبيب مصر أي أن تكتشف حقيقة أمري في إسرائيل، وينتهي بي الأمر إلى المصير المحتوم الوحيد في هذه الحال، وهو الإعدام شنقًا، فإنني أرجو صرف المبالغ الآتية: لأخي من أبي سالم علي الجمال، القاطن.. برقم.. شارع الإمام علي مبلغ.. جنيه. أعتقد أنه يساوى إن لم يكن يزيد على المبالغ التي صرفها عليَّ منذ وفاة المرحوم والدي عام 1935، وبذلك أصبح غير مدين له بشيء.

ولأخي حبيب علي الهجان، ومكتبه بشارع عماد الدين رقم...، مبلغ... كان يدّعي أني مدين له به، وليترحم عليّ إن أراد.

ومبلغ... لشقيقتي العزيزة شريفة حرم الصاغ محمد رفيق والمقيمة بشارع الفيوم رقم.. بمصر الجديدة بصفة هدية رمزية متواضعة مني لها، وأسألها الدعاء لي دائما بالرحمة.

أما المبلغ المتبقي من مستحقاتي يقسم كالآتي: نصف المبلغ لطارق محمد رفيق نجل الصاغ محمد رفيق وشقيقتي شريفة، وليعلم أنني كنت أكن له محبة كبيرة. النصف الثاني يصرف لملاجئ الأيتام بذلك أكون قد أبرأت ذمتي أمام الله، بعد أن بذلت كل ما في وسعى لخدمة الوطن العزيز، والله أكبر والعزة لمصر الحبيبة إنا لله وإنا إليه راجعون».

وقد توفي الجمال بعد معاناته بمرض سرطان الرئة عام 1982 في مدينة دارمشتات القريبة من فرانكفورت بألمانيا.

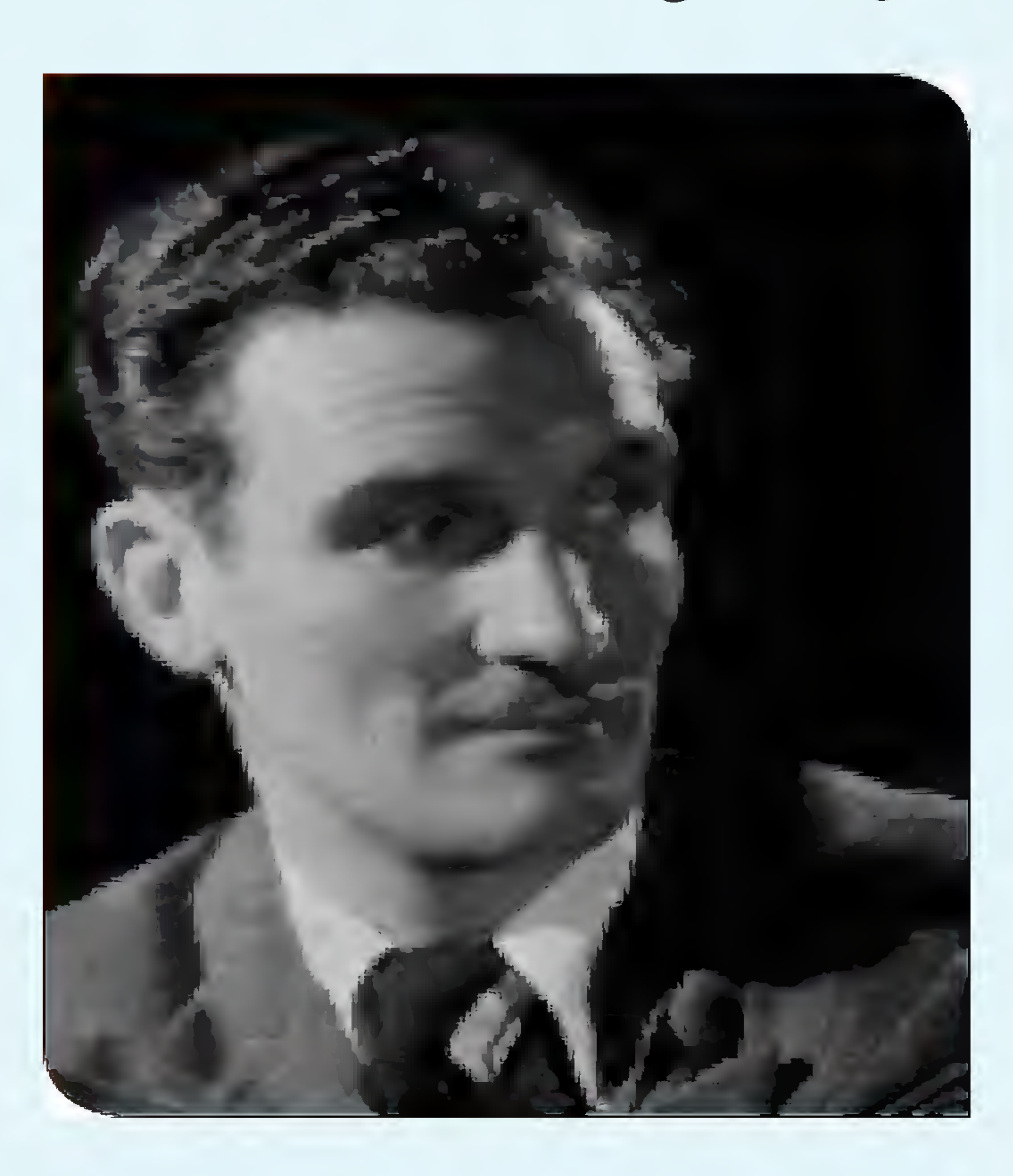


رأفت الهجان مع زوجته فالتراود بيتون بعد زواجهما مباشرة

15

إيدي تشابمان

الجاسوس «الزجزاج»!



اسمه الحركي «الزجزاج» وهو خبير مفرقعات، وعلى عكس الكثيرين لم يستخدم ذكاءه في شيء مفيد، بل استغله في سرقة المجوهرات وكسر الأقفال، حتى أصبح من أكبر لصوص الخزائن في لندن.

وفي عام 1939، تم القبض عليه في محاولة منه لسرقة ملهى ليلي، لكن القدر كان يخبئ له مفاجآت أخرى.

ففي عام 1940 وكانت ألمانيا وإنجلترا في ذلك الوقت في حالة حرب، فهرب إلى فرنسا، حيث كانت تحتلها ألمانيا، وسلم نفسه للسلطات الألمانية هناك، وعرض خدماته ليصبح جاسوسًا ضد إنجلترا.

فأرسله الألمان إلى دورة سريعة لتعلم أسس التجسس وكيفية إخراج قطار عن مساره وأسلوب تدمير سفينة عن طريق وضع كتل من الفحم المخلوط بالديناميت في مستودع الفحم الخاص بها، والذي كان يُستعمل كوقود.

وكان ذلك تحولًا سارًا بالنسبة لتشابمان، بعيدًا عن الحياة البائسة خلف قضبان السجن، وكان (تشابمان) يتقاضى من الألمان راتبًا كبيرًا، وتم إدراجه على قائمة القوات الخاصة لزعيم ألمانيا (أدولف هتلر).

بعد فترة قصيرة، صدرت له تعليمات بالهبوط بمظلة في إنجلترا، وكان من المقرر عند وصوله أن يبعث بتقارير حول الأسلحة وأجهزة الرادار ووحدات الأسطول البحري، بالإضافة إلى تنفيذ مهام تخريبية. وفعلًا هبط (تشابمان) بسلام في منطقة (إيست أنجليا) بإنجلترا.

وهناك اتجه إلى أقرب قسم للشرطة وأفرغ حقيبته أمام مجموعة من رجال الشرطة المندهشين، وتم إرساله إلى مقر المخابرات، حيث أجروا تحقيقًا دقيقًا معه، بعد أن اعترف بأنه جاسوس ألماني، ولكنه يريد أن يتجسس لحساب إنجلترا، في مقابل العفو عن كل جرائمه السابقة.

ولحسن حظه فقد اقتنع رجال المخابرات البريطانية بالمعلومات التي كشف عنها، وأعطوه اسمًا حركيًا (الخط المتعرج)، ووافقوا أن يعمل كعميل مزدوج. استمرت رحلاته إلى بلاد أوربية مثل البرتغال، لمقابلة أفراد من المخابرات الألمانية.

وكان يقدم لهم في كل مرة معلومات مضللة عن القوات المسلحة البريطانية، ولكنه في نفس الوقت كان يزود المخابرات البريطانية بالمعلومات الصحيحة التي تمكن من الحصول عليها عن التحركات والخطط الألمانية في أوربا.

وبعد الحرب العالمية الثانية، أصبح (تشابمان) يمثل إزعاجًا للسلطات البريطانية، فساعدوه لامتلاك مشروع للاستيراد والتصدير.



The spy who offered to blow up Hitler on a suicide mission

هكذا نشرت صحيفة «تايمز» البريطانية صورة تشابمان تحت عنوان عريض يقرأ: «الجاسوس الذي عرض تفجير مقر هتلر في عملية انتحارية»



تشابمان في صورة تجمعه بزوجته بيتي

16

كريستين كيلر..

الراقصة العارية!!



قب على حكم بريطانيا في عهد الملكة إليزابيث الثانية 12 رئيسًا للوزراء حتى العام 2008 بعضهم شغل الوزارة أكثر من مرة، ولكن يبقى هارولد ماكميلان هو الأتعس حظًّا فيمن شغلوا هذا المنصب، والسبب تورط وزير حربيته الأشهر جون بروفيومو في علاقة جنسية مع كريستين كيلر التي خانته، وخانت بلدها، حيث كانت في ذات الوقت على علاقة مع الملحق العسكري السوفييتي، وكانت تتجسس على بريطانيا لحساب السوفييت وتنقل لهم أدق وأخطر الأسرار!!

كان جون بروفيومو ذا منصب حساس وخطير وغير قابل لأن يكون شاغله ممن يسهل التأثير عليهم أو جذبهم في علاقات مشبوهة تعرض أمن بلدهم ودولتهم للخطر، فيتم تجنيد مواطنته كريستين كيلر من قبل أجهزة المخابرات السوفييتية لتقيم علاقة

غير شرعية معه، وتستدرجه للحصول على أسرار في غاية الخطورة كلفها بجمعها من تعمل لحسابهم.

ورغم مرور ما يقرب من نصف قرن على أكبر قصة خيانة بطلتها امرأة تشهدها أوربا في تاريخها الحديث، والتي تفجرت معها فضيحة سياسية مدوية، أطاحت بحكومة، وأجهزَت على مستقبل سياسيين لامعين، إلا أن البريطانيين -وحتى يومنا هذا- لا يستطيعون نسيان كريستين كيلر، أشهر خائنة، وأخطر جاسوسة استخدمت حسنها الطاغي، وجمالها الأخَّاذ، في نسج خيوط شبكتها العنكبوتية حول أشهر وزير عرفته بريطانيا -آنذاك- وتصويرها العديد من المشاهد الفاضحة مع كبار السياسيين في بريطانيا.

ورغم مرور كل هذا الوقت، إلا أنه لا تزال الكتب والدراسات التي تحمل المزيد من الأسرار تخرج كل يوم لكي تروي ما يرضي نهم الشعب البريطاني الذي لا يزال ينتظر ما يضيف إلى ما يعرفه من خفايا وخبايا هذه الفضيحة!!

لقد كان عام 1963 هو أسوأ عام في تاريخ بريطانيا.. هو كما يقول الإنجليز ففي هذا العام.. عاشت بريطانيا أشهر فضيحة في القرن العشرين.. فاحت منها رائحة الخيانة المغلفة بالجنس والجاسوسية، وكشفت عن الانحلال الخلقي داخل المجتمع البريطاني آنذاك.. وأصبح لقب كريستين كيلر هو «الراقصة العارية» التي أسقطت حكومة حزب المحافظين، وغيرت إلى الأبد نظرة التقديس التي كان يكنها البريطانيون لرجال السياسة بعد أن ثبت تعاونها مع المخابرات السوفييتية!!

وكان وزير الحربية البريطاني بروفيومو، خريج هارو وأكسفورد قد اضطر للاستقالة من حكومة هارولد ماكميلان عام 1963 بعد أن كذب على البرلمان البريطاني حول علاقته بالآنسة كيلر، وكانوا يصفونها آنذاك بالمرأة المغوية، والفاتنة عند الطلب ثم «التورتة» المحشوة بالعسل.

وقال بروفيومو لأعضاء البرلمان إن علاقته بها كانت محتشمة لم ترق لغير ذلك، وفى الحقيقة كان الوزير

قد التقى بعارضة الأزياء ذات التسعة عشر ربيعًا قبل ذلك بعامين، عندما رآها تسبح في حوض سباحة خاص باللورد أستر وبدأ معها علاقة حميمية، في الوقت ذاته الذي كانت تبادل فيه الحب الملحق البحري الروسي في قمة أيام الحرب الباردة.

في عام 1963 كان الدكتور ستيفن وارد طبيبًا حسن السمعة في مجال تقويم العظام، وذلك في الظاهر أمام الطبقة الأرستقراطية البريطانية العليا، وكان فنانًا موهوبًا وقد جلس إليه رجال مشهورون ليحظوا برسم من ريشته، ولكن ما لم يعرفه زبائنه في المجالين عنه صلته المريبة بالحسناوات وتخصصه في دعوة الكبار لحفلات ماجنة، وكانت نجمة حفلاته الصاخبة الآنسة كريستين كيلر، وكان من أصدقائه وزبائنه جون بروفيومو، وكان الدكتور وارد يعمل أيضًا في خدمة المخابرات البريطانية، حيث يقدم الحسناوات لرجال السلك الدبلوماسي الأجنبي ويأخذ صورهم في أوضاع مشينة تستغلها المخابرات في تجنيدهم لمصلحتها، ولم تعرف أن السحر سينقلب على الساحر.

في عام 1956 اعتنق الدكتور وارد الشيوعية مذهبًا وعقيدة، وفي عام 1961 عرف الدبلوماسي الروسي إيوجين إيفانوف بنجمته الراقصة كريستين كيلر، وكان إيفانوف ملحقًا بحريًا بسفارة روسيا لدى لندن في ظاهر الأمر، ولكنه كان مجندًا من قبل المخابرات الروسية.

وهكذا التقى وتصادق الرجلان د. وارد و(إيفانوف)، وكل منهما في خدمة المخابرات، وكان الروسي يصر على الدكتور وارد بأن يظهر حماسه للنظام الشيوعي الذي اعتنق مبادئه بإثبات ولائه من خلال التجسس لصالح الروس وتجنيد حسناواته لهذا الغرض، وكان بروفيومو سيئ الحظ قد وقع في حبائل كريستين كيلر فأوحى إليها (وارد) بمحاولة استدراج وزير الحرب البريطاني بروفيومو للبوح لها بسر يحاول الروس الحصول عليه، فقد كان السوفييت يرغبون في معرفة ما إذا كانت الولايات المتحدة الأمريكية ستزود ألمانيا الغربية بقنابل نووية.

وقد بدأت الخيانة من مكتبه في وسط لندن وفي أكثر أحيائها ثراءً، في عيادة العظام التي يمتلكها «د.ستيفن وارد»، وكانت شخصية هذا الدكتور شخصية حقيرة وقذرة فالبرغم من مكانته العلمية والاجتماعية العالية، إلا أن ذلك لم يمنعه من أن يقيم علاقة غريبة بين طبقتين من المجتمع، وأن يعيش بين هاتين الطبقتين بقناعين مختلفين تمامًا بعضهما عن بعض.

القناع الأول يرتديه أثناء عمله بعيادته ولقاءاته مع كبراء قومه. والقناع الثاني يرتديه في حفلاته الخاصة التي يقيمها مع طبقة شاذة من المجتمع تحوي المومسات والعاهرات وفتيات الليل، وكان هذا الدكتور يقوم بالجمع بين الطبقتين في حفلات خاصة في قصره أو في مزرعته لخدمة أهداف ومطامع ذاتية تعود عليه بالنفع والمادة.

ومن بين مرضى «د.ستيفن» كان السير «كولن كوت» رئيس تحرير صحيفة «الديلي تلجراف» الذي كان يُعالج من مرض «اللومباجو»، وفي أحد لقاءاته معه عرَّفه الأخير بالكابتن «يوجيه إيفانوف» الملحق

العسكري الروسي في بريطانيا، والذي كان ضمن وفد يزور الصحيفة للاطلاع على أحدث ما تم التوصل إليه في سير العمل الصحفي، وكان إيفانوف هذا يشترك مع د.ستيفن في أنه زير نساء، ويحب أن يقيم علاقات عديدة معهن، لذلك اتفق الاثنان على تحقيق اللذة المنشودة كلٌّ عن طريق الآخر.

أما الفتاة اللعوب التي أوقعت بالوزير فهي «كريستين كيلر» وكانت تعمل في ملهى ليلي في أحد شوارع لندن، ووظيفتها في هذا الملهى هي أن تسير بين (طاولات) الزبائن عارية، نظرًا لما تتمتع به من جمال باهر وجسم فاتن، وقد التقى بها د.ستيفن أثناء إحدى سهراته، فدعاها لشقته، وقدم لها المخدرات إضافة للجنس، بعدها تحولت الفتاة إلى مدمنة، وأصبح فراقها عنه شبه مستحيل، لذلك بدأت تستجيب لكل طلباته وأوامره مهما كان الثمن .

وفي إحدى المرات كان الدكتور في زيارة لواحد من أصدقائه الأثرياء في مقاطعة «كليفيدين» اسمه «لورد استور» وهو ثالث أغنى رجل في بريطانيا، وقد تعرف

عليه بعد أن قام بعلاجه من كسور خطيرة تعرض لها نتيجة حادث وقع له، وقد أهداه «اللورد استور» منزلًا ريفيًا جميلًا في هذه المقاطعة وسمح له باستخدامه هو وأصدقائه في أي وقت يشاء، وقد اصطحب معه «كريستينا» في هذه الزيارة، هي ومجموعة من الأصدقاء من بينهم الكابتن «إيفانوف» الملحق العسكري الروسي الذي تعرف عليه في صحيفة «الديلي تلجراف» بمكتب رئيس تحريرها، وسرعان ما قامت علاقة غرامية متبادلة بين إيفانوف وكريستينا وبعدها تعددت اللقاءات والحفلات الخاصة.

إلى هنا والسيد «جون بروفيومو» وزير الدفاع لم يكن التقى بتلك الفتاة ولا تعرف عليها، حتى جاء وقت كانت فيه كريستينا في زيارة «لكليفيدين» وقابلت «بروفيومو»، في منزل اللورد «استور» لكن كان لقاءً عاديًا لم يجذب أيٌّ من الطرفين الآخر إليه، وبعد عدة أسابيع من هذا اللقاء، عاد «بروفيومو» إلى زيارة اللورد «استور» في منزله الذي سكنته كريستينا لكن

لقاءه معها هذه المرة كان لقاءً مختلفًا تمامًا عن لقائه السابق،

فقد كانت هذه الفتاة تستحم عارية تمامًا في حمام السباحة الملحق بالمنزل وحينما شعرت بأقدام تقترب من الحمام سارعت في الخروج من المسبح لارتداء ملابسها، لكن كانت هناك يد سبقتها إليها وقذفت بهذه الملابس بعيدًا حتى يستمتع «بروفيومو» أكثر بمنظرها وبجمال جسمها .

ولم يستطع الوزير أن يتحمل جمالها الصارخ، وأرَّقت ليله وبات سهران يفكر فيها، وصمم على أن يلتقي بها وكان له ما أراد بعد أن تكفل بذلك صديقه اللورد «استور» وأصبح الوزير والفتاة عاشقين، يجتمعان ويذهبان معًا في أماكن خاصة لقضاء بعض الوقت والاستمتاع، بل إنه كان يأخذ سيارته الحكومية مصطحبها معه ليفرجها على مبنى البرلمان ومنزل رئيس الوزراء في داونتج ستريت، وتعددت لقاءاتهما في شقة «وارد» وقد استطاعت هذه الفتاة أن تجمع

على فراشها الملحق العسكري الروسي ووزير الدفاع البريطاني.

لكن الأمور لم تظل على ما يرام فقد شعرت الفرقة إم - 15 (M - 15) في شعبة مكافحة الجاسوسية في لندن بالقلق إزاء تشعب علاقة د. ستيفن بالعديد من الرجال ذوي المناصب الحساسة بالدولة، لكن ملفه كان يغلق دائما كلما فتحته هذه الفرقة لعدم وجود أدلة لإدانته.

وبعد مناقشات كثيرة قرروا الاستفادة في الشعبة من «ستيفن» هذا في أن يقوم بتوفير الجو الملائم والترفيهي للدبلوماسيين الأجانب الذين يزورون بريطانيا، بعدها طلبوا منه معلومات كافية عن «إيفانوف» الذي كان على علاقة بـ «كريستينا» لأنهم اكتشفوا أنه جاسوس سوفييتي خطير، وعلى الفور تدخلت هذه الفرقة لدى وزير شؤون مجلس الوزراء السير «ثورمان يورك» كي يبعد وزير الدفاع عن هذه الفتاة اللعوب بأسرع وقت.

أما «إيفانوف» فقد شعر بحاسته الأمنية أنه في خطر، وأنه قد يقبض عليه في أي وقت فأبرق لقيادته في موسكو فأرسلوا إليه تعليماتهم بأن يترك لندن على الفور، لكنه قبل سفره حرص على أن يأخذ معه كل الأشرطة التي سجلها د. ستيفن لبعض الدبلوماسيين الأجانب في لقاءاتهم الخاصة مع بعض الفتيات، لاستعمالها فيما بعد لأغراض ابتزازية.

نجح إيفانوف في الفرار من لندن مع هذه الأشرطة، بعدها أقامت كريستينا العديد من العلاقات الشاذة بمساعدة د.ستيفن إلى أن تعرضت لمحاولة اغتيال من واحد من الذين كانت تمارس معهم الرذيلة، وأحست برعب شديد بعدها ولم تفلح معها كل المحاولات التي بذلت لتهدئتها، حتى إنها أصبحت تهذي بعلاقاتها مع الكبار في (الكباريهات) والملاهي كي تطمئن نفسها أن لا أحد يستطيع أن يقتلها، إلى أن ساق القدر محررين كانا يعملان في صحيفة «بيكتوريال» لأحد هذه الملاهي واستمعا إلى هذيانها وذكرها لاسم وزير الدفاع فقاما بنشر كل ما سمعاه!!

بعد ذلك، حدثت ضجة في الشارع الإنجليزي ومجلس العموم، ليقف وزير الدفاع مدافعًا عن نفسه نافيًا كل كلمة كتبها هذان المحرران، طالبًا بأن تدفع الجريدة التعويض المناسب له وتكذب كل ما نشرته، لكن الأدلة كانت كثيرة ضده، خصوصًا تلك التي قدمتها الفرقة (15 - M) وحينما زادت الضغوط عليه، اعترف لزوجته بكل شيء فنصحته بأن يذهب لرئيس الوزراء لمقابلته ومصارحته بكل شيء.

لكن رئيس الوزراء «هارولد ماكميلان» في ذاك الوقت رفض مقابلته فلجأ إلى مدير مكتبه كي يكتب أمامه اعترافًا كاملًا بكذبه أمام مجلس العموم مرفقًا بهذا الاعتراف استقالته، وكما تقتضي الأعراف كان عليه الذهاب إلى مقر «باكنجهام» لتقديم إخلاء طرفه إلى الملكة، ولكنه لم يذهب وأرسل شخصًا ينوب عنه لمقابلة الملكة، بعدها تم القبض على د. ستيفن وارد وأودع السجن وأغلق مكتبه الفخم في وسط لندن.

وأثناء التحقيق معه كشف عن أنه كان واحدًا من شبكة جاسوسية هو وكريستينا، كوَّنها الملحق

العسكري السوفييتي السابق في لندن، ووجد بعد فترة منتحرًا داخل السجن.

أما الفتاة فقد حكم عليها بالبراءة لعدم بلوغها السن القانونية وتقديم المعلومات المطلوبة منها بحسن نية ودون دراية بما كان يحاك حولها، ووقف زير الدفاع أمام «لورد وينج» أشهر قضاة لندن والذي كان يتولى التحقيق في هذه القضية.

وبعد أن هدأت العاصفة قليلًا حول «بروفيومو» قرر أن يعتزل الحياة السياسية ككل وفضل أن يعيش في زاوية النسيان في غرب لندن، متطوعًا في منظمة خيرية تساعد المتخلفين عقليًا والمعاقين وذوي العاهات، ليسدل بذلك الستار على واحد من أشهر الشخصيات العسكرية والإنجليزية فترة الستينيات.

كانت المخابرات البريطانية تراقب دكتور وارد عن كثب ولكن عملاء (إم 15) لم يكونوا على علم بأن أحد وزرائهم على صلة بإحدى فتياته الحسناوات، ولكنهم كانوا يعرفون بأن بروفيومو على صلة بالدكتور وارد

ولهذا حذروه من صحبة الطبيب كونه على صلة بالملحق العسكري البحري الروسي، وقطع الوزير صلته بالجاسوسة كريستين كيلر، ولكن بعد أن أفضى إليها بأسراره الخطيرة في لحظات غيابه عن الوعي، وكان من الممكن أن يظل الأمر سرًّا لولا أن كريستين كانت على صلة أيضًا بتاجر مخدرات جامايكي غيور، إذ ما كادت تغيب عنه يومًا حتى هاجم منزل الدكتور وارد ظانًّا أنه قد حجبها عنه، وتم إلقاء القبض عليه، وأتوا بالحسناء شاهدة.

وبدأت كيلر وهي في مقعد الشهود بالمحكمة تفضفض بما سئلت عنه وما لم تسأل عنه. وقالت إنها على علاقة بأربعة رجال: تاجر المخدرات، والدكتور وارد، والملحق العسكري الروسي إيفانوف ثم فجرت قنبلة حين أضافت لهذه الأسماء اسم وزير الحربية البريطانية بروفيومو في عز أيام (الحرب الباردة).

وقالت نكاية في الوزير الذي أعلن قطع صلته بها قبل ذلك بأيام إنها لا تعرف كيف أن وزيرًا في الحكومة يتخلى عن مسؤولياته ويعاشرها رغم أنه متزوج، ولم

تكتف بذلك بل قالت إن الدكتور وارد قد أجبرها على الحصول على معلومات سرية من الوزير، وقد فعلت، وحملت شرطة إسكتلانديارد على د. وارد لتخفيف الضغط الصحفي عن الوزير، وأعلن الوزير بدوره أنه لا علاقة له بهذا الوضع المشين، ولكن أحدًا لم يصدقه من زملائه في مجلس العموم البريطاني فقد فاحت الرائحة.

وفي الرابع من يونيو لعام 1963 قدم جون بروفيومو مضطرًّا استقالته من منصبه كوزير للحربية البريطانية، واعتقدت كريستين كيلر أن اعترافها بالتجسس لصالح الروسي سيزيد من شهرتها وأنها وقد لعبت دور الجاسوسة في الواقع سيتاح لها تمثيل هذا الدور في أفلام جيمس بوند (700) ولكنها حظيت بدور ثانوي ثم طواها النسيان!!

وفي الوقت الذي كرس فيه بروفيومو حياته عقب تركه العمل السياسي للأعمال الخيرية، أظهر بعض الساسة البريطانيين تعاطفًا معه، وأنه كان ضحية

سقوطه أسيرًا في براثن فتاة استخدمت مكرها ودهاءها والأخطر جمالها وسحرها للإيقاع به.

وقد منحت الملكة إليزابيث الثانية ملكة بريطانيا بروفيومو عام 1975 لقبًا ملكيًّا تقديرًا لخدماته الخيرية للمحرومين والمعوزين في القطاع الشرقي من العاصمة البريطانية.

وفي عام 2003 بدأت حملة من كل الأحزاب البريطانية تطالب بمنح العجوز بروفيومو عضوية المجلس الاستشاري (مجلس الملكة الخاص)، وقد قام بتكريمه بعد ذلك رئيس الوزراء - آنذاك - جون ميجور لأعماله الخيرية، وكان ضمن 650 ضيفًا في الاحتفال ببلوغ رئيس الوزراء السابقة البارونة مارجريت تاتشر - آنذاك - الثمانين من عمرها وكان الرجل في التسعين.

صور الوزير في الحفل أعادت للأذهان من جديد اسمي كريستين كيلر وبروفيومو، ثم أضرم النار من جديد في القصة القديمة مسلسل وثائقي لقناة التلفزيون البريطاني (BBC-2) يحكي قصة الجاسوسة كيلر

والوزير، وقد حدث ما حدث للوزير ولكن ماذا حدث للآنسة كيلر؟

تزوجت كيلر مرتين وأنجبت ابنين، وعملت في مصبغة لغسل وكي الملابس، وظهرت في مجلة «للرجال فقط»، واستخدمتها إحدى المدارس ولكن مديرها سرعان ما طردها حين علم بقصتها.

وفي عام 2001، أصدرت كريستين كيلر كتابًا بعنوان «أخيرًا الحقيقة..قصتي».. وهو اعترافات لصاحبة أشهر فضيحة في القرن العشرين، التي أنهت مستقبل جون بروفيومو وزير الدفاع، وأسقطت حكومة المحافظين التي رأسها هارولد ماكميلان.

وفي الكتاب اعترفت لأول مرة وبنفسها عما حدث في بريطانيا في أوائل الستينيات وعرف باسم فضيحة العصر.

وكشفت كيلر أن ستيفن وارد الرجل الذي عرفها علي بروفيومو وعلى الجاسوس الروسي كان جاسوسًا

للروس، وأنها شهدت لقاءات بينه وبين سير روجرز هوليس مدير (الإم آي فايف) «فرع من جهاز المخابرات البريطانية». واتهمت هوليس أيضًا بالتجسس لصالح الروس.. واعترفت أنها سلمت نيابة عنهما وثائق للسفارة السوفييتية.

وتنفي كيلر في كتابها أنها كانت عاهرة وتؤكد أن التقرير الرسمي عن الفضيحة عمد إلى تشويه صورتها في محاولة لتقليص حجم فضيحة التجسس، وتحويلها لفضيحة جنسية وقصة حب بين عاهرة ووزير وجاسوس.

وتتعجب كيلر من السرعة التي غفر بها البريطانيون لبروفيومو الذي كذب على مجلس العموم. ثم عاد واعترف بالحقيقة واستقال. لقد وصفت مرجريت تاتشر بروفيومو بأنه بطل قومي. أما هي فما زالت العاهرة التي ينبذها الجميع حتى أمها وابنها يلفظانها.. وتعيش وحيدة مع قط من الشارع يرفض أن يلمسه أحد.. تحاصرها الديون كما تقول لمراسلة «الإندبندنت».

وتقول كيلر إن طفولتها كانت صعبة.. في السابعة عشرة من عمرها.. فرت إلى لندن وعملت راقصة في ملهى مستغلة جمالها الساحر وهناك التقت بستيفين وارد الذي قدمها للمجتمع الراقي وعرفها على بروفيومو الذي سقط في حبالها منذ اللحظة الأولى حتى إنه لم يستطع منع نفسه من مغازلتها رغم وجود زوجته معه.

كما عرفها على الجاسوس الروسي إيفانوف الذي كان يجمع معلومات عن سياسة بريطانيا العسكرية وترسانتها والصواريخ الجديدة والطائرات والغواصات والخطط الإستراتيجية لحلف الأطلنطي والعلاقات الأمريكية البريطانية الخاصة..

ومن أخطر ما جاء في الكتاب هو ما كشفت عنه بالنسبة لجريمة اغتيال الرئيس الأمريكي -آنذاك- جون كنيدي: «بدلا من الحقائق التي ذكرتها في التحقيق قام اللورد دينجج قاضي التحقيقات بنشر الأكاذيب، لقد أخبرته بكل شيء، ولكنه تجاهل كل ما قلته تماما وتحاشى الحقائق التي تمس مجلس الوزراء البريطاني

والبيت الأبيض الأمريكي، والأكثر من هذا هو أنني أطلعته علي التهديدات التي كانت تقول إن جون كنيدي سوف يغتال في مدينة دالاس بعد عدة أشهر قليلة»!!

وكانت فضيحة كريستين كيلر انفجرت قبل اغتيال كينيدي بعدة أشهر، أي أن أجهزة المخابرات البريطانية والأمريكية والسوفييتية كانت على علم بخطة الاغتيال تماما!

وهذا يطرح سؤالا آخر: من هو مصدر معلومات كريستين كيلر؟!..يعني من كان الذي يبوح بالأسرار ومن كان يجمعها؟!

وفي كتابه «الجاسوس العاري» كشف إيفانوف دوره في فضيحة التجسس التي أسقطت حكومة ماكميلان.. وأوقعت أضرارًا بالغة بالأمن القومي البريطاني.. واعترف بأن لقاءه في حفل للسفارة الروسية بكولين كوت رئيس تحرير ديلي تلجراف كان لحظة سعده فقد عرفه بستيفن وارد.

رأي إيفانوف كيلر في صحبة وارد في 1961 وكانت فتاة ريفية رائعة الجمال وبلا أخلاق تعيش هي وماندي رايف ديفيز البطلة الثانية للفضيحة في منزل وارد، وقد لاحظ افتتان وزير الحرب البريطاني بكيلر. طلب منه وارد توصيلها للندن بعد انتهاء السهرة في ضيعة لورد استور. وبدأت علاقته بها.

أصبحت كريستين كيلر عشيقة لبروفيومو والجاسوس الروسي إيفانوف، وكان الجاسوس يبلغ رؤساءه في جهاز مخابرات الجيش الروسي بالحوارات التي تجري في ضيعة لورد استور مع أعضاء البرلمان والوزراء والسياسيين. كما قام بتصوير بريد استور وعندما لم يكن يجد فرصة للتصوير كان يسرق الرسائل والوثائق وكانت كثيرة لدرجة أن استور لم يكن يلحظ غيابها.

إحدى هذه الرسائل كانت من صديق أمريكي وكانت عن توقف محتمل لبرنامج صواريخ سكاي بولت، وبفضل هذه الوثائق عرفت موسكو نوايا واشنطن بالتراجع عن برنامج الصواريخ قبل عام من وقوعه.

وكانت نقطة تحول في الخطط البريطانية الأمريكية وأعطت الضوء الأخضر لبرنامج تزويد الغواصات البريطانية بصواريخ بولاريس الأمريكية ذات الرؤوس النووية المنتجة في بريطانيا.. استغلت روسيا المعلومات وبثت الفرقة بين الدول النووية في حلف الأطلنطي.. وأصيبت فرنسا بصدمة بسبب تصرف أمريكا من جانب واحد وفقدت ثقتها في بريطانيا كحليف أوربي.

لقد حرصت موسكو على تتبع تطور العلاقة بين بروفيومو وكيلر.. وخططت لابتزاز بروفيومو بسبب هذه العلاقة للحصول على معلومات سياسية وعسكرية سرية إلا أن خطتها أصيبت بالإجهاض بعد تسرب علاقة كيلر وبروفيومو للصحافة.

ورغم أن الذين يرون كيلر الآن لا يربطون بين السيدة المحبة للقطط، والجاسوسة ولكنها تقول: «طوال حياتي لم أستطع أن أهرب من اسمي»، وهي ترفض الإدلاء بأحاديث صحفية عن الماضي أما المستقبل

فيلخصه كتابها الجديد: «لقد بقيت على قيد الحياة ولا أرغب في أكثر من هذا»، كما تقول.

أما آخر ما كتب عنها في أنها كانت تسعى للشهرة واعتبرت أن معرفة الآخرين بها ستروج لمهنتها، الخارجة عن الزواج الشرعي، وقادتها رغبتها في الشهرة إلى الخيانة.



كريستين كيلر خانت بروفيومو الذي يبدو بالصورة وأفشت أسرار وطنه لحساب أعدائه، وأسقطت حكومته

17

جون جارسيا..

الأب الروحي للجواسيس!



يعتبر هذا الجاسوس الأب الروحي لكل الجواسيس لقدرته الرهيبة على أن يعمل جاسوسًا مزدوجًا ويكرم من كلتا الدولتين العدوتين اللدودتين، اللتين عمل لحسابهما معا.وقد وُلِدَ جارسيا في إسبانيا وكان فاشلا

تقريبًا في معظم مجالات الحياة، لكنه كان يصر أن لديه موهبة.

وهو الجاسوس الوحيد المزدوج في العالم الذي حصل على مكافأة عن خدماته التجسسية من كل من الألمان النازيين وأعدائهم البريطانيين!وفي الحرب العالمية الثانية كانت بلاده على الحياد لكنه تقدم للمخابرات البريطانية والأمريكية ولم يثقوا في قدرته على فعل أي شيء، فلجأ للألمان وبدأ التجسس لصالحهم لكن بأبسط الأشياء وبمعلومات موجودة في الصحف وعلى البطاقات البريدية.

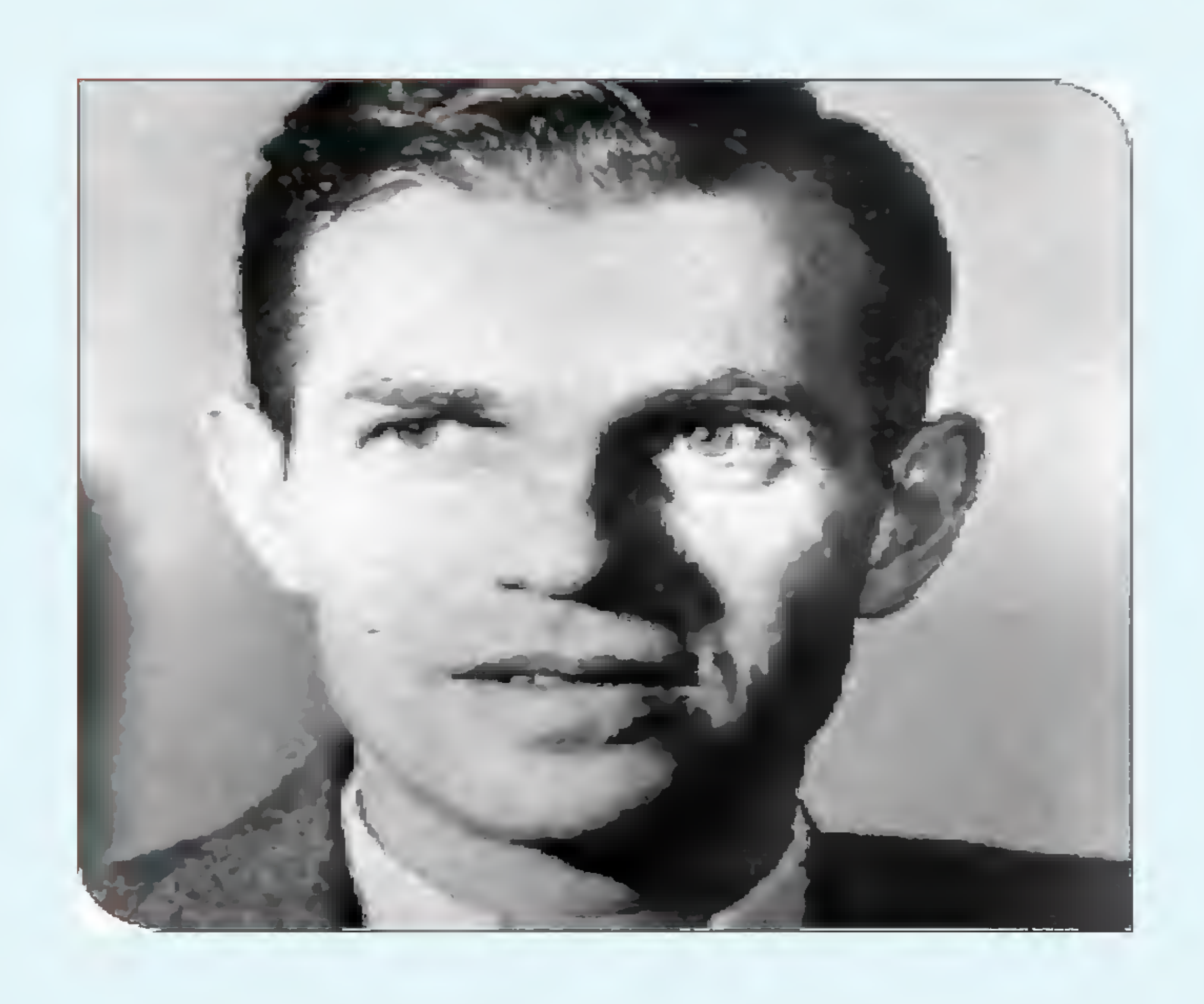
كما خدع الألمان وأوهمهم أنه أسس شبكة تجسس لصالحهم وبدأ يأخذ منهم الأموال لدعم هذه الشبكة الوهمية، وأصبح بطلا لدى الزعيم النازي هتلر «الفوهلر» حتى وصلت أخباره للمخابرات الحربية البريطانية، وجن جنونهم عندما عرفوا بأمر وجود شبكة تجسس ألمانية كاملة.

فما كان من «جارسيا» إلا أن تقدم لهم عارضًا تعاونه وقبلوا به، ولم ينكشف أمره رغم كل هذا الادعاء، وتلاعب بأعظم العقول المخابراتية، وتم منحه الصليب الحديدي في ألمانيا، كما منح وسام الإمبراطورية البريطانية ومات في فنزويلا بعد أن عاش 40 سنة أخرى بعد الحرب.

18

جنتر جويلوم..

جاسوس الفضائح!!



وصل جويلوم وزوجته كريستيل إلى ألمانيا الغربية عام 1956 طالبين اللجوء السياسي من برلين الشرقية. واستقرا في فرانكفورت وأصبحا عضوين في الحزب الاجتماعي الديمقراطي، وقد تأثر

الحزبيون في المنطقة بنشاطهما فتم ضمهما إلى طاقم الحزب حيث أدت قدرتهما على التنظيم إلى ترقيتهما في سلم المسؤولية وأكسبتهما أصدقاء متنفذين. واستمرا بصبر حتى عام 1969 حيث انتقلا إلى العاصمة الألمانية بون ليعملا مساعدين لممثلي الولاية، ثم انضما إلى طاقم «الهر براندت» في المستشارية الاتحادية.

وقد تأثر براندت بجنتر كموظف كفؤ وكصديق شخصي، وسرعان ما أصبح مساعده الشخصي ومحل ثقته.

وفي صيف عام 1973 كان جويلوم الموظف الوحيد في المستشارية الذي رافقه الزعيم الألماني الغربي وعائلته لقضاء عطلة الصيف على شاطئ بحيرة في النرويج.

واستطاع هناك أن يراقب كل البرقيات الهامة التي كانت ترد من بون، وإحداها كانت رسالة من الرئيس

الأمريكي ريتشارد نيكسون يصف فيها المحادثات التي جرت بينة وبين وزير الخارجية الفرنسي.

ويذكر الخلافات العميقة داخل حلف الأطلسي والتي تشكل خطورة إذا اطلع عليها العدو. وهذا ما فعله جويلوم بالضبط إذ أعطى المعلومات لنرويجية وهي تعمل سكرتيرة في حكومة الولاية وسلمتها بدورها لمراسل الألمان الشرقيين.

كان جويلوم يعمل مصورًا في ألمانيا الشرقية حتى وقع عليه الاختيار ليكون جاسوسًا. لذلك فقد كان خبيرًا في نسخ كل وثيقة سرية تقع بين يديه.

وكانت زوجته تسلمها مرة في الشهر ولمدة خمس عشرة سنة إلى شبكة من عملاء الاتصال. وكانت تلفها وتغلفها لتبدو كهدية.

وفي أواخر 1973 كان ضباط مكافحة الجاسوسية من جهاز الخدمة السرية الألماني الغربي في أثر الجاسوسين، وقد احتاجوا لتسعة أشهر حتى أوقعوا

بهما وتم اعتقالهما في 24 إبريل عام 1974 في «باد جودسبرج».

وأغرقت الفضيحة ألمانيا الغربية وأذهلت حلف الأطلسي. وحامت الشكوك حول سياسة براندت في الحوار مع موسكو، واضطر المستشار الذي تحطم رصيده السياسي بسبب الرجل الذي منحه ثقته للاستقالة.

ودامت المحاكمة ستة أشهر وتمت في حجرة ذات جدران عازلة للصوت تحت المحكمة العليا في ولاية دوسلدورف. والكثير من الإفادات كانت سرية وخاصة عندما تقدم الهير براندت للشهادة.

وصدر الحكم في شهر يناير 1975 على جنتر المذنب بالعمالة وتسريب أسرار رسمية بالسجن 13 عامًا، وكان قد رفض أن يدلي بإفادة في المحكمة وكان يمضغ السكاكر بينما كان القضاة الخمسة يحكمون عليه.

أما زوجته كريستيل فقد تثاءبت عندما صدر الحكم بسجنها ثماني سنوات للتجسس والمساعدة على تسريب الأسرار الرسمية.

وكان القضاة قد أنقصوا مدة السجن سنتين لكل منهما عن المدة التي طالب بها المدعي العام بسبب أن عمالة الزوجين خف ضررها بسبب عمل رجال مكافحة الجاسوسية الألمان الغربيين ولو أنه كان ناقصًا ومتأخرًا.

وقد سمعت اقتراحات خارج المحكمة عن إمكانية اتهام الهير براندت بالإهمال ولكن يكفيه تدمير مستقبله المهني كعقوبة!!

ولم يأت الألمان الشرقيون على ذكر الزوجين خلال فترة 20 شهرًا من اعتقالهما، ثم طلبوا زيارة السجينين وبدأت مباحثات دقيقة لإطلاق سراحهما.

وتم تبادل كريستيل أولا بتسعة ألمان غربيين معتقلين في برلين الشرقية في مارس 1981، ولحق بها جنتر

بعد خمسة أشهر ولكن ظروف إطلاق سراحه وشروط المبادلة توضح مدي أهميته عند السوفييت.

وقد قام بالتفاوض وولنجانج فوجيل وهو الذي قايض على جيرالد بروك بجواسيس الروس بيتر وهيلن كروجر، كما قايض بالجاسوس الروسي الهام رودولف ايل على طيار طائرة التجسس يو، جاري بورز، وبعد أشهر المباحثات تم الاتفاق على مبادلة غير عادية.

كان جويلوم حينئذ في الرابعة والخمسين يعاني من أمراض الكلية وقد نقل إلى الحدود في (كارافان) مغلق النوافذ. كذلك أطلق سراح أربعة من العملاء الهامين للروس هم «جورج مايد» العميل لألمانيا الشرقية الذي اعتقله الدانماركيون عام 1979، و«هينريخ بيرنهارد زورن» وهو عميل لألمانيا الشرقية اعتقل في فرنسا (1980) وطلبت المخابرات الروسية، الرائد أليكس كوسلوف السجين في جنوب إفريقيا بعد أن هرب من ألمانيا الغربية، ولكن الأفارقة الجنوبيين رفضوا الاشتراك في المبادلة.

وبالمقابل حصلت ألمانيا الغربية على 35 من مواطنيها احتجزوا في ألمانيا الشرقية بتهمة التجسس أو مساعدة آخرين علي الهرب إلى الغرب، كذلك سمح لـ 3000 ألماني شرقي سبق لأقربائهم أن هربوا إلى الغرب سمح لهم أن ينضموا إليهم، واضطرت حكومة بون إلى دفع مبلغ يوازي 25 جنيهًا إسترلينيًّا ثمنًا لحريتهم.

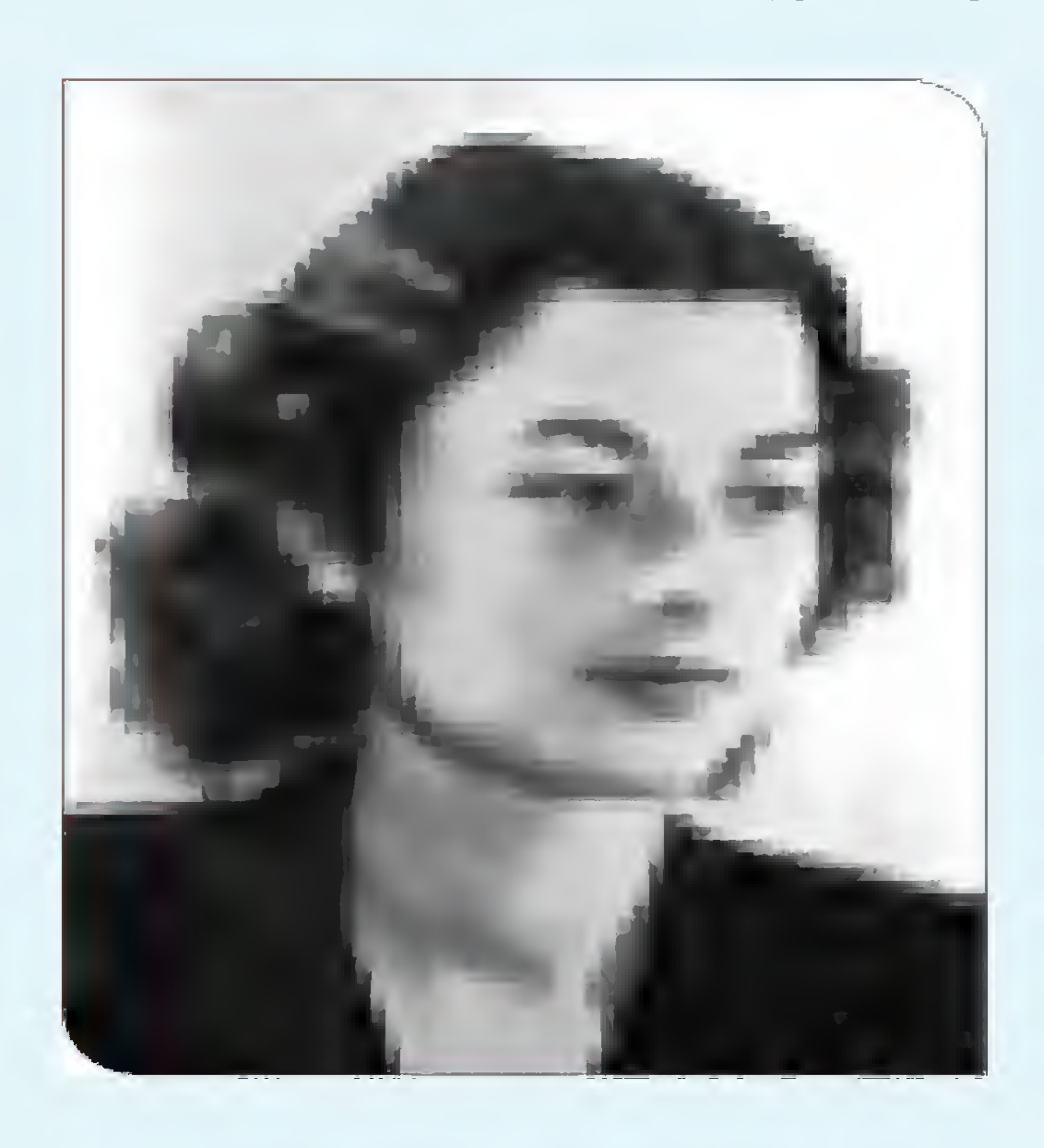
وبعودته إلى الوطن تقاضى جويلوم عن تقاعده في ألمانيا الغربية ما يعادل 125 جنيهًا استرلينيًّا أسبوعيًا والذي استحقه بعد أن دفع حصته لصندوق التقاعد 20 عامًا، ولكنه عوض عن ذلك عندما قبض وزوجته ما يوازي 40000 جنيه إسترليني من رؤسائه الممتنين.

ولم يكن ويلي براندت هو السياسي أو الدبلوماسي الوحيد في الغرب الذي حطمته الخيانة والفعاليات التجسسية للعملاء السوفييت!!

19

فيرجينيا هال..

الجاسوسة العرجاء



ل الحرب العالمية الثانية ذهبت امرأة شابة من بالتيمور وتدعى فيرجينيا هال إلى العمل مع الفرنسيين عميلة مخابرات، وكانت ناجحة تمامًا لدرجة أن النازيين بدأوا في مطاردتها.

وفي شتاء العام 1941 كان النازيون على وشك اعتقالها ولكنها هربت جريًا على الأقدام عبر جبل البيرينييس في إسبانيا. لم يكن ذلك أمرًا سهلًا إذ فقدت فيرجينيا هال إحدى رجليها في حادث مطاردة في وقت سابق وكانت تستخدم قدمًا خشبية في ذلك الوقت.

ولم تقنع بالراحة فتدربت للعمل على جهاز الراديو ثم انتقلت إلى العمل في مكتب الخدمات الإستراتيجية الأمريكي. وفي نوفمبر 1943 تخفت في زي خادمة مسنة تبيع الحليب وعادت إلى فرنسا وواصلت أعمالها التجسسية.

وقد تمت مطاردة فيرجينيا من قبل الشرطة السرية النازية إذ وزعوا صورة لها وكتبوا حولها التحذير

الآتي: «المرأة العرجاء هي واحدة من أهم عملاء دول التحالف في فرنسا ويجب أن نجدها ونحطمها».

ولكن تنكرها المتقن خدع الألمان. وقد أجهدت نفسها في تعلم السير من دون عرج. قامت فيرجينيا بجمع وإرسال معلومات مخابراتية لا تقدر بثمن، كما كانت تقوم بتنسيق عمليات القيام بإلقاء أوراق لدعم الحملات العسكرية.

كما كانت تدرب وتقود مجموعات المقاومة «الماكويس» للقيام بأعمال تخريبية وحرب عصابات.

بعد الحرب منحت فيرجينيا هال وسام أمريكا للخدمات البارزة في مراسم بسيطة، وهي المرأة الوحيدة التي تسلمت هذا الوسام.

كما منحت عضوية في الإمبراطورية البريطانية لجهودها الشجاعة، وقد استمرت فيرجينيا هال في العمل في مكتب الخدمات الإستراتيجية، ثم في وكالة المخابرات المركزية حتى تقاعدها في العام 1966.



فرجينيا تتقلد وسام أمريكا للخدمات البارزة

20

أرثر أوينز..

الرجل الثلج



اسمه الحركي «الرجل الثلج» وهو من منطقة «ويلز». كان مهندسًا بحريًا بريطانيًا مسؤولًا عن بطاريات السفن البريطانية.

وبعد اندلاع الحرب استحوذت ألمانيا على خدماته بعد تأكيده معرفة كل شيء عن البحرية البريطانية، وقام بجولة في ميونخ وانضم لمكتب «الفوهلر» رسميًا وقد لبوا له جميع طلباته خاصة المال والنساء وهي نقطة ضعف «آرثر».

وعند عودته إلى بريطانيا كانت فكرة مجنونة تدور في رأسه وهي أن يصبح عميلا مزدوجًا، واتصل بالفعل بالمكتب الخامس وقبلوه وجعلوا منه أول عميل مزدوج في الحرب العالمية الثانية، وقد قام بمهام جليلة لقوات التحالف منها قيامه بالكشف عن شبكة تجسس ألمانية بها ما لا يقل عن 120 عضوًا مما ساعدهم على تسريب معلومات خاطئة للألمان.

وفي عام 1941 دعا الألمان اثنين من العملاء المزدوجين هم «آرثر» و«تشارلز ديكيتس» حيث تم القبض على «ديكيتس» وإعدامه في حين لم يحدث شيء لـ«آرثر» مما أكد للبريطانيين أنه لم يكن وفيًا لبريطانيا وكان يعمل لمصلحته فحددوا إقامته في أحد المستشفيات حتى انتهاء الحرب، لكنه لم يسكت

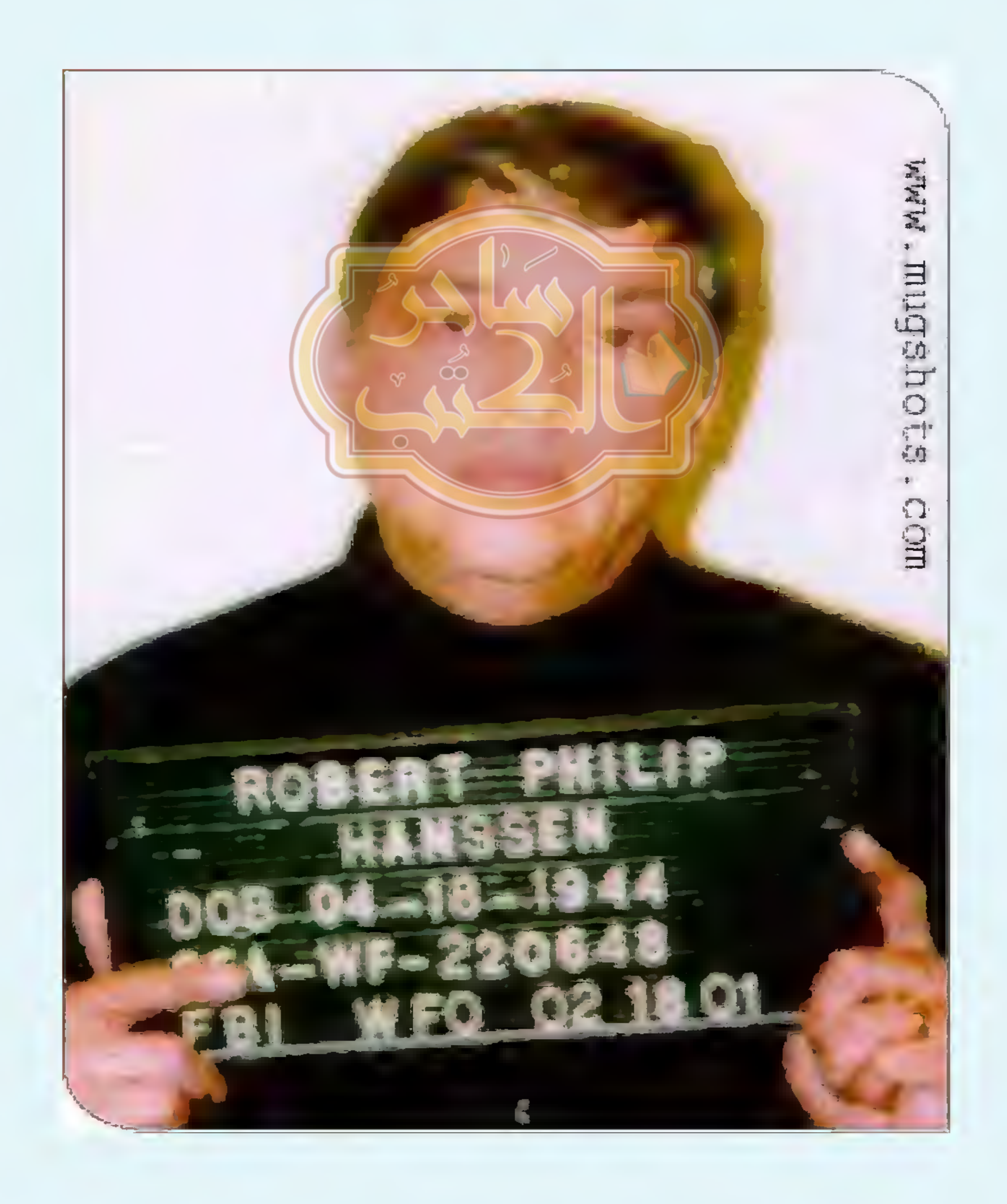
وطالبهم بدفع تعويض مقابل إلقاء القبض عليه بشكل غير شرعي وإلا سينشر مذكراته فاستجابوا له ليعيش بقية حياته في هدوء وتصير ابنته الممثلة «باتريشيا أوينز» نجمة فيلم «النحلة» في عام 1958.



21

روبرت هانسن..

يتقاضى راتبه بالألماس!!



يمثل اسم روبرت هانسن اليوم أكثر من خائن، بعد أن أصبح كل يوم يكشف الجديد من معالم خيانته، ناهيك عن كونه يمثل أكبر هزيمة نكراء تتعرض لها في تاريخها أجهزة الاستخبارات الأمريكية بوجه عام، ومكتب التحقيقات الفيدرالي «إف. بي. آي»، لا سيما أنه قام -على مدى 15 سنة كاملة من فترة عمله بالمكتب، والتي استمرت أكثر من ربع قرن- بتمرير الكثير من المعلومات البالغة الخطورة والسرية، من بينها عدد لا يحصى من الأسرار الدفاعية، إلى جهاز الاستخبارات السوفييتي الذي كان معروفًا باسم «كيه. جي. بي»، ثم جهاز الاستخبارات الروسي المعروف باسم «إس. في. آر» بعد سقوط الاتحاد السوفييتي.

في صبيحة يوم الثلاثاء 20 فبراير عام 2001، فوجئ الأمريكيون بإعلان مكتب التحقيقات الفيدرالي الأمريكي «إف بي آي» عن اعتقال ضابط كبير يعمل بالمكتب منذ ما يزيد على ربع قرن، بالإضافة لعمله كمستشار أمني لوزارة الخارجية الأمريكية، بعد اكتشاف أنه جاسوس يعمل لحساب روسيا على مدى

15 سنة، تلقى خلالها ملايين الدولارات، ثمنًا لخيانته، وأن عملية اعتقاله تمت في منزله خارج واشنطن، بعد أن تم رصده وهو يلقي لفافة بها معلومات سرية في متنزه شمالي ولاية فرجينيا، وأنه أحيل إلى القضاء بتهمة التجسس.

وما إن أذيع الخبر، حتى انقلبت الدنيا في أمريكا رأسًا على عقب. وقالت وسائل الإعلام الأمريكية، وهي تنقل النبأ، إن هانسن في أواخر الخمسينيات من عمره، وهو أب لستة أطفال، لكنه يعيش وحيدًا بعد أن هجرته زوجته بوني.

وفي قصة أغرب من الخيال تصلح لعمل فيلم سينمائي، بدأت أسرار الجاسوس الكبير -من حيث الصيت والسمعة والتاريخ- تنكشف، ليس لتشعل غضب الأمريكيين فقط، وإنما لتفجر أكبر أزمة بين الولايات المتحدة وروسيا منذ سقوط الاتحاد السوفييتي، كادت تحول صداقة الرئيس الأمريكي جورج بوش، والرئيس الروسي فلاديمير بوتين، إلى عداء مستعر، بعد حرب التصريحات، وتبادل الاتهامات،

وقيامهما بشن ما عرف - وقتها بـ «تبادل طرد الجواسيس بين موسكو وواشنطن»، ولولا تغليب العقل في النهاية على الانفعال لتحول الأمر إلى مواجهة غير مأمونة العواقب.

وكشفت الوثائق التي أفرجت عنها المحكمة الأمريكية التي تنظر قضية هانسن ونشرتها صحيفة «لوس أنجلوس تايمز» الأمريكية في السابع من يوليو عام 2001، أن روبرت هانسن موظف مكافحة التجسس في مكتب التحقيقات الفيدرالي، كان يتبادل الطرود مع الجواسيس الروس في منطقة العاصمة واشنطن من تحت جسر للمشاة في حديقة «روك كريك» وهي حديقة أطلقوا عليها اسمًا كوديًّا هو «Vertue»، أي «الفضيلة »أو عبر تقاطع طريق في منطقة «ماكلين» بولاية فرجينيا أطلقوا عليه اسمًا كوديًّا آخر هو «Flue» أي البرد.

وقد كشفت هذه الوثائق عن أن هانسن لجأ إلى إعلانات مزيفة في الصحف الأمريكية ومنها «واشنطون بوست»، بالإضافة إلى أكثر من 10 مواقع

على الإنترنت، للاتصال بالمخابرات السوفييتية ثم الروسية، وتبين أنه لم يلتق على الإطلاق وجهًا لوجه مع عملاء جهاز المخابرات لا الروسي ولا السوفييتي من قبله.

وكانت الحقائب الخضراء التي كان هانسن يتركها عبر السنوات تحتوي على أقراص كمبيوتر وآلاف من صفحات الوثائق، التي تتراوح بين أسماء الروس، الذين يعملون لحساب الولايات المتحدة إلى جهود التنصت، التي تقوم بها وكالة الأمن القومي. وكان يترك دائمًا ورقة عليها اسمه الكودي «رامون».

وكان الروس يتركون له أحجارًا ثمينة جدًّا من «الألماس»، وصلت قيمة أحدها إلى 25 ألف دولارتقريبًا، ونقدا وصل في بعض الأحيان إلى 50 ألف دولار، أو ملاحظات مكتوبة، عن وضع عشرات الآلاف من الدولارات في حساب لهانسن في بنك في موسكو.

وقد وصفت وزارة العدل الأمريكية نشاطه في مجال التجسس في 69 صفحة، نشرت فيها نسخًا من خطاباته ومكالمات هاتفية بينه والشخص الروسي المتعامل معه. وكشفت الوثائق أن الروس كانوا سعداء للغاية من المعلومات القيمة التي حصلوا عليها لدرجة قلقهم من استخدام بعضها، خوفًا من احتمال الكشف عن هانسن، لأنه بصفته من كبار المسؤولين في مكتب التحقيقات الفيدرالي، كان مسموحًا له الاطلاع على بعض من أهم الأسرار الحكومية.

وبالرغم من ذلك فقد طالب الروس بمزيد من المعلومات. مثلا طالبوه بأسماء الروس الذين يعملون سرًّا لحساب الولايات المتحدة، وتفاصيل حول خطط الدفاع الصاروخي الأمريكية والغواصات.

وكان هانسن من البداية، يخشى الكشف عن نفسه. فبالإضافة إلى تعدد مواقع تسليم المعلومات المختلفة، كون مجموعة من العناوين المزورة والشفرات لحماية الرسائل الإلكترونية أو تغيير موعد اللقاء.

ففي أغسطس عام 1986 طالب الروس بوضع إعلان لسيارة دودج موديل 1971 بصحيفة «واشنطن بوست» مع رقم هاتف، ورد معد حول أسئلته بخصوص السيارة. ثم يتولى هو تقديم رقم هاتف يمكنهم الاتصال به.

وقبل عامين من سقوطه، كان هانسن الذي كان من ضمن مهامه -وقتذاك- تقديم المشورة الأمنية لوزير الخارجية الأمريكية كولين باول، قد أصبح مرتعدًا من احتمال كشف مكتب التحقيقات الفيدرالي لحياته السرية، وبحث في شبكة كمبيوتر مكتب التحقيقات لتحديد ما إذا كان رجال المكتب يراقبون مناطق التسليم والتسلم. وتحدث مع الروس حول فتح حساب في مصرف سويسري، ولكن تأكدت له إمكانية الكشف عنه.

ولكن كيف تم اكتشاف هانسن؟! الإجابة -ببساطة- هي عن طريق «الوشاية».. وممن.. من «جاسوس» حاقد أسمى نفسه بـ «المنتقم»!

فقد قدم عميل روسي شهير في عالم الجاسوسية يدعى أولدريتش إيمز لوكالة المخابرات المركزية معلومات عملياتية كافية إلى المحققين، وهذا الجاسوس الذي حمل الاسم الحركي «المنتقم» لجأ فيما بعد إلى الغرب، وكتب في نوفمبر 2000 يقول إنه ساعد في تجنيد مصدر، ما زال يعمل داخل جهاز الاستخبارات السوفييتية، وقد تمكن هذا المصدر الجديد من الحصول على ملف ضخم لجاسوس يعمل في الولايات المتحدة ويتجسس لحساب الاستخبارات الروسية.

وقد قدم المصدر هذا الملف إلى الأمريكيين، ويحتوي كتاب الأمريكي المتخصص في شؤون المخابرات ديفيد وايز على هذه التفاصيل الخاصة بالجاسوس الذي كشف عنه «المنتقم» للمخابرات الأمريكية، وهو الذي تم تحديده -فيما بعد في شخص هانسن- وقد حمل وايز، الذي يعد من أكبر المراجع الغربية أيضًا في مكافحة التجسس كتابه عنوان يقرأ: «الجاسوس: قصة خداع روبرت هانسن لأمريكا».

ويقول وايز إنه منذ اليوم الذي ألقي القبض فيه على هانس أصبح معروفًا أن الـ «إف.بي. آي» حصل بطريقة ما على ملف الـ«كي. جي. بي»، وكان التحدي الذي واجه كل من كتبوا عن هذه الحالة هو أن يوضحوا كيف تم ذلك؟! وهنا يقول وايز إن مكتب التحقيقات الفيدرالي راجع قوائمه، التي تضم عملاء المخابرات الروسية، الذين ربما يعرفون هوية الجاسوس، ثم التقط المكتب واحدًا كان قد اعتزل العمل في الاستخبارات، وأقام مشروعًا له في موسكو، وعندئذ تم إغراؤه بالسفر إلى أمريكا على أمل الحصول على عقد، وكان المكتب يعرف أن هذا الروسي إما قد حمل معه الملف، أو أنه في حوزته، وقد اشتراه المكتب منه مقابل 7 ملايين دولار ووعد بمساعدته في إيجاد وطن بديل، وكان هذا الملف يحتوي على كل شيء ما عدا اسم روبرت هانسن.

فقد خرج جهاز الـ«كي. جي. بي» عن كل التقاليد والأعراف المخابراتية، ووافق على تشغيل هذا الجاسوس الثاني لعقدين من الزمان، من دون أن يعلم

الجهاز حقيقته، على أن يتم تبادل المواد المتروكة في مواقع تم ترتيبها من قبل. وكان الجهاز الروسي يعرف العميل الجديد فقط بـ «رامون جارسيا» ولكن محققي المكتب لم يستغرقوا وقتا طويلًا لمعرفته عن طريق قراءة رسائله العديدة إلى الروس، أو عن طريق الاستماع إلى تسجيلات مكالماته الهاتفية، والتعرف على صوت هانسن عندما اكتشفته «بوني»!

واكتشف مسؤولو المكتب أن روبرت فيليب هانسن، الذي ولد عام 1944، لأب يعمل شرطيًّا في مدينة «شيكاغو»، وكان عميلًا لـ«إف. بي. آي» منذ عام 1976، وبدأ تمرير الأسرار للروس في عام 1979، كان قد تراجع لبعض الوقت، عندما ضبطته زوجته «بوني»، ثم عاد في عام 1985 إلى الاتصال بالروس مرة أخرى، بأن كتب خطابًا إلى مدرب جواسيس معروف في السفارة السوفييتية في واشنطن واسمه «فيكتور تشيركاشن» الذي كان قد تولى أيضًا التعامل مع «المنتقم» أولدرتيش إيمز.

وفي منتصف نوفمبر عام 2000، حصل مكتب التحقيقات الفيدرالي على الملف الروسي، وفي خلال أسابيع وضع المكتب هانسن تحت المراقبة، وبدأ الجاسوس المحترف يشعر بأنه في خطر، وفي رسالته الأخيرة للروس وكان مقررًا تسليمها في فبراير عام 2001 كتب يقول: «حان الوقت لكي أتوقف عن خدماتي.. هناك شيء قد أيقظ النمر النائم.. ربما تعرفون أفضل مني أن الحياة لا تبقى على حال».

وبعد دقائق من تركه كيسًا يحتوي على الرسالة وسبع وثائق سرية في إحدى الحدائق بالقرب من منزله، وضع لها الاسم الكودي «إليس» قام عملاء مكتب التحقيقات الفيدرالي الذين كانوا يراقبونه -دون أن يدري- باعتقاله.

وقد كشفت التحقيقات -فيما بعد- أن أكياس القمامة التي كان هانسن قد اعتاد إلقاءها لطالما كانت تمتلئ بأوراق سرية وأن عدد هذه الأوراق بلغ أكثر من ستة آلاف صفحة وكانت تتضمن موضوعات مثل برنامج الاستخبارات القومية لعام 1987، ودراسة قام بها

موظفو وكالة المخابرات المركزية الأمريكية «سي. آي. إيه» عن خطة عمليات الـ«كي. جي. بي» لتجنيد العملاء ضد الوكالة، وكان آخر هذه الوثائق يتناول بالتفصيل وسائل تمكن الولايات المتحدة من الاحتفاظ بقدرتها على اتخاذ القرارات أثناء حرب نووية شاملة.

وقد كان من الممكن أن يتوقف الأمر حتى عند هذا الحد لولا أن ورود اسم «هانسن» -كما كشفت صحيفة «وورلد نايت دايلي» في الـ20 من شهر سبتمبر 2001 نقلًا عن مسؤولين مخابراتيين- كأول مشتبه به في تسريب منظومة الرموز التي تستخدمها الرئاسة الأمريكية و«مكتب الاستطلاع القومي» و«استخبارات القوات الجوية والبرية والبحرية» وإدارتا الاستخبارات بوزارتي الخارجية والطاقة الأمريكيتين، والتي كشفت تحقيقات هجمات 11 سبتمبر 2001 أن هذه المنظومة كانت مع منفذي الهجمات مما سهل عملية اختراقها بواسطة الحاسوب. وسر اتهام هانسن بتسريبها هو أنه كان واحدًا من عدد محدود جدًّا يعرفها.

وبسبب هانسن، والصدمة التي أحدثها، تساءل الأمريكيون عن الضرر الذي يمكن أن يحدثه تنظيم القاعدة الإرهابي بمساعدة متسلل مثل الجاسوس هانسن.

وبسبب هذا الاكتشاف الخطير أعطى بوش أوامره بطرد خمسين دبلوماسيًّا روسيًّا يُعتبَرون عملاء للاستخبارات الروسية، إثر تلقيه توصية من مستشاريه للأمن القومي.

ويعتبر الإجراء الذي اتخذته الولايات المتحدة أول عملية طرد واسعة النطاق لدبلوماسيين روس منذ 1986 عندما طالبت الإدارة الأمريكية برئاسة رونالد ريجان باتخاذ خطوات لتقليص الوجود الدبلوماسي الروسي في الولايات المتحدة الأمريكية.

وكانت الولايات المتحدة قد طردت دبلوماسيًّا روسيًّا واحدًا عام 1994، وهو المسؤول عن مكتب الاستخبارات الروسي في واشنطن، بعدما كشفت عن جاسوس يعمل لحساب الروس في الـ «سي.آي. إيه»،

وفي المقابل طرد الروس رئيس مركز الـ «سي. آي. إيه» في موسكو.

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد فقد خرج الرئيس الروسي بوتين ليعلن إجراءات انتقامية ضد الولايات المتحدة، ردًا على طرد دبلوماسييه، على خلفية اعتقال هانسن.

وهكذا فجر سقوط هانسن أزمة هائلة بين موسكو وواشنطن، ودفعهما إلى قطع شهر العسل في العلاقات، لا سيما وأن مرحلة ما بعد انتهاء نهاية الحرب الباردة قد شهدت تعاونًا غير مسبوق، حتى في المجال المخابراتي، فقد بدأت وكالة المخابرات المركزية (سي. آي.إيه) وجهاز المخابرات الروسي بإقامة علاقة تعاون رسمية في هذا الصدد، حيث افتتح مكتب التحقيقات الفيدرالي «إف. بي. آي» مكتبًا له في موسكو، وبدأ مسؤولون في عقد لقاءات مع نظرائهم الروس أيضًا، حيث حرص الجانبان على اللقاء بشكل مستمر لمناقشة القضايا التي اعتقدوا بأنهم يستطيعون العمل

المشترك بخصوصها، مثل مكافحة الإرهاب وغسيل الأموال وتجارة المخدرات.

وبسبب هانسن، تم تعريض نحو 500 من العاملين في مكتب التحقيقات الفيدرالي ممن يطلعون على معلومات بالغة السرية للفحص بجهاز كشف الكذب في أول إصلاحات أمنية بعد القبض عليه، بينهم نحو 150 من كبار المديرين بمقر المكتب في واشنطن والضباط المسؤولون عن المكاتب الإقليمية وكل من يطلع غير هؤلاء على مواد حساسة، كما قام لويس فريه مدير المكتب بمراجعة كل التحقيقات الحساسة لتحديد ما إذا كان ضباط آخرون قد اطلعوا على معلومات ليست في نطاق المهام المكلفين بها.

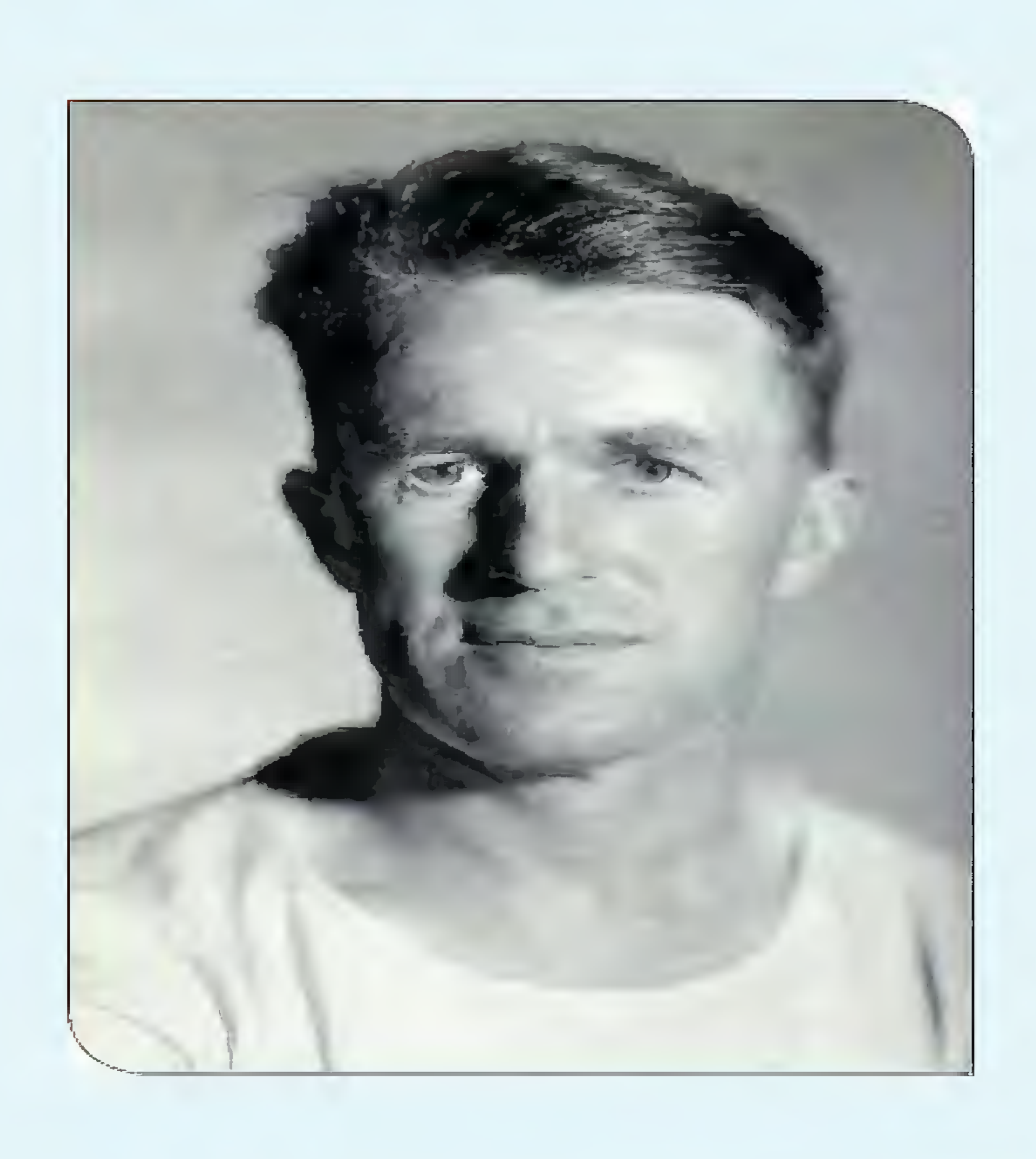
ودافع جون أشكروفت وزير العدل الأمريكي عن استخدام اختبارات كشف الكذب، مضيفًا أنه سيدقق في متابعة تردد العاملين واطلاعهم على المعلومات المدونة بأجهزة الكمبيوتر وغيرها من مصادر المعلومات، وأضاف - وقتذاك - أنه وفريقه اتفقا على هذه الإجراءات بعد القبض على هانسن.

وعندما علم باحتمال الحكم عليه بالإعدام، اعترف بالذنب وتوسل بأن يحكم عليه بالسجن مدى الحياة مقابل اعترافه هذا، وقد كان، ليسدل الستار على واحدة من أخطر وأغرب قصص الجاسوسية التي تم الكشف عنها في بدايات هذا القرن!!

22

لورانس العـرب..

والخديعة الكبرى!!



هو جاسوس وعميل تخفى في شخصية صديق مقرب من العرب، وفي فترة شديدة الخطورة والتقلبات، واستطاع أن يكون عينًا عليهم، ورقيبًا على تحركاتهم، والأخطر مضللًا لهم بعد أن وثقوا به.

وقد استيقظ العرب ذات يوم ليكتشفوا أن الرجل الذي منحوه ثقتهم وحبهم لم يكن سوى أكبر جاسوس زرعه البريطانيون واليهود في بلادهم!

هذا الرجل من الشخصيات التي أبرزها الاستعمار وأحاطها بهالة ضخمة من البطولة: شخصية الضابط تواماس إدوارد لورنس الذي وصف بأنه «ملك العرب غير المتوج »والمغامر الذي كشفت المؤلفات والأبحاث عن هويته الاستعمارية وولائه المزدوج لبريطانيا والصهيونية العالمية، وكيف خدع العرب وعايشهم في خيامهم إبان الحرب العالمية الأولى بهدف إسقاط الدولة العثمانية والإيقاع بين العرب والترك، ودفع العرب إلى الاقتتال من أجل استيلاء فرنسا وبريطانيا على أراضيهم.

وقد كشف لورانس نفسه خيانته للعرب، وكشف عن هذه الخدعة التي قام بها في كتابه (أعمدة الحكمة السبعة) وفضح نفسه، حين قال: «لو قيض للحلفاء أن ينتصروا فإن وعود بريطانيا للعرب لن تكون سوى حبر على ورق، ولو كنت رجلًا شريفًا وناصحًا أمينًا لصارحتهم بذلك وسرحت جيوشهم وجنبتهم التضحية بأرواحهم في سبيل أناس لا يحفظون لهم إلًّا ولا ذمة، وقوله: أما الشرف فقد فقدته يوم أكدت للعرب بأن بريطانيا ستحافظ على وعودها لهم»، وقوله: «لقد جازفت بخديعة العرب لاعتقادي أن مساعدتهم ضرورية لانتصارنا القليل الثمن في الشرق، ولاعتقادي أن كسبنا للعرب مع الحنث بوعودنا أفضل من عدم الانتصار»، ومن ذلك قوله: «إني أكثر ما أكون فخرًا أن الدم الإنجليزي لم يسفك في المعارك التي خضتها لأن جميع الأقطار الخاضعة لنا لم تكن تساوي في نظري موت إنجليزي واحد، لقد جازفت بخديعة العرب لأنني كنت أرى أن كسبنا للحرب مع الحنث بوعودنا أفضل من عدم الانتصار».

ولد لورانس في ويلز عام 1882 وتلقى دروسه في مدرسة أكسفورد الثانوية والكلية اليسوعية المجدلية في أكسفورد. ثم عين مساعدًا في متحف الآثار من 1910 - 1916.

جاء في عام 1911 قبل الحرب العالمية الأولى على هيئة عضو في بعثة أثرية تدرس القلاع الصليبية، حيث عمل في التنقيب عن الآثار في سورية والعراق وفلسطين وجال البلاد العربية وأتقن اللهجات العربية وتعرف إلى المناطق والقبائل العربية المتعددة، وقد ادعى لورانس أنه جاء ليكشف الطريق التي سلكها بنو إسرائيل بعد خروجهم من مصر، بينما كان يعمل في الواقع على رسم الخرائط للمنطقة لاستعمالها في حالة الحرب حيث كلف بالانضمام إلى القوات العربية المحاربة ضد الدولة العثمانية في (1916) بقيادة فيصل الأول ابن الشريف حسين بعد أن التحق في عام 1914 رسميًا في سلك الاستخبارات البريطانية العسكرية.

عمل في المملكة العثمانية من 1916 - 1918 وكان يلقب بملك العرب غير المتوج، وعندما قامت الحرب العالمية الأولى عمل في شمال الحجاز تحت قيادة الجنرال ونجت ممثل القيادة البريطانية، ثم نقلته حكومته للعمل تحت قيادة اللنبي عام 1918 وقد برز اسم لورانس في ثورة شريف مكة الشريف حسين.

اتخذ لورانس من الثورة جناحًا لحماية الحملة التي كان يقودها اللنبي إلى فلسطين وسورية، وثبت أنه كان عميلًا صهيونيًّا أيضًا وكانت له علاقة بجاسوسة كبيرة في فلسطين معروفة باسم سارة اوروتسوهن، كان أبوها أول من قام بإنشاء مستعمرة صهيونية في فلسطين سميت بمستعمرة زخروف ياكوف. وكان لسارة أثر في محاربة الدولة العثمانية وقد عملت كثيرًا لتحقيق قيام إسرائيل وساعدت الإنجليز في دخولهم إلى فلسطين، وكانت تمد الجنرال اللنبي بمعلومات عن مواقع البلاد وتحركات القوات التركية، ثم اكتشف أمرها واعتقلها الأتراك فانتحرت كي لا تضطر إلى البوح بمعلومات قد تفيد العدو.

والآن لندع لورانس يعرفنا عن نفسه وعن علاقته بالعرب وطريقة تعامله معهم، حيث ذكر في كتابه الشهير (أعمدة الحكمة السبعة) كاشفًا عن حقده وكراهيته للعرب والمسلمين وتاريخهم محاولًا التقليل من شأنهم ورميهم بالجهل والتخلف: (لقد كنت أعلم أننا إذا كسبنا الحرب فإن عهودنا للعرب ستصبح أوراقًا ميتة غير أن الاندفاع العربي كان وسيلتنا الرئيسية في كسب الحرب الشرقية، وعلى ذلك فقد أكدت لهم أن بريطانيا سوف تحافظ على عهودها نصًّا وروحًا فاطمأنوا إلى هذا القول وقاموا بالكثير من الأعمال المدهشة، ولكني في الواقع بدلًا من أن أشعر بالفخر لهذا الذي فعلته، كنت أشعر دائمًا بنوع من المرارة والخجل، لقد ذهبت إلى الصحراء غريبًا لا أملك أن أفكر على طريقة أهلها ولا أن أشاركهم معتقداتهم، ولكنه كان عليَّ أن أقود العرب وأن أستخدم حركتهم إلى أقصى حد لصالح بريطانيا في الحرب وإذا لم أكن أقدر على التطبع بطباعهم فعليَّ على الأقل أن أخفي ما عندي وأن أتسلل بنفوذي بينهم، إن الرجل إذا ألقت به الظروف إلى من لا يماثلونه عاش بينهم ولا ضمير

له، لأنه قد يعمل ضد صالحهم أو يستميلهم إلى غير ما يحبون لأنفسهم، وهو يتحايل بدهائه ليغلب دهاءهم، وهكذا كنت مع العرب، كنت أقلد أحوالهم فيقلدونني حكاية واقتداء وكنت أخرج عن مألوفي وأتظاهر بمألوفهم) .

ثم يقول في مقطع آخر: (لقد كان بعض الإنجليز وعلى رأسهم كتشنر يعتقدون أن ثورة كبرى يقوم بها العرب على الأتراك تساعد إنجلترا وهي تحارب ألمانيا على دحر حليفتها تركيا، إنني لم أبلغ درجة من الحمق تجعلني لا أدرك أنه لو قضي للحلفاء أن ينتصروا وأننا لو كسبنا الحرب فإن هذه الوعود سوف تكون حبرًا على ورق، ولو كنت مناصحًا شريفًا للعرب لنصحتهم بالعودة إلى بيوتهم وسرحت جيشهم وجنبتهم التضحية بأرواحهم ودعوتهم إلى عدم المخاطرة بحياتهم في مثل هذه الحرب، أما الشرف فقد فقدته يوم أن أكدت للعرب بأن بريطانيا ستحافظ على وعدها..... إنني أكثر ما أكون فخورًا أن الدم الإنجليزي لم يسفك في المعارك الثلاثين التي خضتها لأن جميع

الأقطار الخاضعة لنا لم تكن تساوي في نظري موت إنجليزي واحد، لقد جازفت بخديعة العرب لاعتقادي أن مساعدتهم كانت ضرورية لانتصارنا القليل الثمن في الشرق، ولاعتقادي أن كسبنا للحرب مع الحنث بوعودنا أفضل من عدم الانتصار).

ويصف العربي بقوله (العربي حين يصدق بك ويؤمن برسالتك، سوف يتبعك إلى أقاصي الدنيا، ولو بذل في ذلك حياته).

ومن أقوال لورانس الشهيرة (أهدافنا الرئيسية تفتيت الوحدة الإسلامية ودحر الإمبراطورية العثمانية وتدميرها).

لقد جاء في تقرير سري للورانس العرب بعنوان احتلال سورية ما يلي حرفيًا (إن شئنا ضمان السلام في جنوب سورية والسيطرة على جنوب بلاد ما بين النهرين وجميع المدن المقدسة فيجب أن نحكم دمشق مباشرة).

ولقد بلغ استخفاف لورانس بالعرب إلى قيادتهم لتفجير خط حديد سكة الحجاز الذي شيده السلطان عبد الحميد وبأموال التبرع من المسلمين لكي تسهل له ولجيوشه الإسلامية التركية التنقل السريع إلى المنطقة العربية، خاصة إلى الأماكن المقدسة لحمايتها من السيطرة الإنجليزية. وبذلك عزل جيوش الخلافة الإسلامية عن المنطقة العربية الثائرة في ثورة عربية كبرى.

ولما انتهت الحرب وأعلن اللورد اللنبي في القدس (الآن انتهت الحروب الصليبية) وأعلن جورو في دمشق قولته: «ها نحن قد عدنا يا صلاح الدين»، كان لورانس وصل دمشق عام 1917 مع الجيش البريطاني وكان أول شيء قام به زيارة قبر صلاح الدين ونزع قلادة إعجاب كان قد وضعها على القبر الإمبراطور الألماني وليم الثاني في زيارة له للقبر، وأخذها معه إلى بريطانيا وما زالت حتى اليوم في المتحف الحربي البريطاني ومعها ملاحظة مكتوبة من لورانس تقول «لم يعد صلاح الدين بحاجة لها بعد الآن».

ثم ظهرت بعد ذلك كتابات كشفت وجهه الحقيقي كتبها أمثال ريتشارد الدنجتون في كتابه «لورانس الدجال» وجان بيروفيلار الكاتب الفرنسي، ولويل توماس، وروبرت جرنفر، وليدل هارت، فكشفوا عن حقيقته ووصفوه بأنه كان متحمسًا للقضاء على الإمبراطورية العثمانية لتأكيد سطوة الاستعمار البريطاني وحده، وأن ما ادعاه من محبته للعرب ومقابلته للملك البريطاني مع فيصل بالعباءة والعقال العربي ورفضه قبول الوسام إنما كان هذا كله تغطيةً لمواقفه، وبلوغًا بالمسرحية إلى غايتها. وقد دحض ريتشارد الدنجتون في كتابه هذه الأسطورة البطولية، ليحل محلها إنسان مليء بالعقد والشذوذ، وعنده أن لورانس هو الذي عمل على اجتماع فيصل وحايم وايزمان في باريس 1919 وهو الذي كتب الاتفاقية التي وقعها كلاهما، وكان لورانس يُطلق على الثورة العربية تقطيع أوصال الدولة العثمانية وهدفه إيقاع الخلاف وتعميقه بين العرب والترك وفتح الطريق أمام الصهيونية إلى فلسطين.

ولننظر بتأمل الآن إلى ما ذكره المؤرخ البريطاني اليهودي سير مارتين جيلبرت في حوار مع صحيفة جيروزاليم بوست الإسرائيلية (أعلم أن ما سأقوله سيصدم كل الآراء التقليدية حول لورانس العرب. ولكني مستعد لتأكيد أن لورانس، الذي جسد دوره بيتر أوتول في فيلم المخرج ديفيد لين الشهير، لم يكن هو هذا البطل الذي أسهم في تأجيج ثورة العرب ضد الدولة العثمانية في العشرينيات من القرن الماضي، وإنما هو في حقيقة الأمر صهيوني متعصب، شديد الاقتناع بحق إسرائيل في أن تكون لها دولة يهودية تبدأ عند سواحل البحر المتوسط، وتمتد إلى نهر الأردن) .

ويقول جيلبرت في كتابه «تشرشل واليهود»: «إن لورانس العرب الذي دأب المؤرخون على تصويره على أنه محب للعرب ونموذج للبريطاني العربي، كان في حقيقة الأمر يحتقر العرب، وكان مقتنعًا تمامًا بأن العرب لن يستطيعوا تحقيق أي شيء في حال تم تأسيس دولة يهودية بينهم».

وأكد المؤرخ البريطاني في كتابه عن مذكرات وملاحظات كتبها لورانس العرب بخط يده خلال فترة عمله كمساعد لرئيس الوزراء البريطاني السابق وينستون تشرشل عام 1921، وصف فيها بمنتهى الوضوح فلسطين والمنطقة الممتدة من ساحل البحر المتوسط شمالا إلى الأردن جنوبًا بأنها الوطن القومي لليهود!!

23

أمينة المفتي..

أخطر جاسوسة عربية



هي أشهر جاسوسة عربية عملت لحساب جهاز الاستخبارات الإسرائيلي «الموساد».وربما تكون أكثر جاسوسة عرفها العالم من حيث دمويتها وبشاعتها.

ولدت أمينة داود المفتي عام 1939 لأسرة ثرية في إحدى ضواحي عمان الراقية، وكانت عائلتها الشركسية المسلمة قد هاجرت إلى الأردن منذ سنوات طويلة، وتبوأت مراكز سياسية واجتماعية مرموقة.. عرفت أمينة المفتي بين أقرانها بالجمال والدلال والذكاء والطموح لكنها وبرغم نشأتها في أسرة محافظة كانت تكره التقاليد وتسخر منها.

أحبت أمينة المفتي في بداية حياتها شابًّا فلسطينيًّا لكنه صدها وهجرها إلى أخرى بسبب غرورها وأنانيتها.. صدمها الموقف برمته وكان له آثاره السلبية على حياتها ودراستها، إذ حصلت على الثانوية العامة بدرجات متوسطة، دفعتها للتفكير في السفر إلى أوربا للالتحاق بإحدى جامعاتها.

وفي عام 1957 التحقت بجامعة فيينا لدراسة علم النفس الطبي وهناك تعرفت على طالبة نمساوية (شاذة) تدعى جولي باتريك وتأثرت كثيرًا بشخصيتها المتحررة إلى حد الانحلال.

وهكذا مرت سنوات الدراسة في فيينا وفي آب (أغسطس) من عام 1961 عادت أمينة المفتي إلى عمان مكرهة تحمل بداخلها طبائع أخرى، بحثت عن حبيبها الفلسطيني وصدمت عندما علمت بنبأ زواجه من فتاته السمراء.. ففكرت بالعودة إلى النمسا.. واستطاعت الحصول على عمل بورشة صغيرة للعب الأطفال.

وهناك تعرفت بالفتاة اليهودية (سارة بيراد) وانخرطت معها في حياة الانحلال والشذوذ.. وفي إحدى زيارات أمينة المفتي لأسرة سارة في وستندورف، تعرفت إلى (موشيه) شقيق سارة الأكبر الوسيم.. كان موشيه طيارًا عسكريًا برتبة نقيب، يكبرها بسبع سنوات، وهو إلى ذلك كله بهي الطلعة.. ساحر النظرات معسول الكلام.. فأحبته وارتبطت به بعلاقة محرمة لمدة

خمس سنوات.. ساعدها موشيه خلالها في الحصول على شهادة دكتوراه مزورة في علم النفس المرضي وهو فرع من علم النفس الطبي، وفي سبتمبر من عام 1966 عادت إلى الأردن بشهادة مزورة وجسد منهك بالخطايا.

وحدث ذات يوم أنها قرأت إعلانًا في صحيفة محلية عن تأجير مستشفى للمعاقين جسديًّا ونفسيًّا تابع لوزارة الصحة.. وفي اليوم التالي كانت في مكتب وزير الصحة وطلبت منه تأجير المستشفى فوافق على طلبها.

وسارت الأمور بشكل روتيني لبضعة شهور حتى فوجئت أستاذة علم النفس بوزير الصحة يستدعيها ويخبرها بأن عقد الإيجار الذي أبرمته الوزارة معها قد تم فسخه، لأن موظفي الوزارة تمكنوا من ضبط مخالفات مالية واختلاسات واضحة في المواد الطبية والإيرادات وكشوف المصروفات في المستشفى الذي تديره.

غادرت الدكتورة مكتب الوزير حانقة، غاضبة، وكارهة لكل ما يمت لهذا الوطن بصلة... خصوصًا وأنها بعد الحادثة واجهتها اتهامات تشكك في حصولها على شهادة الدكتوراه.. فقررت العودة إلى النمسا من جديد.

وبعد نكسة يونيو عام 1967 أسرعت أمينة المفتي إلى موشيه الذي عرض عليها الزواج فوافقت على طلبه دون تردد أو تفكير.. وفي معبد شيمودت.. اعتنقت أمينة المفتي اليهودية، وتزوجت من موشيه زواجًا محرمًا شرعًا، واستبدلت باسمها العربي الاسم اليهودي الجديد (آني موشيه بيراد) وعاشت معه في شقته الجديدة حياة ملؤها الخوف والتوتر بسبب فعلتها.. إذ إن الخائنة كانت تعتقد أن عيون المخابرات العربية تترصدها في كل مكان، ولذلك كانت تتمنى لو أنها كانت تعيش في أي مكان آخر بعيدًا عن أعين الرقباء العرب.

وفي صيف عام 1972 اعتقدت أن الفرصة التي كانت تحلم بها قد أتتها على طبق من ذهب عندما قرأت إعلانًا غريبًا بإحدى الصحف النمساوية، تطلب فيه

إسرائيل متطوعين من يهود أوربا للالتحاق بجيش الدفاع، مقابل مرتبات مغرية، وحاولت إقناع زوجها بالفكرة والعيش في إسرائيل لتودع الخوف إلى الأبد.

وأمام إلحاحها المستمر وافق الزوج اليهودي وطارا معًا إلى إسرائيل في نوفمبر من عام 1972 وأقاما في بيت مريح بمستوطنة ريشون لتسيون.. وهناك استقبلت أمينة المفتي بحفاوة إسرائيلية بالغة ووعدها الإسرائيليون بتوفير عمل مناسب لها أيضًا في أقرب فرصة بعد أن أخذوها إلى جهة أمنية وسألوها مئات الأسئلة عن نشأتها في الأردن.. أسرتها.. زواجها.. آرائها السياسية.. وغير ذلك.. إلا أن ما حلمت به الخائنة وتمنته لم يدم طويلا.. إذ إن مدفعية السوريين أسقطت طائرة الرائد الإسرائيلي موشيه بيراد (السكاي هوك) في أول طلعة استطلاع له على الجبهة السورية.. ولم تعلن سوريا عن أسر الطيار الإسرائيلي وقالت إن الطائرة انفجرت في الجو وقائدها بداخلها.

وحاولت إسرائيل استعادة جثة الطيار القتيل عن طريق الصليب الأحمر إلا أن الإجابة كانت إنه مفقود ولا أثر لجثته!

رحلة الانتقام.. نزل الخبر على المرأة الخائنة كالصاعقة ولم تصدق الأمر.. وظلت تصرخ وتصرخ بهستيريا لأيام طويلة.. وبعد شهر ونصف من الحادث قالت بأنها تشكك في البيان السوري، وبأن موشيه ما يزال حيًّا لأنه طيار ماهر!! وصبت جام غضبها على العرب الذين ضيعوا حلمها بالاستقرار والعيش في إسرائيل.. وقررت الثأر لزوجها والانتقام له.

ولكن وقبل كل شيء سافرت إلى شقتها في فيينا التي عاشت فيها ذكريات جميلة مع زوجها الطيار اليهودي.. وفي صباح اليوم التالي أيقظها ثلاثة ضباط إسرائيليون زعموا أن مهمتهم تنحصر في إنهاء إجراءات الإرث الخاص بها، دون إثارة مشاكل مع أسرة زوجها.

وكان ميراثها مع التعويض يربو على النصف مليون دولار، مع الشقة الرائعة في ريشون لتسيون، وطلب الرجال الثلاثة منها أن تتعاون معهم لقاء ذلك، وتنفذ ما سيطلب منها بلا تردد.. ولم تكن المرأة التي باعت دينها وخانت وطنها بحاجة إلى كثير من العناء لجرها إلى فخ الجاسوسية.. فهي طبيبة.. تحمل ثلاث جنسيات مختلفة (الأردنية والنمساوية والإسرائيلية).. بالإضافة إلى أنها غارقة في بحر من الحزن والضغينة والحقد على العرب وكان من السهل على الموساد اصطيادها وتجنيدها لحسابها لكل هذه الأسباب.

.. بدأت أمينة المفتي بمساعدة ضباط الموساد التدرب على أصول التجسس ومبادئه في شقتها.. وتعلمت في 34 يومًا أساليب التجسس المختلفة وكانت في كل هذا ماهرة وبارعة.

غادرت أمينة المفتي فيينا إلى بيروت لتبدأ رحلة الانتقام، وكتبت في مذكراتها: «لن أهدأ حتى أشهد بنفسي بحور الدم المراق تعلوها الأشلاء الممزقة..

وأرى ألف زوجة عربية تبكي زوجها، وألف أم فقدت ابنها، وألف شاب بلا أطراف».

وكانت مهمتها المحددة هي تقصي أخبار رجال المنظمات الفلسطينية الذين يؤرقون أمن إسرائيل بالإضافة إلى التحري عن مراكز إقامة قادة المقاومة، والطرق التي يسلكها الفدائيون للتسلل إلى الأرض المحتلة، أيضًا، التغلغل داخلهم لمعرفة أعداد الفدائيين، وتدريبهم، وتسليحهم. ومدى مهارتهم في التخفي والمناورة، ومخازن الأسلحة والإعاشة.. والحصول على القوائم السرية لرجال المخابرات الفلسطينية (رصد) في أوربا وصفاتهم.

وقد برعت الجاسوسة الإسرائيلية في كل ما طلب منها.. وخصوصًا أن الفلسطينيين وثقوا بها لفترة طويلة فاستطاعت دخول المخيمات الفلسطينية في لبنان والتنقل فيها بحرية تامة.. والتقت برئيس منظمة التحرير الفلسطينية ياسر عرفات شخصيًّا عدة مرات وفكرت باغتياله كما ورد في مذكراتها، وجمعت معلومات وافرة عن القادة الفلسطينيين الذين دوخوا

الموساد لسنوات طويلة أمثال علي حسن سلامة المسؤول عن عملية (ميونيخ) التي قتل فيها أحد عشر إسرائيليًا.. إلا أنها سقطت في نهاية الأمر واكتشف أمرها.. وسجنت لعدة سنوات قبل أن يفرج عنها مقابل الإفراج عن أسيرين فلسطينيين في إسرائيل.

وفي يوم 13 فبراير 1980 تمت عملية مبادلتها بالأسيرين الفلسطينيين، وعاشت الجاسوسة القذرة في شارع هابحيفيم هرتسليا ضمن مستوطنة محصنة يقطنها 22 ألف يهودي، وتولى جهاز (الشين بيت) الإسرائيلي حمايتها خوفًا من أن تطولها يد عربية في يوم من الأيام، خصوصًا وأن عشرات الصحف نشرت صورها وأخبارها.. واسمها يتصدر لوحة الشرف بمبنى الموساد، وهي لوحة تضم أمهر العملاء ويطلق عليهم اسم (الأصدقاء الذين أخلصوا لإسرائيل) وقدموا إليها معلومات عن أعدائها ساعدت على إحراز انتصارات عظيمة.

أخضعت أمينة المفتي لرعاية طبية نفسية مكثفة، ومنحها الموساد ستين ألف شيكل مكافأة لها، إلا أن

حياتها ظلت مضطربة وقلقة كما تحكي في مذكراتها، وعام 1982 افتتحت عيادة خاصة وبعد ستة أشهر تقريبًا سمعت خبرًا في إذاعة لبنانية عن موت والدها وفقدان أمها النطق بسببها.

وفي محاولة يائسة ذهبت الجاسوسة لمبنى الموساد وقابلت الرئيس الجديد ناحوم أدوني.. وطلبت منه أن يحقق رغبتها في العودة إلى الأردن.. ووعدها أدوني بالنظر في أمرها.

ظلت أمينة تنتظر الرد.. وبعد ثلاثة أشهر، أخبرها ضابط الموساد أن أهلها يرفضون أن تعود إليهم وسلمها شريط كاسيت سجل عليه أفراد أسرتها وأعمامها وأخوالها تمنياتهم لها بالموت، على ألا تطأ الأرض الأردنية بقدميها بعدما فعلته من غدر وخيانة وقذارة.

وفي مطلع عام 1984 نشرت مجلة (بمحانية) العسكرية الإسرائيلية خبرًا صغيرًا يقول إن وزير الدفاع أصدر قرارًا بصرف معاش دائم للمقدم آني

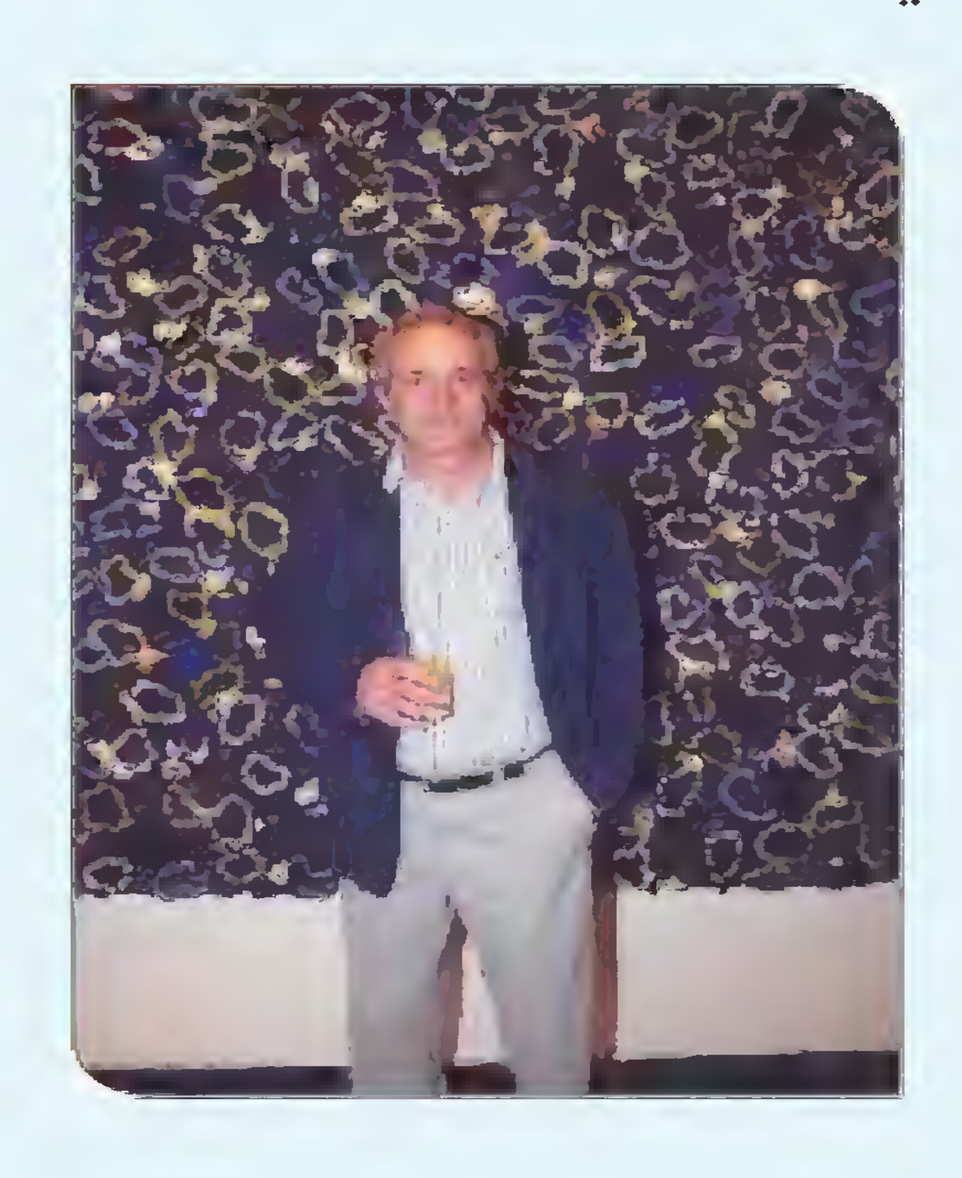
موشيه بيراد، وظلت نهاية أقذر جاسوسة عربية للموساد يلفها الغموض وتتقاذفها الروايات الكثيرة.

إحدى الروايات تؤكد بأنها تعيش الآن بولاية تكساس الأمريكية مع زوجها الإسباني باسم جديد حيث تمتلك مزرعة واسعة هناك.. بينما تزعم رواية ثانية بأنها أجرت تعديلات بوجهها بمعرفة الموساد.. وتعيش في جنوب إفريقيا منذ عام 1985 تحت اسم مزيف.. وتعمل في الاستيراد والتصدير.. وتزعم رواية ثالثة أنها انتحرت بحقنة سامة داخل حجرتها بقسم الأمراض العصبية بمستشفى تل هاشومير، وهو مستشفى يعد من أكبر مستشفيات إسرائيل.

24

نبيل النحاس..

السقوط في بئر الخيانة!



ن الجاسوس نبيل النحاس عبدًا لشهواته، وأسيرًا لملذاته، التي كما كانت سببًا في دخوله وكر

الجواسيس، هي نفسها التي كانت سببًا في الإيقاع به واصطياده.

تمتد جذور أسرته إلى «حاصبيا» في محافظة لبنان الجنوبية وتقع على نهر الحاصباني وبعد سنوات طويلة انتقلت الأسرة إلى «كفر شيما» بمنطقة الشويفات جنوبي بيروت ومن هناك إلى مصر وأقام والده بالسويس، وتزوج من فتاة مصرية أنجبت له «نبيل» عام 1936.

كان الطفل يحمل ملامح والده الشامي الأشقر وعذوبة أمه المصرية.. وتميز منذ الصغر بذكاء شديد يفوق أقرانه.. فتنبأ له الجميع بمستقبل مضمون ونجاح أكيد..

وتلاحقت السنون سراعًا ونجح نبيل النحاس في الثانوية العامة والتحق بجامعة القاهرة طالبًا بكلية التجارة، وبخطوات واثقة شق طريقه نحو الحياة العملية بعد تخرجه متفوقًا.. تراوده طموحات لا حدود لها..

ولم يطل به الانتظار طويلًا، إذ سرعان ما عمل سكرتيرًا في منظمة الشعوب الأفرو آسيوية التي كان يرأسها الأديب الراحل يوسف السباعي، وكان عمله كتابة محاضر الجلسات والمؤتمرات على الآلة الكاتبة.

ومن خلال وظيفته وموقعه.. توسعت علاقاته وتشعبت، وتبلورت شخصيته الجديدة التي نضجت مع ملاحة ورجولة تلفت انتباه الحسان، وتجعل منه مأملًا لهن، فأحطنه بدلالهن ليقطف منهن من يشاء.

وبمرور الشهور استشعر نبيل النحاس ضآلة راتبه الذي تعدى المائة جنيه.. في ذات الوقت الذي كان فيه راتب زميله في مكان آخر لا يتعدى الخمسة عشر جنيهًا في ذلك الوقت عام 1959، فعمله المرموق كان يتطلب مظهرًا حسنًا وملابس أنيقة تتناسب ومكانته، إلى جانب حاجته للإنفاق على معيشته وعلى علاقاته النسائية وملذاته خاصة، وقد ارتبط بعلاقة حميمة بفتاة إفريقية من كوناكري في غينيا، فانجرف معها إلى محيطات المتعة يجدف بلا كلل.

كان اسمها «جونايدا روتي»، خيزرانية القوام أبنوسية اللون رائعة الخلقة.. تعمل مراسلة صحفية لعدة صحف إفريقية وعالمية.

استطاعت جونايدا أن تمتلك عقله وتنسيه أية امرأة سواها.. فأغدق عليها بالهدايا حتى تعثرت أحواله المالية، فوجد الحل لديها لإنقاذه من تعثره عندما عرضت عليه أن يطلب إجازة من عمله بالمنظمة.. والانضمام إلى إحدى وكالات الأنباء العالمية كمراسل مقابل راتب كبير مغرٍ.

وكانت أولى المهام التي أوكلت إليه السفر إلى منطقة الصحراء المغربية «ريودي أورو» ومن «فيلاشيز نيروس» و«العيون» يستطيع أن ينقل أخبار الصراع السري الدائر بين المملكة المغربية وموريتانيا، صراع النفوذ على المنطقة المحصورة بينهما.

كانت سعادته بالمهمة الجديدة عظيمة، حيث ستتاح له فرصة اللحاق بالساحرة الإفريقية -جونايدا- التي

سبقته إلى كوناكري.. وطار النحاس إلى الدار البيضاء تحفه أحلام المغامرة والثقة في الغد.

هناك في الدار البيضاء كانت بانتظاره مفاجأة بدلت مجرى حياته كلها.. إذ تعرف إليه في بهو الفندق رجل مغربي، يهودي، عرف منه وجهته.. فعرض عليه مساعدته لدخول ريودي أورو عن طريق أعوان له في «سيدي أفني» أقصى جنوب المغرب، وكيفية اجتياز «وادي درعة» للوصول إلى الحدود.

ابتهج نبيل النحاس للصدفة الجميلة التي ما توقعها.. واحتفاء بالمراسل الصحفي الوسيم، أعد له المضيف وليمة غداء بمنزله في «أزمور» الساحرة.. التي تقع على نهر «أم الربيع» وتشرف على ساحل المحيط الأطلنطي.

وفي منزل تحيطه الحدائق والزهور في بانوراما طبيعية رائعة، كانت تنتظره المفاجأة، إنها «مليكة» اليهودية المغربية التي تستحوذ على جمال فتان لم تره عين من قبل.

كانت في الحادية والعشرين من عمرها، إذا خطت، تحركت الفتنة وترجرجت تحت ثيابها، وإذا تأودت أغرقت الدنيا بهاء وحسنًا، وإذا تحدثت، تموجت الأنغام سكرى على شفتيها، وأربكت حدود العقل وأركانه.

أذهل جمالها المراسل الصحفي الجديد فنسي مهمته في الجنوب، وذابت جونايدا إلى القاع أمام سحر مليكة، فقد أفقدته «حسناء أزمور» الوعي والرشاد.. وطيرت عقله إلى سفوح المتعة، فأقبل يلعق عناقيد الفتنة بين يديها.. ويتعبد منتشيًا في محرابها مسلوب القرار، فعندما يخوض الجسد بحار النشوة، يغوص متلذذًا بالغرق لا يرجو خلاصًا من الموت الجميل.

الأيام تمر وفتانا نسي مهمته، وقبع كطفل غرير بين أحضان مليكة التي أحكمت شباكها حوله وسيطرت على مجامع حواسه، وحولته إلى خادم يلبي طائعًا رغباتها، وينقاد لرأيها.. دون أن يشك ولو للحظة في كونها يهودية تسعى لاصطياده في خطة محبوكة ماهرة أعدتها جونايدا سلفًا في القاهرة.

وبعدما فرغت جيوبه أفاق على موقفه السيئ بلا نقود في بلاد الغربة.. وتمنى لو أنه كان يملك الملايين ليظل إلى جانب مليكة لا يفارقها أبدًا.

ولما قرأت فتاته أفكاره طمأنته وعرضت عليه السفر معها إلى باريس حيث الحرية والعمل والثراء. وبلا وعي وافقها.. ورافقها إلى عاصمة النور والجمال ومأوى الجواسيس. وهناك لم يفق أو ينتبه إلى حقيقة وجوده بين فكي كماشة ستؤلمه عضاتها حتمًا ذات يوم. ولما أيقنت أنه سقط في براثنها بلا قوة تؤازره وتدفعه لمقاومتها نبهته - بالتلميح - إلى ضرورة إدراك حقيقة لا بد أن يعيها وهي أنها يهودية تدين بالولاء لإسرائيل حتى وإن كانت مغربية المولد ولغتها عربية فرنسية.

وعندما استقرأ المراسل الصحفي مستقبله معها كانت الصورة أمامه مهتزة.. إذ خلقت منه أصابع مليكة الناعمة طفلًا لا يعي وأبلهَ لا يقرر وأعمى لا يرى تحت قدميه.

أقام معها في شقة رائعة وكانت تنفق عليه بتوفير فرصة عمل له من خلال أصدقائها في باريس واستدعت من أعماقه كل جوانب ضعفه وجنونه.. واستدرجته للحديث في السياسة فأفاض بغزارة.

وأسرَّ إليها بما لديه من معلومات عن المنظمة الأفرو آسيوية وعن أشخاص بعينهم يمثلون رموزًا هامة في المجتمع الدولي وحدثها عن علاقاته بكبار المسؤولين في مصر وكانت كل تلك الأحاديث مسجلة بالصوت والصورة.. إلى جانب تسجيلات أخرى أثناء استعراضه لفحولته عاريًا بين أحضان عميلة الموساد.

كان «باسكينر» ضابط الموساد يراقب كل شيء ويدرس شخصية نبيل النحاس باستفاضة. ولما حانت الفرصة المناسبة عرفته مليكة بفتاها.. وقدمته إليه على أنه رجل أعمال إسرائيلي يدير شركة كبرى للشحن الجوي تمتد فروعها في كل القارات.وكان رد الفعل عند المراسل الصحفي يكاد يكون طبيعيًا.. فهو يسعى إلى المال أينما وجد وسواء تحصل عليه من يهودي أو هندوسي فلا فرق.. المهم هو الكم.

استخلص الضابط المحنك حقيقة مؤداها أن الشاب المصري يريد المال ومليكة معًا فتولى أمره وتعهده ليصنع منه جاسوسًا ملمًّا بفنون الجاسوسية.. وكانت المناقشات بينهما تبدو طبيعية لا غبار عليها ثم تطرق باسكينر شيئًا فشيئًا إلى هويته وموقف العرب من إسرائيل واتجاهات الدبلوماسية العربية إزاء الوجود الإسرائيلي في المنطقة.

في أحاديثه أيضًا تطرق إلى عمليات الموساد الخارقة في البلاد العربية وكيف أنها تدفع بسخاء إلى عملائها وتحرص على حمايتهم إذا انكشف أحدهم.. ونوّه - من بعيد - عن التسجيلات الصوتية والأفلام التي بحوزتهم.. والأسرار التي تحويها هذه الشرائط، وأنها قد تهلك أصحابها إذا ما وقعت في أيدي المخابرات العربية.

لم يكن نبيل النحاس غبيًّا بالدرجة التي تجعله يجهل ما يرمي إليه باسكينر أو يتجاهله إذ استوعب نواياه ومقصده، وكان تعليقه الوحيد أنه شخصيًّا يتعاطف

مع إسرائيل وأن تعاطفه هذا عن قناعة تبلورت من خلال قراءاته في تاريخ اليهود.

بذلك اختصر نبيل النحاس الطريق الطويل أمام باسكينر وخطا أولى خطواته الفعلية على درب الخيانة والخسة.

أبقى باسكينر مليكة إلى جوار الجاسوس الجديد فوجودها مهم للغاية في تلك المرحلة الأولى من الإعداد والتدريب ذلك لأن خضوعه كان مرهونًا بوجودها.. إلى جانب آلاف الدولارات التي ملأت جيوبه فأسكرته وأنسته عروبته.. فقد كانت تمنحه النعيم ليلًا بينما يدربه باسكينر وزملاؤه نهارًا.

كانت أولى دروس الخيانة هي كيفية استدراج ذوي المراكز الحساسة للحديث في أمور يصعب تناولها وتتعلق بأسرار الدولة واستغلال حفلات الخمر والجنس في الوصول إلى أسرار غاية في الأهمية، إلى جانب ضرورة تزويد الموساد بنسخة طبق الأصل من

محاضر مؤتمرات المنظمة الأفرو آسيوية التي سيعود لعمله بها من جديد.

علموه أيضًا كيفية قراءة التقارير والأوراق بالمقلوب على مكاتب المسؤولين الكبار عند زياراته لهم واختزان الصور والرسوم والمعلومات التي يطلع عليها بذاكرته ثم يقوم بتسجيلها كتابة بعد ذلك وكيفية مراقبة المواقع العسكرية على الطريق ما بين القاهرة والسويس وكتابة تقارير وافية عن مشاهداته وإن كانت تافهة.. ويقوم بإرسالها -بواسطة الحبر السري- إلى أحد العناوين في -باريس مقر الموساد المختص بجواسيس الشرق الأوسط- الذي يقوم بتجميع الأخبار والتقارير التي تفد إليه من قبرص وأثينا وبروكسل وروما فيرسلها بدوره إلى تل أبيب.

ابتدأ النشاط التجسسي الفعلي لنبيل النحاس في منتصف عام 1960 فقد عاد إلى عمله بالمنظمة وكانت وظيفته ساترًا طبيعيًا يختفي خلفه ولا يثير أية شبهات من حوله.

واستطاع من خلال علاقاته الهامة استخلاص معلومات لا يتوقف سيلها.. كانت تصل إلى المخابرات الإسرائيلية أولًا بأول، وبالتالي يتحصل على مقابل مادي ضخم يتسلمه في القاهرة بطرق ملتوية عديدة.

وبعد عامين تقريبًا، استدعى إلى باريس في مهمة عاجلة، حيث كان بانتظاره باسكينر الذي عهد به إلى ضابط إسرائيلي آخر استطاع تدريبه على كيفية ترويج الإشاعات والتأثير سلبيًّا على الرأي العام من خلال تجمعات الأوساط المختلفة في مصر، وليتعلم الكثير من أساليب الحرب النفسية والتأثير السيكولوجي، اعتمادًا على لياقته ومقدرته الفذة على الإقناع، إلى جانب ترسيخ فكرة الخوف من الإسرائيليين لدى المحيطين به، واستبيان آرائهم تجاه العدو وقدرات الجيوش العربية على مواجهته.

وبعد مرور عدة سنوات كان نبيل النحاس من أنشط جواسيس إسرائيل في مصر. لقد نسي مليكة، ولم يعد يعرف لها وجهًا بعدما أدت مهمتها خير قيام. بينما انشغل هو بجمع أموال الموساد التى هيأت له فرص

التعرف بالكثيرات غيرها، فالأموال طائلة والوثائق الهامة تقدم، والنساء على كل الألوان.

وفي مرحلة أخرى من مراحل صناعة الجواسيس المحترفين - أعد له برنامج تدريبي أكثر خطورة في بيروت، إذ تم إخضاعه لدورة تدريبية بواسطة خبير متفجرات عميل للموساد، فتعلم كيفية صنع المتفجرات، وتفخيخ الرسائل والطرود والتخفي والتمويه والهرب والتنكر.

لقد أرادوا أن يخلقوا منه جاسوسًا فاعلًا وخبيرًا في الأعمال الإرهابية والتدمير في مصر. وكان الخائن أشد قابلية للتشكل والتمحور وتنفيذ مخططات العدو ولو بقتل الأبرياء، وبعدما فرت من أعماقه دلائل العروبة، وسرت بشرايينه دماء تحوي كرات الخيانة بكل الصور.

لذلك، تعاون بإخلاص مع الموساد في تهديد الخبراء الألمان، الذين يعملون في المصانع الحربية المصرية لإنتاج الصواريخ والأسلحة المتطورة بتوجيه الرسائل

المتفجرة إلى بعضهم، بالاشتراك ضمنًا مع «يوهان وولفجانج لوتز» عميل الموساد الشهير في القاهرة الذي ألقي القبض عليه في فبراير 1965 ولم يجر إعدامه.

وبرغم عدم اكتشاف أمره، إلا أن نبيل النحاس لم يتوقف بعد سقوط لوتز، واحتل مرتبة الصدارة لدى المخابرات الاسرائيلية في المنطقة. وقام بدور حيوي في نقل أسرار عسكرية وحيوية إلى إسرائيل قبل نكسة يونيو 1967.. ساعدت العدو على اجتياح الأراضي المصرية واحتلال سيناء. واعتبر نبيل النحاس نجاح إسرائيل في هزيمة العرب نتاج تعاونه معهم وإمدادهم بوثائق خطيرة وتقارير تشكل الصورة الواقعية للعسكرية المصرية.

وفي عام 1968 أفرجت مصر عن «لوتز» في صفقة مع إسرائيل للإفراج عن عدد كبير من أسرى الحرب لديها. وأحس نبيل بالزهو، فالصفقة منحته قدرًا هائلًا من الثقة في مخابرات اسرائيل التي لا تترك جواسيسها وعملاءها نهبًا للقلق، إذ تسعى لمبادلتهم

وبأي ثمن حماية للجواسيس الآخرين الذين يعملون في الخفاء، ويتملكهم الرعب عند سقوط أحدهم في قبضة المخابرات العربية.

لقد اطمأن أخيرًا على مستقبله في حالة سقوطه، فسوف تتم مبادلته هو الآخر ليعيش بقية حياته في إحدى الفيلات الرائعة بإسرائيل، ينعم بالأمن وبالأموال الكثيرة.

هذا الهاجس الذي عاشه، جعل منه خائنًا خطيرًا لا يتورع عن بيع أي شيء ذي أهمية لإسرائيل.. وكانت زيارته إلى تل أبيب حلمًا يراوده، وأملًا ينشده. لقد أراد أن يرى إسرائيل من الداخل ويتجول بين مدنها ويتخير لنفسه بيتًا مناسبًا قد يسكنه ذات يوم. وأعدوا له برنامجًا مشحونًا ينتظره قبل زيارته لإسرائيل بعدة أسابيع، وأثناء تواجده في أثينا.. كانت خطة سفره قد اكتملت.

ففي غفلة عن الأنظار اختفى نبيل فجأة من فندق «بوزايدون».. وفي المطار كان ثمة رجل أشقر تغطي

وجهه نظارة سوداء، ويرتدي معطفًا ترتفع ياقته لتخفي بقية وجهه، يحمل جواز سفر إسرائيليًّا باسم «شاؤول ياريف» ولا يتحدث مع أحد. خطواته الواثقة قادته إلى السيارة التي أقلته حتى طائرة (العال) الإسرائيلية الرابضة على الممر، وعن قرب كان يتبعه رجل آخر لا يبدو أنه يعرفه، إنه باسكينر ضابط الموساد الذي خلق منه جاسوسًا محترفًا، وفي مطار بن جوريون كانت تنتظره سيارة ليموزين سوداء ذات ستائر، سرعان ما دلف إليها.. فأقلته إلى مكان لا يعرفه سوى قلة من ضباط الموساد الذين استقبلوه بحفاوة بالغة.

وفي مكتب «زيفي زامير» رئيس الموساد الجديد كان اللقاء أكثر حرارة، إذ ترك زامير مكتبه وجلس قبالته يتأمل وجهه العربي الصديق، وعرض عليه خدمات الموساد فاختار الخائن أولًا أن يلتقي بالسيدة جولدا مائير، فصحبه إلى هناك حيث اصطف أكثر من خمسة وعشرين جنرالًا إسرائيليًّا لتحيته، واحتضنه أحدهم قائلًا له «أهلًا بك في وطنك إسرائيل» وصافحته

جولدا مائير بحرارة، وأمرت بتلبية كل مطالبه ولو كانت مستحيلة. وقالت لزامير: «شكرًا على هديتك الرائعة التي جلبتها لإسرائيل» وعلق الخائن قائلًا:

- لم أكن أحلم قبل اليوم بأكثر مما أنا فيه الآن. أشعر أنني بين أهلي، ويكفيني هذا الشعور سيدتي.

وأمرت له رئيسة الوزراء بمكافأة خاصة وقدرها خمسة وعشرون ألف دولار من مكتبها، بخلاف ما سيحصل عليه من أموال الموساد..

وفي الفيلا التي نزل بها كانت مفاجأة مدهشة.. إنها مليكة.. أجمل النساء اللاتي أسكرته، والعميلة المحترفة التي أوقعت به صيدًا سهلًا في شرك الجاسوسية لصالح الموساد. فجددت معه ذكرى الأيام الخوالي.. وأغدقت عليه من نبع أنوثتها شلالات من المتعة تمنحها له هذه المرة ليس بقصد تجنيده كما حدث في المغرب، بل لتكافئه على إخلاصه لإسرائيل.

لم تكن هناك فروق بين إحساس المتعة في الحالتين. فمليكة أنثى مدربة تعرف كيف تغرقه في بحورها.. وكلما أرادت انتشاله جذبها مرات ومرات. فما أحلى الغرق في بحور فاتنة مثيرة، وما ألذه من موت جميل!

ستة عشر يومًا بين ربوع إسرائيل زائرًا عزيزًا، عاد بعدها نبيل النحاس إلى أثينا بآلاف الدولارات التي كوفئ بها من إسرائيل.. والتي زادته شراهة في الخيانة، وعبقرية في جلب المعلومات.

فالمنطقة العربية تغلي كبركان على وشك الفوران والثورة.. والشعب العربي هديره مطالبًا بالثأر يصم الآذان، وحالة ترقب في إسرائيل وانتظار لصحوة المارد العربي.. الذي سقط يتلوى يبغي الوقوف والصمود.

كانت المهمة بالنسبة لنبيل أشد صعوبة برغم سنوات الخيانة والخبرة، وبرغم احتضان مصر له لم يحفظ لها الجميل بعدما تعهّدته طفلًا، ونشأته صبيًّا، وعلمته شابًّا، ونخرت الخيانة عظامه كالسوس يسعى لا علاج

له سوى الهلاك والفناء. فبادر على الفور في استكشاف النوايا تجاه إسرائيل، ونشط في جمع أدق المعلومات عن تسليح الجيش، والمعدات الحديثة التي تصل سرًّا من الاتحاد السوفييتي ودول الكتلة الشرقية، وانغمس في ملذاته بصحبة فتيات الليل، يجلب لهن بعض المناصب والعارفين بالأمور العسكرية.

ومن خلال حفلات المجون كانت المعلومات تتناثر هنا وهناك، فيلتقطها بعقل واعٍ يقظ ويدونها، ويبعث بها في الحال إلى مكتب الموساد في جنيف.

وعندما تلقى رسالة مشفرة من رؤسائه تطلب منه معلومات مركزة عن حركة ميناء الإسكندرية، لم يتأخر في تنفيذ الأمر، وأسرع إلى الإسكندرية للقاء صديق له يعمل في شركة تمارس نشاطات بحرية، وأغدق عليه بالهدايا الثمينة.. فانتبه صديقه لذلك وتساءل مع نفسه «لماذا»؟ وادعى جهله بأمور تجري بالميناء الحيوي.. فوجد إلحاحًا من الخائن يطلب منه تزويده بما يخفى عنه.. بحجة عمله كمراسل لوكالة أنباء دولية.

ولم يكن نبيل يدرك مطلقًا أن صديقه قد انتابته الشكوك.. فبادر على الفور بإبلاغ المخابرات المصرية ووضع العميل تحت المراقبة الشديدة.

وبعد نصر أكتوبر 1973 صدم الخائن لهزيمة إسرائيل. وفي روما عنفه ضابط الموساد واتهمه بالإهمال الجسيم الذي أدى لهزيمتهم الساحقة أمام العرب. وأقسم له الخائن أنه لم يقصر، ولكن الضابط كان ثائرًا ولم يستطع أن يخفي انفعاله وغضبه.

تخوف نبيل من فكرة الاستغناء عن خدماته للموساد.. لذلك عاد إلى مصر في الرابع عشر من نوفمبر 1973 حانقًا، وبداخله تصميم قوي على «تعويض» هزيمة إسرائيل، وتملكه بالفعل اعتقاد بأنه أهمل في عمله ولم يكن دقيقًا في نقل نوايا المصريين.. وبنشاط مجنون أخذ يبحث عن مصادر المعلومات وإجابات يحمل أسئلتها. وفي غمرة جنون البحث.. كانت المخابرات المصرية تلاصقه كظله وتريد ضبطه متلبسًا بالتجسس.

وفي 24 نوفمبر 1973 -بعد عشرة أيام من عودته من روما- اقتحمت المخابرات المصرية شقته في القاهرة، وضبطت أدوات التجسس كاملة، فلم يستطع الإنكار وانهار باكيًا أمام المحققين.. وأدلى باعترافات تفصيلية ملأت مئات الصفحات، وهو لا يصدق أنه سقط بعد 13 عامًا كاملة في مهنة التجسس التي أجادها واحترفها. وقدم إلى المحكمة العسكرية وظل لآخر لحظة ينتظر المفاجأة.. مفاجأة مبادلته والعودة إلى «وطنه إسرائيل».

لكن خاب ظنه وقتل أمله.. فالجيش المصري كان هو الغالب المنتصر في أكتوبر 1973.. والأسرى كانوا هذه المرة جنودًا إسرائيليين، وليس هناك أمل لمبادلته على الإطلاق.

لقد كانت إسرائيل في محنة ما بعدها محنة. ولا وقت هناك للتفكير في إنقاذ خائن باع وطنه رخيصًا، بحفنة من الدولارات، وبآهات غانية تتلوى بين أحضانه.

وكمثل جواسيس خونة آخرين اكتشف أمرهم.. أنكرت إسرائيل معرفتها به، وتجاهلته ليموت ذليلًا لا ينفعه بكاء الندم.. أو تقيه أموال الموساد من حبل المشنقة.

25

روكو مارتينو..

الجاسوس المستشار!



هذا الجاسوس يحمل لقبًا غريبًا هو «تاجر الجاسوسية»، إيطالي شهير في جميع الأوساط في

إيطاليا وأوربا الغربية كونه مستشارًا أمنيًّا، يملك اطلاعا على معلومات وتفاصيل استخبارية مفيدة للحكومات الأجنبية والصحفيين.

وحسب أحد مسؤولي المخابرات الفرنسية فإن مارتينو كان يأتي إليهم، وإلى غيرهم خلال تلك الفترة عارضا -عدة مرات- بيع معلومات استخبارية تمكن هو من الحصول عليها من قبل زملاء سابقين له في المخابرات الإيطالية عن يوغسلافيا السابقة.

لكن ذلك الموضوع في ذلك الوقت كان مثيرًا للقلق بالنسبة للفرنسيين بسبب أن قضية التهريب النووي لم تكن كما اعتاد روكومارتينو العمل فيه عادة. ومقابل مبلغ صغير، سمح مارتينو للفرنسيين بالاطلاع على محتويات وثائق الصفقة والاتفاق.

وفورًا تأكد التقنيون الفرنسيون من المخابرات الفرنسية -بشكل قاطع- أن تلك الوثائق التي كانوا يتعاملون معها مزورة.. كانت وثائق تلك الصفقة مختومة ومذيلة باسم الحكومة النيجيرية وقد تمت

سرقتها مع تفاصيل أخرى من السفارة النيجيرية في روما في وقت سابق من شهر يناير من العام ذاته.

وأشار مسؤولون في المخابرات الفرنسية إلى وجود تناقضات أخرى في تلك الوثائق، وبالتالي تم رفض الوثائق من قبلهم وأعيدت إلى مارتينو ولم يتم دفع أجوره التي اتفق عليها.

ولأن تساؤلات المخابرات الأمريكية كانت عاجلة وملحة، قامت المخابرات الفرنسية بإرسال 5 أو 6 أفراد ضمن فريق لمضاعفة سرعة التحقيق بهذا الخصوص إلى النيجر، لكن هؤلاء لم يجدوا أي دليل على تلك الصفقة أو البيع المفترض حسب تلك الادعاءات.

ومع ذلك، استمر مسؤولو وكالة مخابرات وزارة الدفاع الأمريكية، ونائب الرئيس الأمريكي ديك تشيني ومسؤولو مكتبه.. استمروا جميعا بالكلام بثقة كبيرة مؤكدين أن النظام العراقي كان يحاول الحصول على مواد نووية. شهر سبتمبر من العام 2002.

وأكد تقييم وكالة مخابرات وزارة الدفاع الأمريكة في تلك الأثناء أن العراق «كان ولايزال يحاول وبقوة الحصول على اليورانيوم أو الكعكة الصفراء.. أو كليهما»!

وفي نهاية شهر أكتوبر من العام 2003، قامت الـ «سي.آي.إيه» بإرسال مذكرة خارجية إلى نائب مستشار الأمن القومي الأمريكي في البيت الأبيض ستيفن هادلي طالبته بحذف الإشارات الخاصة باليورانيوم الإفريقي من خطاب الرئيس بوش عن العراق.

وفي وقت لاحق من الشهر ذاته، أصدرت المخابرات البريطانية تقريرًا يؤكد أن النظام العراقي يحاول بشكل حثيث الحصول على أسلحة فضلا عن سعيه للحصول على كميات كبيرة من اليورانيوم من إفريقيا. في ذلك الوقت كانت وكالة المخابرات المركزية الأمريكية متشككة حيال هذا الموضوع. حيث تحدث نائب مدير الوكالة جون مكلفلين أمام لجنة الاستخبارات الخاصة بمجلس الشيوخ الأمريكي، معربًا

عن اعتقاده أن البريطانيين قد يكونون بالغوا قليلا بخصوص محاولات العراق للحصول على اليورانيوم من إفريقيا.

وأضاف قائلًا: «لقد تمعنا في تلك التقارير ولم نجد أي شيء ذا مصداقية فيها»!!

وطوال شهر نوفمبر من العام ذاته، استمر مارتينو في محاولاته لبيع تفاصيل تلك الصفقة لكن هذه المرة لصحفية إيطالية تدعى إليسابتايوربا، حيث تعمل في مجلة بانوراما الإيطالية مقابل مبلغ 18000 دولار. لكن المحرر المسؤول عن الصحيفة يوربا طلب إليها الاتصال بالسلطات الأمريكية للتأكيد مما إذا كانت تلك الوثائق ذات مصداقية، الأمر الذي دفع الصحفية يوريا للتوجه إلى السفارة الأمريكية في روما، وإعطاء المسؤولين فيها نسخًا من الوثائق وباقي التفاصيل لكي تقوم السفارة بشحنها إلى قسم الأمن الإقليمي المختص في وزارة الخارجية الأمريكية.

وحسبما ذكر أحد مسؤولي المخابرات الأمريكية السابقين.. فإن الصحفية يوربا التي كتبت ذلك التقرير كانت هي من قام بإرسال هذه التفاصيل إلى القنوات الأمريكية الرسمية. من جانبها، قامت وزارة الخارجية بتمرير نسخة من تلك التفاصيل إلى وكالة المخابرات المركزية الأمريكية فضلا عن خبراء نوويين في وكالة الاستخبارات التابعة لوزارة الدفاع الأمريكية وغيرهم من الاختصاصيين في الطاقة ومجلس الأمن القومي في العاصمة واشنطن. وعلى ما يبدو، فإن أحدًا من هؤلاء لم يقم بالتحري عن دقة هذه التفاصيل أو الأسماء أو التواريخ!!

من جانبه، رفض مارتينو التحدث إلى جريدة لوس أنجلوس تايمز، لكنه تحدث إلى صحف أخرى قائلا إنه حصل على ذلك الملف عبر امرأة من داخل السفارة النيجيرية في روما وقد سبق لها العمل مع المخابرات الإيطالية وافترض أن محتوى هذه الوثائق والتفاصيل صحيح، وأكد أنه لم يعلم إلا نهاية العام 2002 بأن تلك الوثائق كانت مزيفة. وحسب التعبير الذي

استخدمه مارتينو أثناء حديثه مع جريدة ميلان فقد قال: «في تلك الأثناء، تم بصق الحبوب خارج الأفواه». وأضاف: «كان ذلك الملف يدور والتقارير الخاصة به تدور معه في كل مكان في العالم، فيما كان الرئيس بوش ورئيس الوزراء البريطاني يتحدثان علنًا عن محتويات تلك الوثائق دون الإشارة إليها بشكل مباشر. وعندما فتحت التلفزيون، لم أصدق ما طرق أذني من كلام وتصريحات»!!

وحسب ما جاء في مذكرة الـ «سي.آي.إيه» المقدمة إلى ستيفن هادلي فإن حذف هذه العبارة يعود إلى الجدل القائم المستمر حول ما يمكن أن تكون الحقائق عليه مما جاء من ذلك المصدر.. وأشارت المذكرة كذلك إلى أن مجلس الشيوخ الأمريكي تم إعلامه أن البريطانيين بالغوا في وصف تفاصيل هذا الموضوع. لكن رغم تلك المحاذير المرتبطة بهذا الموضوع، فإن وزير الخارجية الأمريكي - آنذاك - كولن باول ومستشارة الأمن القومي - آنذاك أيضًا - كوندوليسا رايس وغيرهما من كبار المسؤولين الأمريكيين

استمروا بالإشارة إلى موضوع نقل اليورانيوم الإفريقي علنًا عند الإشارة إلى العراق. ونهاية شهر نوفمبر من العام 2002 تلقت واشنطن تقريرًا آخر.

في ذلك الوقت، تلقى عميل أمريكي خاص يعمل في وحدة التحريات الجنائية البحرية الخاصة ويعمل في مجال مكافحة الإرهاب في ميناء مارسيليا الفرنسي، تلقى اتصالا هاتفيًا من رجل أعمال من إفريقيا الغربية أفاد فيه إلى أن هنالك 20 برميلا تضم مادة الكعكة الصفراء تقع -في حينها- في مستودعات في مدينة كوتونوي بانتظار أن يتم شحنها إلى العراق!!

ولم يطل الوقت حتى وصل تقرير الوحدة الجنائية البحرية إلى الـ «سي.آي.إيه» التي قامت بدورها بالاتصال بوكالة الأمن الداخلي الفرنسية ووزارة الدفاع الفرنسية فضلاعن المخابرات الفرنسية. وأرسل الفرنسيون فريق تحقيق آخر إلى إفريقيا للتأكد من تفاصيل هذا الموضوع في ذلك الموقع ومواقع أخرى.

ثم أكد مسؤول سابق في الـ «سي.آي.إيه» أن كلا الفريقين التحقيقيين قدم التأكيدات المتوفرة للحكومة الفرنسية بأن تلك المواد الموجودة في تلك المستودعات تقع تحت السيطرة الفرنسية ولم تكن معدة للإرسال لأي مكان آخر.في ذلك قام الملحق العسكري الأمريكي في أبيدجان عاصمة ساحل العاج بزيارة تلك المستودعات شهر يناير نهاية ذلك العام وتبين أنه لم يكن يحتوي شيئًا مهمًّا حسب ما توصل إليه محققون تابعون لمجلس الشيوخ الأمريكي.

لكن برغم هذه الأدلة، استمرت وكالة مخابرات وزارة الدفاع الأمريكية بالإشارة بصورة مستمرة إلى التقرير الأصلي الذي صدر عن وحدة التحقيقات الجنائية البحرية وحتى نهاية شهر يونيو من العام 2003.

«لقد حكمنا على الموضوع بأن من غير المحتمل جدًّا أن تكون النيجر قد تمكنت أو شرعت فعلا ببيع الكعكة الصفراء إلى بغداد خلال السنوات الأخيرة وأن تلك الوثائق كانت مفبركة، وأن التقارير المتعددة بهذا

الخصوص لم تكن تحتوي على أية أدلة موثَّقة تدل على فعلية أو حقيقة تلك الادعاءات».

واتهم سفير الولايات المتحدة لدى المنظمة الدولية - في حينها - جون نجروبونتي علنًا النظام العراقي بالسعي لشراء اليورانيوم من إفريقيا. وقد تعمد كادر وزارة الخارجية الأمريكية الذي ساعد على إعداد نص خطاب السفير نجروبونتي تعمد إهمال التحذيرات التي رددها مسؤولو قسم الاستخبارات في وزارة الخارجية الأمريكية وشرعوا بتوزيع وتعميم نسخ من الوثائق التي تقول إن العراق بذل جهودًا للحصول على اليورانيوم من النيجر. وتلى إشارات نجروبونتي ما تحذر به الرئيس بوش في خطابه اللاحق عن حالة الاتحاد والذي تنسب فيه تلك المعلومات إلى مصادر المخابرات البريطانية وحدها.

في خضم تلك الأحداث، طلبت منظمة الطاقة الذرية وهي مجموعة مراقبة نووية تابعة لمنظمة الأمم المتحدة ومقرها في فيينا، طلبت من كل من واشنطن ولندن أن يتم منحها بضعة أشهر للتمحيص والتحقيق

بمحتويات تقارير المسؤولين البريطانيين والأمريكيين العلنية التي اتهمت العراق بالسعي للحصول على اليورانيوم من أجل الأسلحة النووية.

وفي شهر فبراير من العام التالي 2003، قام المسؤولون الأمريكيون بإعطاء الوكالة الدولية للطاقة الذرية نسخًا من وثائق الصحفية الإيطالية بوربا التي كانت قد أرسلتها أصلا للأمريكيين للتحقيق من مصداقيتها قبل نشرها. بعد ذلك ببضعة أيام، قام جاك باويت الذي يرأس مكتب التحقيق الخاص بالطاقة النووية العراقية بعملية بحث عن الإشارات الواردة في تلك الوثائق في شبكة الإنترنت الدولية.

وحسب تصريح باويت الذي قال: «إن ما فاجأني أني تلقيت لاحقًا رسالة من الرئيس النيجري تعود للعام 2000، وتتضمن إشارات للدستور النيجيري عام 1965 في حين أني قرأت مقالا في إحدى الجرائد يتحدث عن دستور النيجر الذي تم تعديله في العام 1999»!! وبالتالي فقد شعرت بضرورة تغيير نقطة تركيزي في ذلك البحث لأتساءل.. هل هذه الوثائق

حقيقية فعلا!! عوضًا عن السؤال الخاص بكيف يمكن أن أمسك النظام العراقي متلبسًا؟!

ثم توصل باويت وكادره لاحقًا بشكل حاسم إلى أن العديد من الأسماء والتواريخ والعناوين وباقي المعلومات كانت خاطئة إلى حد بعيد. وفي السياق ذاته أبلغ محمد البرادعي مدير الوكالة الدولية للطاقة الذرية مجلس الأمن الدولي بتاريخ السابع من مارس عام 2003 بأن تلك الوثائق لم تكن ذات مصداقية.

بعد أسبوعين من ذلك الكلام بدأ الغزو الأمريكي للعراق. وبعد بدء الغزو بأسبوعين، أعلن مجلس المخابرات الوطني الذي يمثل كل وكالات المخابرات الأمريكية إقرارًا بالخطأ الاستخباري الخاص بهذا الموضوع حسب تقرير صدر عن مجلس الشوخ الأمريكي.

وحسب تلك المذكرة، فقد وردت إشارات مفادها «لقد حكمنا على الموضوع بأن من غير المحتمل جدًّا أن تكون النيجر قد تمكنت أو شرعت فعلا ببيع الكعكة

الصفراء إلى بغداد خلال السنوات الأخيرة، وأن تلك الوثائق كانت مفبركة وأن التقارير المتعددة بهذا الخصوص لم تكن تحتوي على أية أدلة موثقة تدل على فعلية أو حقيقة تلك الادعاءات».

وفي الشهر ذاته، صدر تقرير منفصل عن الـ «سي.آي.إيه» اكد أن الوكالة اعتمدت على مصدر معلومات تجسس آخر اعتمد على معلومات مزيفة وكان غير أهل للاعتماد عليه. وبلا شك فإن محطات الـ «سي.آي.إيه» المتواجدة في الدول الأجنبية عمدت إلى تقديم معلومات وتقارير خاطئة تماما بهذا الخصوص. كما لم تحسم وكالات المخابرات الأمريكية إلى الآن من الذي قام فعلا بتزييف تلك الوثائق. لكن المسؤولين يعتقدون أن الدافع وراء هذا الموضوع كان الربح المادي وليس جانبًا سياسيًا، الأمر الذي دفع مكتب التحقيقات الفيدرالي إلى الشروع بإجراء تحقيق موسع في هذا الموضوع.

كما أن من غير الواضح ماهية السبب الذي منح المخابرات البريطانية في سحب ادعاءاتها الخاصة

بمحاولة النظام العراقي شراء اليورانيوم من إفريقيا. من جانبهم، فإن مسؤولي المخابرات البريطانية يقولون إن معلوماتهم مستقاة من أكثر من مجرد مصدر واحد وأنهم لم يطلعوا على المعلومات المزيفة حتى شهر مارس من العام 2003.

وخلص تقرير برلماني بريطاني لاحق إلى أن التحليلات الاستخبارية البريطانية كانت ذات مصداقية.لكن مارتينو أبلغ صحيفة لاريبو بليكا الإيطالية الخريف الماضي أن مع خدمة التجسس الخاصة بجهاز المخابرات الإيطالي تعمدت تسريب قضية الكعكة الصفراء إلى المخابرات البريطانية، لكنها في الوقت ذاته لم ترد أن تبدو متورطة في الموضوع. أما السلطات الإيطالية فقد رفضت وأنكرت أن يكون لها أي دور في هذا الموضوع، أي قضية تلك الوثائق المزيفة وعملية تسريبها.

أما الأعضاء المشككون في البرلمان البريطاني، فقد استمروا في تحدي ما خلصت إليه الحكومة البريطانية مشيرين إلى التناقضات في التفسيرات البريطانية

الرسمية والامتعاض البريطاني من كشف المعلومات التي يمكن أن تؤيد موقف الحكومة بخصوص هذا الموضوع. في هذا السياق، أبلغ مسؤولون بريطانيون الوكالة الدولية للطاقة الذرية أنهم غير قادرين على مشاركة الوكالة بما لديهم من معلومات لأنها أتت من حكومة أخرى. كما أكد مسؤولون استخباريون أمريكيون أن البريطانيين رفضوا إعطاء المعلومات الاستخبارية الخام الخاصة بهذا الموضوع إلى الأمريكيين.

وحسبما صرح أحد المسؤولين السابقين في الـ «سي.آي.إيه» الذي علق بالقول.. لم يقدم البريطانيون لنا أي شيء أبدًا ورفضوا أن يقولوا أي شيء رغم أننا سألنا!!

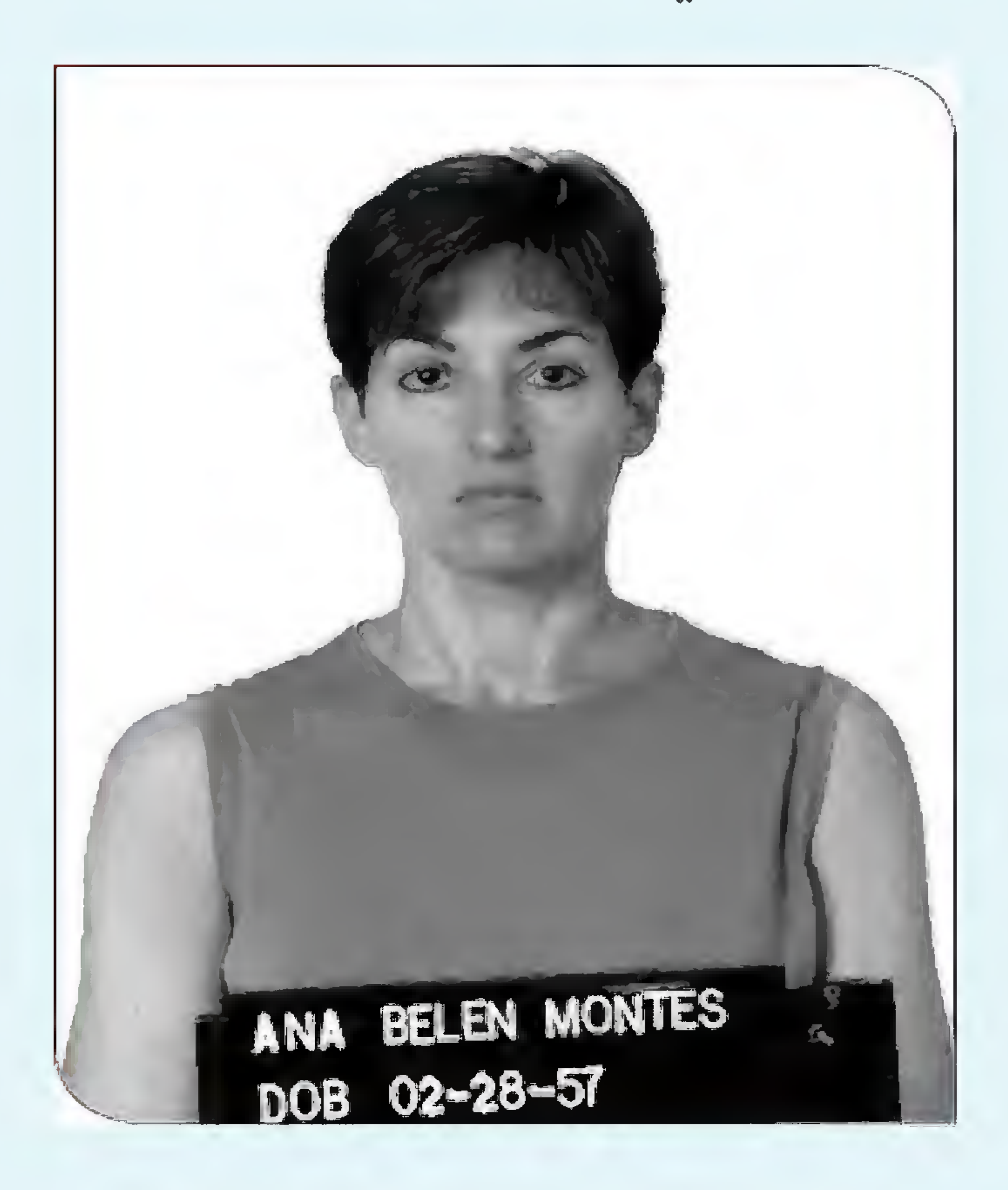
أما بعد غزو العراق، فقد خلص تقرير لجنة تقصي الحقائق التابعة لوكالة الـ «سي.آي.إيه» إلى أن صدام حسين تخلى عن برامجه لإنتاج الأسلحة النووية في العام 1991. ولم يجدوا كذلك أي دليل

يؤكد أن ذلك النظام حاول شراء اليورانيوم بعد ذلك التاريخ.

26

آنا مونيتس..

أغرب جاسوسة في التاريخ!



هي أغرب جاسوسة عرفها التاريخ.. سر الغرابة يكمن في كلمة واحدة هي أنها «متطوعة» يعني تتجسس مجانًا.. ولكن كلمة «متطوعة» بالكشف عنها في قاموس جاسوسية القرن الحادي والعشرين سنفاجأ بكل ما هو أغرب!!

كانت تعيش حياتها على الطريقة الأمريكية العادية المعروفة.. ولدت في ألمانيا لأب يعمل طبيبًا نفسيًا في الجيش الأمريكي، ألبرتو مونتيس، والأم، إيمليا مونتيس، كانت من أشد مؤيدي حقوق الشعوب اللاتينية في الأمريكتين، والأسرة كلها تمتد جذورها إلى أصول بورتوريكية، كانت تعيش في ضواحي كانساس ثم انتقلت لتستقر في ميريلاند، والتحقت بأفضل المدارس هنا وهناك إلى أن التحقت بالدراسة الجامعية ومنها إلى الجيش الأمريكي، وتحديدًا بوكالة الاستخبارات العسكرية الـ «دي. آي. إيه» التابعة لوزارة الدفاع الأمريكية.

بعد أيام من وقوع حادث سبتمبر، هب رجال مكتب التحقيقات الفيدرالية إلى منزلها وألقوا القبض عليها،

وهناك، حين جلست أمام المحققين، وجهت إليها تهمة التخابر لصالح دولة أجنبية، ظلت أسيرة التحقيقات وجلسات المحاكمة حتى 16 أكتوبر 2002م إلى أن فصل القاضي ريكاردو أوبرينا في قضيتها، وثبتت عليها تهمة «تسريب أسرار قومية إلى الحكومة.. الكوبية»! كارثة سياسية في نظر الأمريكيين.. كارثة ارتكبتها الأمريكية، من أصل بورتوريكي، آنا بيليز مونتيس واستحقت عليها 25 عامًا خلف الأسوار.

تقول آنا: «إنني مؤمنة أشد الإيمان بأن سياسة حكومتنا تجاه كوبا سياسة تتسم بالقسوة وتفتقر إلى العدل والإنصاف، بل وأقول إنها سياسة تبغض حقوق الجيرة أشد البغض».

أصدر قاضي مقاطعة كولومبيا، ريكاردو أوبرينا، المعروف بميوله الليبرالية حكمًا بالسجن 25 عامًا على آنا بيليز مونتيس، ومع ذلك، لم تطرف عين المتهمة ندمًا على التجسس ضد بلادها، بل وأعطت لنفسها والآخرين الفرصة كي تشرح الدوافع الحقيقية التي أقنعتها بالتجسس لصالح كوبا، الجار اللدود للولايات

المتحدة، حتى لو جاء هذا التجسس على حساب الأمن القومي لبلدها وبني جلدتها.

تقول آنا: «إنني مؤمنة أشد الإيمان بأن سياسة حكومتنا تجاه كوبا سياسة تتسم بالقسوة وتفتقر إلى العدل والإنصاف، بل وأقول إنها سياسة تبغض حقوق الجيرة أشد البغض، لقد شعرت بدافع أخلاقي ألزمني بمد يد العون لتلك الجزيرة كي تدافع عن نفسها، وتدرأ عنها كافة محاولاتنا نحن الأمريكيين إلى فرض قيمنا ونظامنا السياسي قسرا عليها».

إننا لم نظهر تجاه كوبا سوى التشدد والازدراء على مدار العقود الأربعة المنصرمة، إننا لم نحترم حق كوبا في أن تخوض بنفسها رحلتها نحو القيم المثالية التي ترتضيها لنفسها من عدل ومساواة، كما أنني لا أفهم الأسباب التي تجبرنا نحن الأمريكيين على الاستمرار في تعليم شعب كوبا كيفية انتخاب قادتهم، والتدخل في تحديد من يصلح لزعامة هذا الشعب ومن لا يصلح، والتدخل في تحديد القوانين التي تناسب أرضهم، لماذا لا نترك كوبا تسعى كما تريد وتشاء وراء

تحقيق رحلتها داخل بلادها نحو العدل والمساواة، تماما مثلما فعلت الولايات المتحدة على مدار قرنين كاملين؟».

ذاك كان «الدافع الأخلاقي» الذي حرك في «آنا» الرغبة والمبادرة كي تتجسس ضد بلادها لصالح قضية تراها في الأساس قضية أخلاقية، كانت كلمتها تلك مؤثرة، حتى إن القاضي أوربينا تأثر وتأثرت معه ملامح وجهه، فكان يصغي لكلامها وفي عينيه لمعة تركيز في كل ما تردده.

وبعد أن انتهت من شرح دوافعها، قال القاضي: «إذا كان بغير استطاعتك أن تحبي بلدك وتشعري نحوه بالولاء، فعلى الأقل كان يجب عليك ألا تلحقي به أي ضرر، لقد تعمدت الإساءة إلى الولايات المتحدة وإلحاق الأذى بها، وعليك أن تدفعي ثمن ذلك».

وفي الوقت الذي يرونها في أمريكا وكوبا جاسوسة فوق العادة، وتقول مستندات القضية إن آنا ربما تكون قد زارت الحكومة الكوبية عام 1985 في فترة

انتقالها للعمل في وزارة العدل الأمريكية ثم وكالة الاستخبارات العسكرية التي شغلت فيها موقعًا مرموقًا داخل هيئة كبار المحللين العاملين في مكتب شؤون نيكاراجوا، وعلى مدار 15 عامًا، نالت آنا ثقة أهلتها لأن تضع يديها على مستندات في غاية الحساسية، وتعرفت على شخصيات مرموقة في البنتاجون، بل وصارت واحدة من أهم الاستشاريين في الحكومة الأمريكية الذين يؤثرون في صناعة القرارات السياسية المتعلقة بالمسألة الكوبية.

ففي عام 1998م على سبيل المثال، كتبت آنا ورقة عمل في غاية الخطورة وقدمتها للبنتاجون، وقالت في تلك الورقة إن كوبا لم تعد مصدرًا لأي تهديد إستراتيجي ضد الولايات المتحدة، أكثر من ذلك أنها صارعت عام 1999م من أجل تفعيل الأصوات المنادية إلى عمل تدريبات عسكرية مشتركة بين الجانبين الأمريكي والكوبي وذلك كخطوة أولى نحو المصالحة وتأسيس علاقات ودية بين العدوين اللدودين، وهناك تقارير تؤكد أن الحكومة الأمريكية

كادت أن تأخذ بتلك التوصيات، في وقت كانت آنا قد كشفت للسلطات الكوبية عن شبكة من الجواسيس الأمريكيين الذين يعملون داخل الأراضي الكوبية، هذا إلى جانب تسريبها معلومات سرية ثمينة حول المداولات التي تدور بين صناع القرار السياسي في أروقة الحكومة الأمريكية حول المسألة الكوبية.

كانت «آنا» من وجهة نظر المراقبين الأمريكيين «حالة شديدة الخصوصية» قلما وجد لها مثيل في سجلات الجواسيس.

كانت قضية آنا قد أحيطت لفترة من الوقت بأستار التعتيم من جانب وسائل الإعلام الأمريكية، إلى أن فجرت جريدة «ميامي هيرالد تريبيون» القضية بنشرها تقريرًا تضمن محاضر القضية، وكان لهذا التقرير صدى واسع خاصة وأن الجريدة تنشر في ولاية ميامي التي تضم قطاعًا عريضًا من الجالية الكوبية الأمريكية، وهي جالية صاحبة تأثير ملحوظ في مسارات الحياة السياسية والاجتماعية بالولاية.

بدأت بعد ذلك كبريات الجرائد الأمريكية تتابع عن كثب مجريات القضية ومستجداتها، وإن كان الاهتمام بها قد خفت مع ارتفاع وتيرة الحديث عن الحرب على الإرهاب والحرب الأمريكية في أفغانستان ومسلسل الفضائح المالية لكبريات الشركات الأمريكية وفي مقدمتها شركة «إنرون».

ومع كل، لم تغب آنا عن عيون الرأي العام الأمريكي، وزاد اهتمام المراقبين بدراسة تلك القضية لأن صاحبتها، كما اعترفت وتبين من التحقيقات معها، لم تتقاضَ أي مقابل مادي من كوبا لقاء نشاطها في التجسس، فقد أصرت على أن تجسسها ضد بلادها انطلق من اعتبارات أخلاقية وأيديولوجية.

كانت «آنا» من وجهة نظر المراقبين الأمريكيين «حالة شديدة الخصوصية» قلما وجد لها مثيل في سجلات الجواسيس، فالطبيعي والسائد، في كافة تهم التخابر والتجسس، أن يكون الدافع الأول والأخير الذي يحرك الجاسوس هو المال، بل وسادت مقولة شهيرة تقول إن الجواسيس في كثير من الأوقات «لا يدركون

العواقب الأخلاقية والأيديولوجية للمهام التي يقومون بها».

مثلًا، عمل الأمريكي ألدريش إيمز، ضابط المخابرات الأمريكية، لصالح المخابرات الروسية وتقاضى من الروس ما قيمته 7.2 مليون دولار، ومثله روبرت هانسن «ضابط مكتب التحقيقات الفيدرالية» الذي عمل لحساب الروس أيضًا وتقاضى منهم 4.1 مليون دولار، وهناك آخرون كثيرون عملوا ضد مصالح أوطانهم لمجرد الدافع المالي، منهم رقيب القوات الجوية الأمريكي برايان ريجان وجورج تروفيموف -عقيد قوات الاحتياط الأمريكية- وديفيد بون -كان يعمل في وكالة الأمن القومي- وإدوين إيرل بيتس التابع لمكتب التحقيقات الفيدرالية وجوناثان جاي بولارد الضابط بالبحرية الأمريكية، والقائمة تطول، كل هؤلاء تجسسوا من أجل المال، إلا «آنا»، فكانت صاحبة موقف «أخلاقي» في تجسسها على أسرار بلدها!

وبعد الحكم عليها بخمسة وعشرين عامًا خلف القضبان، خرج وزير الخارجية الكوبي، فيليب بيريز، ليعرب عن أسفه الشديد لما ألم بصديقة الكوبيين «آنا»، وقال في جمع صحفي غفير: «إننا نكن لآنا بيليز مونتيس كل احترام وإعجاب، فأفعالها صدرت عن مبادئ أخلاقية وإحساس مرهف من جانبها بقيمة العدالة»، القاضي أوبرينا ذاته شعر بشيء من التعاطف مع هذه الجاسوسة «الأخلاقية»، غير أنه هب فيها غاضبًا وقال: «عدم الموافقة على سياسات الحكومة أمر، وخيانة العهد والتجسس ضد أمن البلاد أمر آخر».

أما فيدل كاسترو، فلم يفعل شيئًا ذا قيمة للدفاع عن «آنا» أو حتى الإشادة بالخدمات التي أسدتها للكوبيين، كل ما في الأمر أنه تحدث عام 2001 في أمر «شبكة الدبابير» التي ضمت خمسة جواسيس كوبيين تم إلقاء القبض عليهم في ولاية ميامي، وقال عنهم كاسترو: «هؤلاء الرفاق سجناء سياسيون في الولايات المتحدة، وسيعرف الرأي العام في كوبا والعالم أجمع ما يشعر به هؤلاء السجناء الآن،

وسيعرف ما يدور في أذهانهم، وسيقدر كثيرًا شجاعتهم وكرامتهم، سيتحول هؤلاء إلى قدوة يحتذي بها الشباب في كل أنحاء الدنيا»!

أما آنا، وعلى عكس أفراد هذه الشبكة، فقد واجهت موقفًا أصعب حين اتهمت بالتآمر والتخابر ضد بلادها، وكثيرون يشبهونها بقضية الأخوين روزنبيرج اللذين انتهى بهما الحال إلى منصة الإعدام عام 1950 لإفشائهما أسرارًا نووية إلى المعسكرالروسي.

ويظل أغرب ما في قضية الجاسوسة الأخلاقية آنا أن وزير الخارجية الأمريكي كولين باول مثل أمام الكونجرس الأمريكي عام 2001 وقدم تقريرًا اعترف فيه أن كاسترو أنجز الكثير لشعبه وأنه «لم يعد مصدر تهديد للولايات المتحدة».

ويقول المعلقون الأمريكيون إن باول ربما يكون قد استند في تقييمه لكاسترو إلى التقارير التي وضعتها آنا وقت أن كانت تعمل في وكالة الاستخبارات العسكرية، ورغم اتفاق قطاع عريض من المحللين

السياسيين الأمريكيين وتفهمهم للدوافع الأخلاقية التي اصطبغت بآراء آنا حول المسألة الكوبية، فإن الحكومة الأمريكية لم تفكر للحظة أن تتعامل بقدر من التسامح مع هذه الجاسوسة الأخلاقية!

27

الكولونيل فرانكلين..

جاسوس من نوع خاص!



هذا الجاسوس كان له الفضل في ظهور نوع جديد من الجاسوسية أطلق العالم عليه اسم «جواسيس القرارات السياسية» بمعنى معرفة أسرار القرارات التي تنوي القيادة السياسية اتخاذها بهدف التأثير عليها، وإعادة تشكيلها بما يخدم مصلحة الجهة أو الدولة التي يعمل الجاسوس لحسابها.

وكان سبب إطلاق هذا النوع من الجاسوسية فضيحة تجسس تفجرت في أمريكا عام 2002، ليست لحساب الروس كالعادة، أو حتى الصينيين، وإنما لحساب إسرائيل الحليف الموثوق به، والصديق المقرب لواشنطن!

ومما جعل الفضيحة بهذا القدر من الضجة هو تورط مقربين من الرئيس الأمريكي جورج بوش ومن بينهم نائبا وزير دفاعه دونالد رامسفيلد.

وتأتي فضيحة تجسس الكولونيل لورانس أنتوني فرانكلين محلّل الشؤون الإيرانية في وزارة الدفاع الأمريكية «البنتاجون» والذي حكم عليه بالسجن 12

سنة وسبعة أشهر بتهمة تمرير معلومات استخبارية سريّة إلى إسرائيل عن طريق عميلين في لجنة العلاقات الإسرائيلية الأمريكية «إيباك» هما ستيفن روزين، وكيث وايسمان. تأتي أيضًا في إطار ما يعرف الآن بـ«الحرب المعلوماتية» والتي يتنبأ الكثيرون وفي مقدمتهم البروفيسور الأمريكي «فريد ليفين» المؤسس والأب الروحي لهذه الحرب «بأن تكون أخطر مهمة يقوم بها الجاسوس في القرن الحادي والعشرين، لأن الجواسيس هم الأصل في حرب المعلومات، وأنها من الممكن أن تسهم في تفجير صراعات هائلة، أو الدفع باتجاه شن حروب طاحنة».

تسبب لورانس فرانكلين، في أكثر من فضيحة وليس فضيحة واحدة، أخطر ما فعله هو فضح النشاط التجسسي للمحافظين الجدد في أمريكا لحساب إسرائيل، فموظف البنتاجون الكبير، الذي دأب على تقديم معلومات سرية إلى ستيفن روزين وكيث فايسمان العاملين في لجنة العلاقات الأمريكية -

الإسرائيلية «إيباك» لكي يمررانها إلى جهاز المخابرات الإسرائيلي «الموساد».

وقد عمل روزن منذ عام 1982 كمدير لشؤون السياسات الخارجية في «إيباك» أقوى مؤسسات اللوبي الإسرائيلي في الولايات المتحدة. أما وايزمان عمل منذ عام 1993 في منصب كبير محللي شؤون الشرق الأوسط في «إيباك».

ذكر مسؤولون استخباراتيون أمريكيون لمجلة «إكزكتف إنتلجنس ريفيو» أن قضية «إيباك-فرانكلين» أو «فرانكلين - جيت» تكشف عن أسلوب جديد في العمليات التجسسية اتبعته الاستخبارات الإسرائيلية في أعقاب فضيحة تجسس جوناثان بولارد الكارثية في منتصف الثمانينيات.

وكان بولارد يعمل محللا في استخبارات البحرية الأمريكية حين تم اعتقاله وهو يهرب آلاف الوثائق السرية من وزارة الدفاع الأمريكية «البنتاجون»، ليمررها إلى وحدة استخبارات إسرائيلية يقودها مدير

العمليات الأوربية في الموساد الإسرائيلي رافي أيتان، الذي كان من أقرب المقربين لرئيس الوزراء المقبور أريبل شارون.

وتذكر المصادر الاستخباراتية الأمريكية أنه كنتيجة للنكسة التي أوقعتها فضيحة بولارد، فإن إسرائيل حولت عملياتها التجسسية، التي تستهدف الولايات المتحدة إلى مراكز البحث ومنظمات اللوبي الإسرائيلي مثل «إيباك» التي لا تزال لديها ارتباطات موثقة بالمسؤولين في الحكومة الأمريكية.

لكن ما لم يتوقعه الإسرائيليون وعملاؤهم في «إيباك» هو أن عملياتهم ستكون تحت مراقبة دقيقة من قبل مكتب المباحث الفيدرالي «إف. بي. آي» وأجهزة حكومية أخرى على الأقل خلال السنوات الست الأولى من القرن الحادي والعشرين.

فعلى مدى سنوات طويلة، ظل مسؤولو مكتب التحقيق الفيدرالي «إ ف. بي. آي» يلهثون لتحديد مصدر تسرب وثائق أمريكية سرية لإسرائيل عن

طريق وسيط هو «إيباك»! وانتهت رحلة البحث بفضيحة من العيار الثقيل أطلق عليها الأمريكيون «فرانكلين - جيت» نسبة إلى لورانس فرانكلين، الذي فجر قضية التجسس الإسرائيلي على أمريكا.

وأخطر ما كشفت عنه التحقيقات، هو أن هذا الرجل لم يكن وحده، وأن هناك شخصيات أمريكية ذوي حيثيات، أو بمعنى آخر رؤوس كبيرة من المقربين للرئيس بوش نفسه متورطة في الأمر.

كما أعادت قضية فرانكلين إلى الأذهان قضية «جوناثان بولارد» اليهودي الأمريكي الذي حكم عليه عام 1987 في الولايات المتحدة بالسجن المؤبد بتهمة التجسس لحساب إسرائيل.

وبولارد المحلل السابق في البحرية الأمريكية كان قد قدم لإسرائيل -فيما بين شهر مايو عام 1984 واعتقاله في شهر نوفمبر عام 1985- آلاف الوثائق الدفاعية السرية المرتبطة بنشاطات تجسسية للولايات المتحدة، خصوصًا في الدول العربية. وأثارت هذه

الفضيحة أزمة خطيرة بين تل أبيب وواشنطن. وتعهدت إسرائيل -وقتذاك- بوقف التجسس على الولايات المتحدة.

هذا هو ما دفع كبير محققي الـ «إف. بي. آي» في القضية «ديف زادي» إلى أن يقول -وقتها- في برنامج «60 دقيقة» الشهير، والذي تقدمه محطة تلفاز «سي. بي. إس»: «إن ما أراه أغرب من الخيال.. إنني لم أر جاسوسًا في حياتي تمكن من سرقة رئيس دولة عظمى رغم أنه ليس من طاقم الرئاسة».

وفتحت قضية «فرانكلين - جيت»: ملفًّا أكثر من شائك، يتعلق بحدود العلاقة بين تل أبيب، وحليفتها واشنطن، دفعت الأمريكيين -كما ذكرت صحيفة «لوس أنجلوس تايمز» الأمريكية وقتها- للتساؤل: «هل هذه العلاقة -رغم خصوصيتها- تسمح بأن يتجسس الحلفاء على أقرب حلفائهم؟ وهل يمكن أن نسمح كأمريكيين بأن تأتينا الضربة من صديق؟ وهل التجسس لحساب إسرائيل أقل أهمية من حماية أسرار الولايات المتحدة؟».

وحذرت صحيفة أمريكية أخرى هي «نيويورك تايمز» من طمس الجريمة. وقالت: «إن العشرات من عمليات التجسس لصالح إسرائيل، التي حولها مكتب التحقيق الفيدرالي إلى وزارة العدل، حُفظت في الأدراج».

الغريب أن أقطاب المحافظين الجدد حاولوا جاهدين طمس معالم الجريمة، ولكنهم عجزوا عن بلوغ ذلك بعد تفجر الفضيحة على الملأ، وتوريط إدارة بوش فيها. فمثلًا، دافع مايكل ليدين أحد منظري المحافظين الجدد، وأكبر دعاة الحرب على العراق محاولًا وقف التحقيقات في البداية زاعمًا أنه «لا يوجد أساس للتهمة». رغم أن فرانكلين سرب كل أنواع الأسرار حتى المقدسة مثل «مسودات توجيهات الرئيس» و«التقارير السرية لوكالة الأمن القومي الأمريكي».

وقد اتسعت التحقيقات لتشمل نائبيْ دونالد رامسفيلد وزير الدفاع بول وولفوفيتز ودوجلاس فايث بالإضافة إلى ريتشارد بيرل وستيفن براين وعاملين آخرين في مكتب الخطط الخاصة في البنتاجون ممن ينتمون للمحافظين الجدد. ففرانكلين من المقربين لدوجلاس

فيث، كما تربطه علاقات وثيقة ببول وولفويتز، وهما مهندسا الحرب على العراق.

ولعل هذا هو ما دفع كبير محققي الـ «إف. بي. آي» في القضية «ديف زادي» إلى أن يقول -وقتها- في برنامج «60 دقيقة» الشهير، والذي تقدمه محطة تلفاز «سي. بي. إس»: «إن ما أراه أغرب من الخيال.. إنني لم أر جاسوسًا في حياتي تمكن من سرقة رئيس دولة عظمى رغم أنه ليس من طاقم الرئاسة».

وجاء الكشف عن فرانكلين بالصدفة، عندما كانت عناصر مكتب التحقيقات الاتحادي الفيدرالي ترصد «ناؤور جيلون» المستشار السياسي للسفارة الإسرائيلية، وأحد أعضاء «إيباك» خلال تناولهما الغداء، ولاحظت توجه فرانكلين فجأة إلى مائدتهما ومشاركتهما الطعام، مما جعله هدفًا للمراقبة.

وأشارت مجلة «نيوزويك» الأسبوعية الأمريكية -التي كشفت وقتذاك بعض تفاصيل الفضيحة- إلى أن مكتب التحقيقات الفيدرالي كان يراقب الإسرائيليين، بعد أن

اشتبه بأن السفارة الإسرائيلية في واشنطن حصلت على معلومات سرية من مسؤولين بالبنتاجون بشأن محاولات طهران الحصول على أسلحة نووية. وكشفت التحقيقات التي أجراها المكتب أن فرانكلين حاول نقل وثيقة سرية لأحد الشخصين، اللذين تناول معهما وجبة الغداء ورفض هذا الشخص تسلم الوثيقة وطلب من فرانكلين أن يوضح له فحواها شفهيًا.

قام مكتب التحقيقات الفيدرالي «إف بي آي» بتفتيش مكاتب اللوبي الإسرائيلي «إيباك» وصادر وثائق تكشف تورط اللوبي في نقل معلومات أمريكية سرية إلى جهات إسرائيلية.

وقام مكتب المباحث الفيدرالي في يونيو 2004، بمواجهة فرانكلين بالأدلة الدامغة حول نشاطاته التجسسية، ووافق فرانكلين على التعاون مع الحكومة. ومنذ ذلك الحين أصبحت جميع اجتماعاته اللاحقة مع المسؤولين في «إيباك» مراقبة من قبل «إف. بي. آي»، حتى أغسطس 2004، حينما زارت المباحث الفيدرالية كلًا من روزن ووايزمان. واستمر

روزن ووايزمان بتمرير المعلومات السرية، التي يحصلان عليها من فرانكلين، إلى صحفيين أمريكيين بعينهم، وموظفين في السفارة الإسرائيلية.

وقد كانت لدى فرانكلين مشاكله وسوابقه، بسبب تعاونه مع مسؤولي «الموساد» الإسرائيلي، حتى قبل أن يبدأ العمل في «البنتاجون». ففي بداية عام 2001، كضابط في القسم الخاص بإيران في مكتب سياسات الشرق الأدنى وجنوب آسيا في «البنتاجون»، تحت إمرة مساعد وزير الدفاع دوجلاس فايث ونائب مساعد وزير الدفاع وليام لوتي، الذي تم نقله وزرعه هناك من مكتب نائب الرئيس ديك تشيني.

وكان فرانكلين قد قام في التسعينيات بجولتين في الشرق الأوسط، باعتباره ضابط احتياط في القوة الجوية الأمريكية كجزء من خدمته في السفارة الأمريكية في إسرائيل في مكتب الملحق الجوي. في جولته الثانية تم طرد فرانكلين من قبل الملحق الجوي بعد بضعة شهور بسبب تكرر حالات قيامه بعقد اجتماعات غير مرخص بها مع ضباط في الاستخبارات

الإسرائيلية. كان فرانكلين أيضًا مرافقًا مايكل ليدين الذي تورط في فضيحة (إيران - جيت).

وعلى الفور قام مكتب التحقيقات الفيدرالي «إف بي آي» بتفتيش مكاتب اللوبي الإسرائيلي «إيباك» وصادر وثائق تكشف تورط اللوبي في نقل معلومات أمريكية سرية إلى جهات إسرائيلية منذ عامين، أي قبل فترة طويلة من تفجر الفضيحة الأخيرة. وحسب الصحيفة، فقد بدأ مكتب «إف بي آي» التحقيق في محاولة لفحص ماهية المعلومات التي تم نقلها من وكالة الأمن القومي الأمريكي لإسرائيل عن طريق «إيباك».

وقد أشار الصحفي الأمريكي بجريدة «نيو يوركر» سيمور هيرش، الذي كشف فضيحة «تعذيب المعتقلين بسجن أبو غريب» إلى أن مكتب التحقيق الفيدرالي، الذي اكتشف علاقة فرانكلين بريتشارد بيرل، ودوجلاس فايث، وبول وولفويتز، كان قد ضبط من قبل بيرل أبرز دعاة الحرب على العراق في أوائل السبعينيات، وهو يجري اتصالات بالسفارة الإسرائيلية في واشنطن.

وأضاف أن بيرل كان قد تعاون أيضًا في عام 1996 مع كل من دوجلاس فيث والـ «ديفيد ورمسور»، في إعداد تقرير لبنيامين نتنياهو الذي كان يتولى منصب رئيس الوزراء الإسرائيلي وقتها، تحت عنوان «نحو إستراتيجية جديدة لأمن المنطقة».وكان الثلاثة قد حثوا نتنياهو على شجب اتفاقات «أوسلو»، وتبني إستراتيجية جديدة تضمن السيطرة الإقليمية لإسرائيل على المنطقة.

أما وولفوفيتز والذي كان يعمل في سنة 1978 لصالح وكالة السيطرة على السلاح والحد من التسلح، فقد تعرض لتحقيق معه بتهمة تمرير وثيقة سرية عن بيع أسلحة أمريكية لبلد عربي إلى الحكومة الإسرائيلية عبر وسيط من «إيباك». وكرر وولفويتز هذا عام 1990 وهو وكيل وزارة الدفاع مع الوزير ديك تشيني آنذاك، فقد جرى تحقيق أظهر أن وولفويتز بذل جهدًا محمومًا داخل الوزارة لبيع إسرائيل صواريخ من طراز «إي. آي. إم-9-إم».

وفي التاسع من يونيو 2005، أقر لورانس فرانكلين أمام المحكمة بذنبه في التهم الموجهة إليه، وهي تسريب معلومات سرية إلى دبلوماسي إسرائيلي ومسؤولين اثنين في مجموعة ضغط موالية لإسرائيل، ونقل عدة مرات معلومات سرية تتعلق بدولة في الشرق الأوسط لم تحدد قد تكون إيران، وحول القوات الأمريكية في العراق إلى مسؤولين اثنين في «إيباك» ولمستشار سياسي في السفارة الإسرائيلية في واشنطن، وحيازة وثائق سرية بشكل غير شرعي في منزله في كيرنيسفيل غرب فيرجينيا.

وحين سأله القاضي «تي. إس. ايليس» في محكمة ألكسندريا غرب فيرجينيا ما إذا كان سيدفع ببراءته، أو سيقر بذنبه، في التهم الموجهة إليه، رد لورنس فرانكلين بكلمة واحدة «مذنب».. وبرر فرانكلين أمام المحكمة تجسسه بـ «استيائه» من سياسة الحكومة الأمريكية في الشرق الأوسط.

وقال إنه كان يأمل في أن يتمكن المسؤولون في «إيباك» من التأثير على هذه السياسة بفضل

اتصالاتهم مع مجلس الأمن القومي وأقر بأنه كان يعلم بأن هذين الشخصين، اللذين كان على اتصال معهما بين عامي 1999 و2004 لم يكونا مخولين لتسلم معلومات سرية.

وبخصوص الدبلوماسي الإسرائيلي، أقر فرانكلين بأنه كان يعلم بأن هذا الرجل يعمل في سفارة إسرائيل. وقد التقى الرجلان عدة مرات بين 2002 و2004 في مطعم ومرة في ناد رياضي يرتاده الدبلوماسي. وأقر لورنس فرانكلين بأنه سلمه معلومات سرية لكنه اعتبر أنه تلقى في المقابل معلومات كان لها قيمة أكثر!

حدد القاضي موعد جلسة النطق بالحكم في العشرين من يناير عام 2006. بتهمة «التآمر بهدف نقل معلومات متعلقة بالدفاع الوطني إلى أشخاص غير مخولين بتسلمها».

وفي هذه الجلسة، التي حملت نهاية القصة المثيرة، حكم على الكولونيل لورنس فرانكلين محلل الشؤون الإيرانية في البنتاجون، بالسجن لمدة اثني عشر عامًا

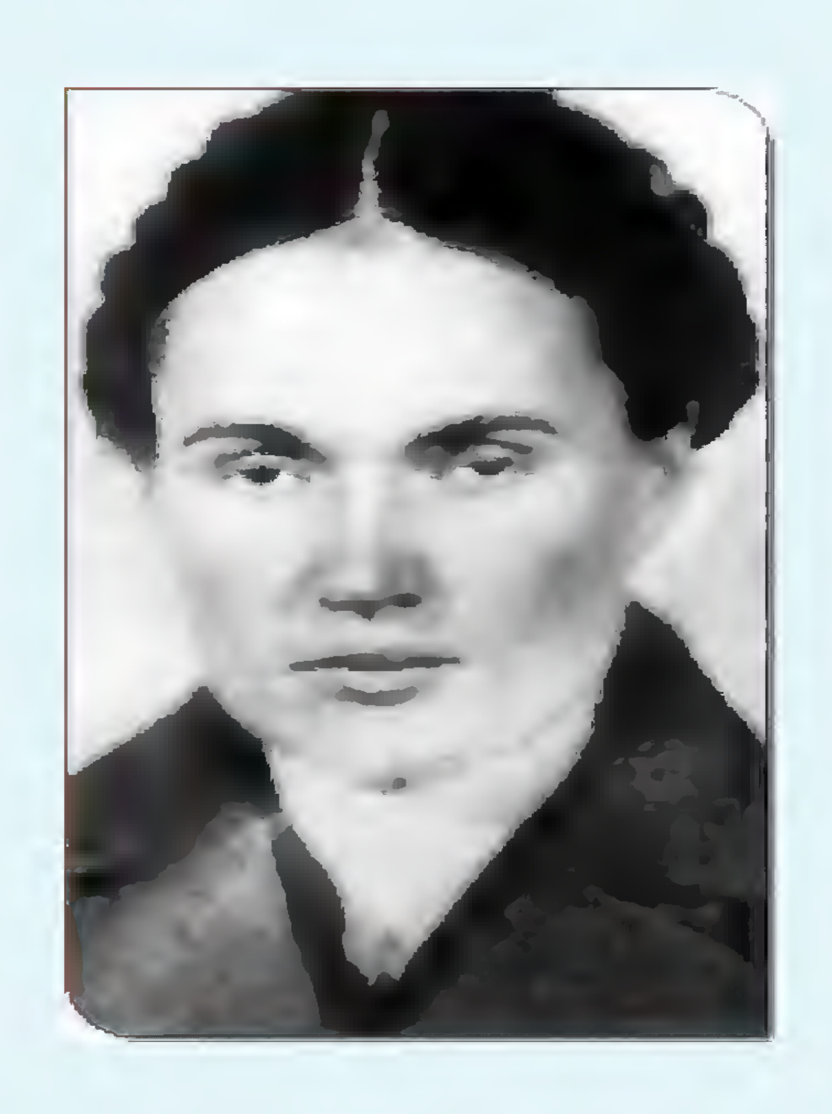
وسبعة أشهر، بتهمة تسليم معلومات استخبارات سرّية إلى عميلي «إيباك».

وجاءت حيثيات الحكم في 26 صفحة، ووفقًا للإدانة الرسمية فإن المكالمات الهاتفية التي كان يقوم بها روزن وهو في طريقه إلى لقائه مع فرانكلين كانت مراقبة من قبل مكتب المباحث الفيدرالية، خلال الفترة من الثاني عشر من شهر فبراير عام 2003 إلى التاسع من شهر يوليو عام 2004، حيث أجرى فرانكلين عشرات المكالمات الهاتفية مع عميليْ «إيباك» وقام مرة واحدة على الأقل بإرسال وثيقة عبر الفاكس من مكتبه في البنتاجون إلى منزل روزن.

28

يليزافيتا زاروبينا..

جاسوسة برتبة كولونيل!



يليز زاروبينا المعروفة التي كانت تحمل رتبة كولونيل في الاستخبارات السوفييتية أيضًا بلقبيها السريين

«فاردو» و«ليزا جورسكايا» إحدى النجمات في الاستخبارات الخارجية الروسية.

مارست زاروبينا العمل السري على مدى 20 سنة. وأوفدتها الاستخبارات السوفييتية في ثلاثينيات القرن الماضي إلى باريس، حيث أقامت التعاون مع الجنرال القيصري السابق والملحق العسكري السابق في لندن بيوتر دياكونوف العنصر في الاستخبارات السوفييتية الذي كانت لديه علاقات واسعة في وسط المغتربين الروس في فرنسا، والذي ساعد زاروبينا في الحصول على المعلومات عن عمليات المخابرات الفرنسية المضادة للسوفييت.

عملت زاروبينا إبان الحرب العالمية الثانية في ألمانيا النازية، حيث أقامت علاقة مع فيللي ليمان المعروف كبرايتنباخ الذي استوحت منه تاتيانا ليوزنزفا صورة رجل المخابرات السوفييتي العامل داخل القيادة الألمانية العقيد شتيرليز في فيلمها المعروف «12 لحظة في الربيع».

وكان برايتنباخ يترأس شعبة مكافحة التجسس الشيوعي في جهاز المخابرات النازية «الجستابو».

وأنقذ أكثر من مرة شبكة تجسس سوفييتية من الإحباط والفشل. كما أنه زود زاروبينا بالمعلومات السرية حول صواريخ «فاو» المصنعة حديثًا في ألمانيا. وتمكنت زاروبينا من تجنيد موظف في وزارة الخارجية الألمانية الذي زودها بالشيفرات الألمانية السرية.

عملت زاروبينا بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية في السفارة السوفييتية بواشنطن حيث ترأست شبكة واسعة للعملاء الذين زودوها بمعلومات قيمة. ولم تواجه على مدى حياتها الطويلة في الاستخبارات ولا إحباطًا واحدًا.

ولدت زاروبينا عام 1900 في إقليم بيسارابيا (مولدوفا حاليا) الروسي بعائلة تاجر يهودي. ودرست في جامعتي باريس وفينا في كلية الآداب حيث

أتقنت اللغات الرومانية والروسية والإنجليزية والفرنسية والألمانية و الإسبانية.

والتحقت في عام 1923 بالحزب الشيوعي النمساوي. ثم حصلت على الجنسية السوفييتية وعملت مترجمة في السفارة السوفييتية في فينا. في عام 1928 تزوجت من رجل المخابرات السوفييتي فاسيلي زاروبين وتعرفت بأسطورة المخابرات السوفييتية وعاشق المغامرات يعقوب بلومكين واصطحبته إلى تركيا لتطلع على أسرار علاقته بليف (ليون) تروتسكي أحد زعماء البلاشفة الذي طرده ستالين من الاتحاد السوفييتي لكونه زعيمًا للمعارضة المعادية له. فأحبها بلومكين دون أن يتوقع أن عشيقته تحكي قصصه للمخابرات السوفييتية. وأعدم بلومكين على أيدي زعمائه في المخابرات.

وبعد صدور مذكرات بافيل سودوبلاتوف أحد زعماء المخابرات السوفييتية في عهد ستالين تحت عنوان «عمليات خاصة» ذاع صيت زاروبينا كعنصر هام في شبكة التجسس السوفييتية في الولايات المتحدة

التي لعبت دورًا بارزًا في الحصول على أسرار القنبلة الذرية الأمريكية.

ترقّت زاروبينا إلى رتبة عقيد في المخابرات السوفييتية وذلك للمرة الأولى في تاريخ أجهزة الأمن السوفييتية.

لقيت نجمة المخابرات المرأة الأسطورية زاروبينا حتفها في 14 مايو عام 1987 في حادث مروري بموسكو.

29

ولفجانج لوتز..

«جاسوس الشامبانيا»!



ن عام 1965 من أسوأ الأعوام التي مرت على المخابرات الإسرائيلية، ففي شهر يناير من ذلك العام

تم إلقاء القبض على الجاسوس الإسرائيلي إيلي كوهين في دمشق، ومثل أمام المحكمة التي قضت بإعدامه شنقًا في 18 مايو من نفس العام، وفى أول مارس من ذلك العام تم إلقاء القبض على الجاسوس الإسرائيلي في مصر فولفجانج لوتز الذي ظل يدعي حتى النهاية أنه مواطن ألماني، وحكم عليه بالسجن المؤبد، كما حكم على زوجته فالنزواد بالسجن لمدة ثلاث سنوات.

فولفجانج لوتز يُلقَّب بـ «جاسوس الشمبانيا»، وسبب التسمية هو أنه بعد أن افتتح ناديًا لركوب الخيل في المعادي، أصبح يستورد كميات كبيرة من الشمبانيا الفرنسية ويقيم الحفلات ويغدق فيها على ضيوفه من المدنيين والعسكريين المقربين من السلطة، ومن هنا أسماه المحققون المصريون بـ «جاسوس الشمبانيا».

وبعد 43 سنة من سقوطه في قبضة المصريين، وفي عام 2008، عُرض في إسرائيل فيلم بعنوان «جاسوس الشمبانيا»، والغريب أنه فاز في نفس العام بجائزة أفضل فيلم تسجيلى فى إسرائيل.

واعتمد الفيلم على حقائق موثقة، تتفق مع الرواية المصرية، وتعترف بما جاء بها.

كما ظهر فيه ضباط سابقون وحاليون في الموساد، تحدث بعضهم باسمه الحقيقي، فيما استخدم العملاء الذين لا يزالون في الخدمة أسماء مستعارة.

ولد هذا الجاسوس في مانهايم بألمانيا عام 1921 لأم يهودية وأب ألماني مسيحي، والاثنان كانا يعملان بالمسرح، ويبدو أن لوتز ورث عنهما موهبة التمثيل التي وظفها بصورة جيدة في مهمته، ولأنه من عائلة خليط بين المسيحية واليهودية لم يتم ختانه في طفولته، الأمر الذي سهل عليه في المستقبل بناء قصة الغطاء.

فى عام 1931 وقع الطلاق بين والديه، ومع تولي هتلر شؤون الحكم في ألمانيا عام 1933 هاجر لوتز مع أمه إلى فلسطين وعملت الأم بالتمثيل في مسارح تل أبيب، في حين انصرف فولفجانج الذي اتخذ لنفسه اسمًا عبريًا هو «زئيف جور أريه» إلى الدراسة

في قرية بن شيمن للشبيبة، وهناك بدأ عشقه للخيول وتفوقه في ركوبها، وفى الخامسة عشرة من عمره انضم إلى الهجاناه وكان من بين المهام المكلف بها الدوران حول المدرسة راكبًا حصانه، وتأمين الأتوبيس المدرع الذي استخدمته المدرسة المعزولة لنقل طلابها من وإلى منازلهم.

فى عام 1939 ومع اندلاع الحرب العالمية الثانية تم تجنيد لوتز في الجيش البريطاني الذي كان في حاجة إليه لمعرفته باللغات الألمانية والعبرية والإنجليزية، وتم إرساله إلى مصر وإلحاقه بوحدة المخابرات التي تقوم بالتحقيق مع أسرى الحرب الألمان القادمين من جبهة شمال إفريقيا. وبقي في مصر طوال سنوات الحرب، ثم عاد إلى فلسطين وعمل في تهريب السلاح لمنظمة الهجاناه وفى حرب فلسطين 1948 كان برتبة نقيب في الجيش الإسرائيلي، ولعب دورًا في المعارك التي دارت في منطقة اللطرون، وفى حرب السويس 1956 كان يقود وهو برتبة رائد كتيبة مشاة، ثم التحق بعد ذلك بسلاح الطيران وتزوج من رفقه وهي

من أصول مقدسية وأنجب منها عوديد «أودى» الذي سوف نروي حكايته فيما بعد.

بعد حرب السويس التي تطلق عليها إسرائيل «عملية قادش» طلبت منه المخابرات العسكرية الانضمام إليها، وفى ذلك الوقت كانت الوحدة 131 التابعة للمخابرات العسكرية مسؤولة عن تشغيل العملاء في الخارج، وكان لوتز في نظر قادتها مناسبًا تمامًا نظرًا لمظهره الآرى (كان أشقر أزرق العينين) واستعداده للمغامرة والمخاطرة وموهبته الطبيعية في التمثيل.

كانت الخطة تقضي بزرعه في مصر، البلد الذي يعرفه جيدًا بهدف جمع المعلومات عن تسليح عبد الناصر بمساعدة السوفييت، وكان مشغلوه يأملون في أن يستطيع اختراق أوساط المستشارين الألمان الذين كان أغلبهم من النازيين السابقين ووجدوا ملجأ لهم في مصر وعملوا على مساعدة عبد الناصر في برنامج الصواريخ.

وفى عام 1959 أرسلته المخابرات العسكرية الإسرائيلية إلى ألمانيا بهدف بناء قصة غطاء لنفسه تمهيدًا لإرساله إلى بلد الهدف مصر، ووفقًا لقصة الغطاء كان لوتز رجل أعمال له ماضيه النازي، فقد كان ضابطًا في الفارماخت وخدم في شمال إفريقيا وعاش ما يقرب من 11 عامًا في أستراليا، حيث عمل هناك بتربية الخيول وعاد إلى مصر من أجل أن ينشئ فيها ناديًا لركوب الخيل.

وكانت الخلفية الخاصة بماضيه كضابط نازي تقوم على أساس عدم ختانه من ناحية ومعرفته الكاملة بكل ما يتعلق بالضباط والجنود الألمان، الذين خدموا بالفعل في شمال إفريقيا من خلال خبرته في استجواب مئات الأسرى الألمان أثناء خدمته في الجيش البريطاني، فقد كان يمكنه بسهولة إذا ما سئل أن يحدد أسماء وأرقام الوحدات، بل حتى أسماء الجنود والضباط والحكايات الشخصية لرفاق السلاح.

كما جاءت قصة إنشاء نادى ركوب الخيل بهدف تمكين لوتز من إقامة علاقات وثيقة مع مجتمع الأغنياء فى

مصر من ضباط جيش ورجال حكومة ممن تدور حياتهم الاجتماعية حول نوادي ركوب الخيل.

المهم أنه في ديسمبر 1960 وصل لوتز إلى القاهرة وبدأ على الفور في تكوين شبكة علاقات اجتماعية تساعده على أداء مهمته، فأخذ يدور على نوادي ركوب الخيل ويتعرف على رجال حكومة وجيش وشرطة ويغدق عليهم الهدايا الثمينة ويستقبلهم في منزله بكل الترحاب.

وفى يونيو 1961 وبعد سنة ونصف السنة تقريبًا في القاهرة سافر إلى باريس لأخذ التعليمات من رؤسائه، وهناك زودوه بجهاز إرسال لنقل الرسائل وبمبلغ ضخم من المال، وخلال سفره بالقطار في طريق العودة من باريس تعرف بـ النزواد أو تيدي وهي سيدة ألمانية وقع في حبها من أول نظرة، وبعد قصة حب قصيرة قرر أن يتزوجها وأن تصحبه إلى مصر دون أن يتشاور في ذلك مع رؤسائه في الموساد (فى ذلك الوقت انتقلت مسؤولية الوحدة 131 التابع لها من المخابرات العسكرية إلى الموساد) وعلى الرغم من أنه كان

متزوجًا بالفعل من امرأة أخرى في إسرائيل (رفقه) مما يخالف الديانة اليهودية التي تمنع تعدد الزوجات.

خاف رجال الموساد وفكروا في إلغاء المهمة، لكن في النهاية قرر رئيس الموساد إيسار هرئيل الموافقة على استمرار لوتز في مهمته وانضمام زوجته الجديدة فالنزواد إليه في مصر، وخلال فترة قصيرة عرفت عمله الحقيقي وأخذت تساعده في أعمال التجسس.

ووفقًا لبعض التقارير لم تكن فالنزواد إلا عميلة للمخابرات الألمانية الغربية تم إرسالها لتساعده في إطار التعاون بين جهازي المخابرات في البلدين.

وفى القاهرة استمر لوتز وفالنزواد إلى جانبه في لعب دور رجل الأعمال الغني العاشق للخيول وركوبها، وافتتح مزرعة خيول وناديًا لركوب الخيل خاصًّا به من الأموال التي تلقاها من الموساد، وسرعان ما كون شبكة من العلاقات الاجتماعية مع صفوة المجتمع في مصر، واعتاد على إقامة الحفلات والمآدب في مزرعته ودعوة رجال الجيش والشرطة والعديد من المسؤولين

الحكوميين ويظهر أمامهم في صورة المعادي للسامية الكاره لليهود والإسرائيليين، وبين الحين والآخر كان يسافر إلى أوربا لمقابلة قادته وتقديم التقارير وتلقي التعليمات.

وكان لوتز يقوم يوميًا تقريبًا بالاتصال بإسرائيل عن طريق الموساد، ويجمع المعلومات حول صناعة السلاح في مصر وعلى الأخص صناعة الصواريخ التي تم تطويرها في ذلك الوقت بمساعدة العلماء الألمان، بالإضافة إلى ذلك نجح لوتز في الحصول على قائمة بأسماء وعناوين الخبراء الألمان في مصر وإرسالها إلى قادته، وفى سبتمبر 1964 أرسل طرودًا ناسفة لهؤلاء الخبراء مما أدى إلى إصابة بعضهم.

وتصادف أن قام عبد الناصر في عام 1965 بدعوة رئيس ألمانيا الشرقية «فالتر أولبريخت» لزيارة مصر، وكان الألمان الشرقيون والسوفييت في ذلك الوقت مستهدفين من قبل المخابرات الألمانية في مصر، ولذلك قرر عبد الناصر بمناسبة الزيارة إلقاء القبض على ما يقرب من 30 من المواطنين الألمان الغربيين

المتواجدين في مصر في إطار عملية وقائية، وكان من بين المقبوض عليهم فولفجانج وفالنزاود لوتز ووالداها اللذان قدما في ذلك الوقت إلى القاهرة لزيارة ابنتهما، وكانت النية تتجه إلى إطلاق سراحهم جميعًا بمجرد انتهاء زيارة الرئيس الألمانى الشرقي، لكن لوتز اعتقد أن القبض عليه جاء بسبب كشف نشاطه التجسسي فخاف على مصير فالنزواد ووالديها، وقرر أن يتعاون مع المحققين المصريين وإقناعهم بأنه مواطن ألماني تم إغواؤه بالتجسس لصالح إسرائيل مقابل المال وتحت الضغط وأن زوجته لا علم لها بالموضوع.

فوجئ المحققون بصراحة لوتز واستعداده للتعاون معهم وتظاهروا بتصديق روايته، وأطلقوا سراح والدي فالنزواد بعد ما اتضح لهم ألا علاقة لهما بالنشاط التجسسي، لكنهم لم يقتنعوا بعدم تورط الزوجة فالنزواد نفسها، وعلى أية حال استمر لوتز في إمداد محققيه بالمعلومات بالتكنيك الذي تدرب عليه وهو خلط أجزاء من الحقيقة بأجزاء مختلفة، ولكي يكمل

العرض وافق على الظهور في التلفزيون وتوجيه رسالة إلى إخوانه الألمان يحذرهم فيها من الوقوع في شباك المخابرات الإسرائيلية.

كانت روايته مقنعة إلى حد كبير إلى أن وصلت إلى المحققين رسالة من ألمانيا تناقض كل ما يقوله وتستعرض سيرة حياته الحقيقية، فقد قام أحد المحامين الألمان الموكلين بالدفاع عن ضحايا خطابات التهديد والطرود الناسفة من الخبراء الألمان بإمداد المحققين المصريين بتفاصيل البحث الذي أجراه في ألمانيا عن فولفجانج لوتز، وأظهر أن أمه يهودية وأنه هاجر معها إلى فلسطين في الثلاثينيات وخدم كضابط في الجيش الإسرائيلي، لكن لوتز أصر على روايته وادعى بأن كل هذا لا أساس له من الصحة.

المهم أن الزوجين لوتز قدما إلى محكمة أمن الدولة، وقام الموساد من ناحية أخرى بجذب الخيوط سرًّا في ألمانيا، ونجح في توكيل محامٍ ألماني للدفاع عن لوتز مع قصة الغطاء، وحرص أيضًا على وجود مراقب ألماني في المحكمة.

وحتى عند مثولهما أمام المحكمة أصر الزوجان لوتز على قصة الغطاء فادعت فالنزاود أنها كانت تعتقد أن زوجها عميل مخابرات لصالح الناتو، وتمسك لوتز بروايته وأنه مواطن ألماني عمل لصالح إسرائيل من أجل المال.

وفى 21 أغسطس 1965 صدر الحكم على لوتز بالأشغال الشاقة المؤبدة، وعلى زوجته بالسجن لمدة ثلاث سنوات، وفى السجن تعرف لوتز بسجناء فضيحة لافون (روبرت داسا وفيكتور ليفي وفيليب نتانزون) وتصادق معهم، في البداية لم يكشف لهم عن هويته الحقيقية لكن بمرور الوقت قدم نفسه إليهم كإسرائيلي، وسُمح له بين الحين والآخر بمقابلة زوجته التي كانت تقضي فترة العقوبة في سجن النساء بالقناطر مع مارسيل نينيو المحكوم عليها أيضًا في فضيحة لافون.

وبعدما يقرب من العامين ونصف العام في السجن تم إطلاق سراح الزوجين لوتز في إطار صفقة تبادل الأسرى في خريف 1968 بعد عدة أشهر من حرب

يونيو 1967 وفى نفس الصفقة أيضًا تم إطلاق سراح سجناء فضيحة لافون. واستقل جميعهم الطائرة إلى أوربا في 12 فبراير 1969 ومن هناك واصلوا رحلتهم إلى إسرائيل.

أقام الزوجان لوتز في مستعمرة زراعية تسمى «جانوت» وهناك أنشأ لوتز أو زئيف جور أريه مزرعة خيول، وفى تلك الفترة ألف كتابًا وأكثر من لقاءاته مع أجهزة الإعلام وأخذ يحكي عن مغامراته الوهمية في مصر، لكنه لم يجد من يسمعه، ووجد صعوبة في ايجاد مكان له في الحياة الروتينية التي يعيشها المجتمع الإسرائيلي.

وفى يونيو 1973 توفيت فالنزواد بالسكتة الدماغية ووجد لوتز صعوبة بالغة بعد فقدها فتزوج للمرة الثالثة وغادر إسرائيل مع زوجته ليستقر به المقام في ألمانيا، وهناك عمل بائعًا في أحد المحلات إلى أن تم فصله، فطلق زوجته الثالثة وتزوج برابعة وخامسة إلى أن مات في ألمانيا عام 1993 عن عمر يناهز الـ

72 عامًا وبعد موته تم نقل جثمانه لكي يدفن في إسرائيل.

30

علي الجراح..

جاسوس الموساد في لبنان



في أوائل شهر أكتوبر عام 2008 سقط علي الجرّاح في قبضة مديرية الاستخبارات في الجيش اللبناني بتهمة التجسس لصالح العدو «الإسرائيلي».

وقد تقمص الجراح شخصية مزدوجة طوال أحد عشر عامًا، وقام بتنفيذ جرائمه متخفيًا بين منزله الفخم في بلدته المرج، في غرب سهل البقاع، وبين منزله السري المتواضع، المستأجر الواقع خلف مخفر الدرك، في منطقة المصنع، عند نقطة الحدود اللبنانية السورية.

البحبوحة التي كانت تميّز حياة الجراح بين أهل بلدته، لم يكن لها أثر في محيط مسكنه السرّي الثاني الذي وضع فيه زوجته الثانية الفلسطينية نعمت عويّد، وجعلها تعيش بين الفقر والعوز. كما استأجر الجاسوس الموقوف شقة ثالثة في منطقة بعبدا، في جبل لبنان، قرب العاصمة بيروت، واعترف في التحقيقات أنها لم تكن لأغراض أعماله التخريبية، بل للتسلية واللهو مع أصحاب وعشيقات.

كان علي الجراح كثير السفر بحجة القيام بأعمال التجارة أو السياحة. لكنه في الحقيقة، كان يسافر من لبنان نحو بلدان أجنبية كثيرة كمحطة أو محطات أولية، ومن هناك يتولى عملاء جهاز «موساد» نقله إلى «إسرائيل». واعترف هذا الجاسوس في التحقيق أن مُشغّله في «موساد» كان يتصل به عبر الهاتف، بصورة عادية، وكان يدعوه بين وقت وآخر للسفر إلى الأردن أو مصر أو تركيا أو اليونان أو قبرص أو إيطاليا.

في هذه الدول العربية والأجنبية، كان بانتظار علي الجراح ضابط «إسرائيلي» يزوّده بجواز سفر «إسرائيلي»، ثم يرافقه إلى مدينة تل أبيب في فلسطين المحتلة. وهناك كان الجراح يمضي وقتًا غير طويل، يومًا أو يومين أو أكثر بقليل، ليعود بعدها إلى الدولة المحطة التي سافر منها. خصوصًا وأن حجزه في الفندق يبقى مستمرًا، وتُدفع الفواتير من حساب السفر الذي كان «الإسرائيليون» قد خصصوه له، كما كان يتلقى راتبًا شهريًّا من الاستخبارات «الإسرائيلية» بلغ ما بين ستة وسبعة آلاف دولار أمريكي.

خلال سفراته إلى «إسرائيل» كان الجراح يلتقي بعملاء «موساد»، الذين تولوا إجراء دورات تدريبية له، لكي يتمكن من استعمال أجهزة تنصت وتصوير وإرسال مواد واتصال متطورة، كما يُزوَّد ببعض تقنيات وأجهزة الاتصالات.

وخلال التحقيق معه أنكر هذا الجاسوس أن يكون قد انتقل إلى الأراضي الفلسطينية المحتلة عبر حدود لبنان الجنوبية، كما أنكر أيضًا أن يكون قد انتقل بحرًا إلى فلسطين المحتلة، على غرار ما كان يجري مع العميل الموقوف محمود رافع، ومع العميل الفارّ حسين خطاب، اللذين نفذا عمليات تخريبية كبيرة، من بينها استطلاع تحركات القائد الفلسطيني الشهيد جهاد جبريل، قبل أن تعمد «موساد» إلى اغتياله. وقد ألقي القبض على هذين الجاسوسين، عقب اغتيال قائدين لبنانيين يعملان في صفوف المقاومة الفلسطينية، إذ تم تفجير سيارتهما في مدينة صيدا جنوب لبنان، في يونيو عام 2006.

مصادر التحقيق قالت إن الجاسوس اللبناني الموقوف علي الجراح، قد سافر إلى الأردن بعد فترة قصيرة على توقيف العميل محمود رافع عام 2006. وقد مكث شهرًا بكامله في الأردن من دون معرفة المكان الذي نزل فيه. كما غاب عن «السمع» طوال فترة رحلته إلى الأردن، من دون أيّ علم عنه سوى اتصالات متقطعة بزوجته في المرج، وبأخيه يوسف الذي اعتقل أيضًا بتهمة التجسس للعدو «الإسرائيلي». بعد عودته إلى لبنان ادّعى الجراح أنه كان يعالج في الأردن من مرض في... معدته.

ازدادت زيارات جاسوس «الموساد» إلى دمشق، بعد رجوعه من الأردن عام 2006. أصبحت زيارات أسبوعية. كان الجراح يمضي في كل زيارة يومين أو ثلاثة أيام، متنقّلًا في أرجاء مختلفة من العاصمة السورية، بحجة أنه ينتظر وفودًا دولية إنسانية، ستأتي معه إلى لبنان لمساعدة جمعية صحية أو طبية يترأسها، كستار إضافي لعمله الأمني المعادي.

في هذه الأثناء، أي بعد انتهاء غيابه السري في الأردن، باع الجراح سيارته وهي من طراز مرسيدس 280 زيتية، موديل عام 78، واشترى سيارة هوندا أكورد استعملها في التنقل داخل الأراضي اللبنانية، كما اشترى سيارة باجيرو رباعية الدفع.

عندما أوقفته استخبارات الجيش اللبناني، صادرت هذه السيارة، ليتبين أنها غنيمة حرب كبرى حصل عليها لبنان من جهاز «الموساد» الإسرائيلي. فقد ضبط رجال الاستخبارات اللبنانيون في هذه «الباجيرو» كاميرا مراقبة متطورة جدًّا، كان الإسرائيليون قد زوّدوا عميلهم علي الجراح بها، ليقوم بالمراقبة والتصوير للأهداف المطلوبة. وقد نجح علي في إخفاء طبيعة هذه الكاميرا، عن أحد الفنيين من معارفه، الذي ركبها له في سيارة الباجيرو.

وقد كلف «الموساد» الإسرائيلي علي الجراح بإجراء مسح بواسطة الكاميرا المثبتة في سيارته،لأماكن وطرقات كانوا يحددونها له في غير منطقة لبنانية وسورية. خلال سنوات العمل التجسسي «الطويلة»

التي أمضاها الجراح في خدمة العدو الصهيوني، تمكن بحسب اعترافاته من إجراء مسح شبه كامل لمنطقة سهل البقاع المتاخمة لسوريا، كما مسح بكاميرته السيارة أحياء الضاحية الجنوبية لبيروت، ناهيك عن بعض المخيمات الفلسطينية.

جرائم التجسس التي ارتكبها الجراح في سوريا، تمت بطلب «إسرائيلي» مفصل. شملت هذه الجرائم مسح معظم أحياء مدينة دمشق، وبينها منطقة كفرسوسة التي اغتيل فيها الشهيد عماد مغنية القائد في المقاومة الوطنية اللبنانية وفي حزب الله. إضافة إلى مسح مدن طرطوس وحماه وحمص وحلب وغيرها من المناطق والمدن السورية الرئيسية.

لم تؤكد مصادر التحقيق وجود رابط مباشر بين تجسس علي الجراح في كفرسوسة واغتيال الشهيد مغنية، وكذلك بالنسبة إلى حادث اغتيال العميد محمد سليمان في مدينة طرطوس السورية الساحلية. لكن هذه المصادر قالت إن هذا الجاسوس قد باح لزوجته نعمت، بعد اغتيال القائد عماد مغنية، بأن هناك جهة ما

تراقبه، ثم أقنعها بأن ذلك قد يكون تمهيدًا لسلبه سيارته الباجيرو. وبهذه الذريعة، صار نادرًا ما يتردد بالباجيرو على سوريا، مفضّلًا استخدام سيارة الهوندا.

كان الجراح، يفرغ ما تسجّله الكاميرا على كمبيوتر خاص. بعد ذلك، يرسل المعلومات المصورة بواسطة جهاز زوّده به الإسرائيليون. وقد عثرت استخبارات الجيش اللبناني على جزء كبير من هذه المعلومات التجسسية، وتظهر فيها الأهداف التي كان قد صوّرها الجراح في أماكن كثيرة، ونقلها إلى «الموساد»، وبالطبع، إلى بقية الأجهزة الأمنية «الإسرائيلية».

تقول مصادر التحقيق إن الجراح كان مزوّدًا بأدوات وتقنيات لتشغيل الكاميرات التي يستعملها في استطلاع ورصد الأهداف التي يحددها العدو، ولتمكينه من نقل كافة الصور مباشرة إلى المشغل «الإسرائيلي». لا يعرف المحققون في استخبارات الجيش اللبناني بعد، كيف كان يتم هذا البث الحي للصور التجسسية، وبأي وسيلة. عبر قمر اصطناعي، أم

من خلال طائرات الاستطلاع التي تجوب الأجواء اللبنانية؟

ويقول مصدر متابع للتحقيق، إن ثمة تخمينات بأن ضباط «موساد» قد جهزوا بأنفسهم، شقة الجراح السرية، في منطقة المصنع عند المعبر الحدودي الرئيسي إلى سوريا، وكذلك فعلوا في منزله العلني في بلدته البقاعية: المرج. حيث لاحظ محققو الجيش اللبناني، أن كلا المنزلين قد زود بتمديدات وتجهيزات تقنية غير عادية.

فقد تميز المنزل السري في المصنع باحتوائه على أجهزة رقمية متطورة في مجال الاتصال والتصوير والتشفير، إضافة إلى جهاز كمبيوتر وأقراص مضغوطة ومدمجة. وقد صادرها الجيش اللبناني، كما صادر من على سطح منزل الجراح السري في المصنع كاميرا للمراقبة، كانت موجهة صوب مبنى الأمن العام ومبنى الجمارك اللبنانيين، لرصد وتصوير كل حركة العبور ما بين لبنان وسوريا.

وتقول مصادر التحقيق أن «الموساد» كان قد جنّد علي الجراح وأخاه يوسف في عام 1982. وهما يعملان معا، منذ ذلك الحين. ولذلك، فإن التحقيق معهما يدخل في ملفات دقيقة ومتشعبة، تتعلق بدور «شبكة» الجراح في جمع معلومات عن منظمات المقاومة الوطنية اللبنانية، وعن بعض المنظمات الفلسطينية، ودورها في العمل المقاوم للعدو الصهيوني داخل الأراضي الفلسطينية المحتلة أو في لبنان وسوريا عمومًا. كما تطال التحقيقات دور هذه الشبكة التخريبية في استطلاع أهداف حيوية خلال حرب تموز «يوليو» 2006، لكي تتولى قوات الجيش «الإسرائيلي» قصفها جوًّا وبرًّا وبحرًا.

وتضيف المعلومات غير الرسمية أن الجراح نجح في تضليل الاستخبارات السورية ومن خلفها أجهزة الأمن التابعة للتنظيمات الفلسطينية التي تعرّضت مواقعها لعشرات الغارات الجوية «الإسرائيلية» في سهل البقاع ابتداءً من عام 1983 حتى عدوان يوليو 2006م،

أودى بحياة العشرات من الفدائيين داخل بعض هذه المواقع التي كانت تعتبر نسبيًّا مراكز عسكرية سرية.

يعتبر سقوط علي الجراح من أكبر الضربات الأمنية لمكافحة أنشطة «موساد» التخريبية في لبنان. ويتندر بعض أبناء المنطقة بالقول، إن الطائرات «الإسرائيلية» المعادية دمّرت معظم الجسور والعبّارات على طرق بلدات البقاع الأوسط، لكنها أبقت على جسر واحد فقط، يربط طريق منزل الجاسوس الجراح في بلدته المرج، مباشرة بالطريق الدولية بيروت دمشق، لإتاحة المجال لهذا الجاسوس الخطير للتحرك خلال الحرب وتنفيذ جرائمه الأمنية المهلكة.

لكن استخبارات الجيش اللبناني كانت بالمرصاد هذه المرة، فقامت، وإلى الأبد، بمنع مرور جاسوس «الموساد» فوق هذا الجسر.

31

جمعة الشوان..

دموع في عيون وقحة



هو أحمد محمد عبد الرحمن الهوان وشهرته جمعة الشوّان، العميل المزدوج لجهاز المخابرات العامة المصرية بعد نكسة 1967.

ويعتبر الشوان من أهم العملاء الذين شهدهم صراع المخابرات المصري الإسرائيلي، وهو الذي برز دوره من خلال مسلسل «دموع في عيون وقحة» من إنتاج التلفزيون المصري ومن بطولة النجم عادل إمام.

ولد وتربى ونشأ بمدينة السويس والتي اضطر إلى الهجرة منها هو وعائلته أمه وأخوه وزوجته بعد نكسة يونيو 1967 وهناك فقدت زوجته نظرها نتيجة للقصف الإسرائيلي وتدمير لنش صغير ملك للشوان.

وقد حاول العمل في القاهرة في السوق السوداء عن طريق بيع المواد التموينية والتي كان محظورًا التجارة فيها لظروف البلد الاقتصادية السيئة، حتى انغلقت كل الأبواب في وجهه فاضطر إلى السفر إلى اليونان لمقابلة رجل أعمال هناك ذكر في المسلسل

باسم باندانيدس، وهو يملك العديد من سفن الشحن ويدين للهوان بنحو 2000 جنيه، ولكنه لم يكن موجودًا في اليونان كخطة من الموساد كي يعاني الهوان ويوافق على أي شيء. وفي اليونان قابل الهوان الريس زكريا (هو اللواء عبد السلام المحجوب محافظ الإسكندرية الأسبق) بالمخابرات العامة وحاول إقناعه بالعودة ولكن الهوان لم يستمع له. وبعد مرور الوقت قرر الهوان العودة إلى مصر لولا أنه عرف أن باندانيدس قد عاد وذهب لزيارته وهناك قام باندانيدس بإعطائه عملًا على إحدى سفنه والذاهبة إلى بريستون بإنجلترا.

وهناك تعرف على جوجو الفتاة اليهودية والتي أحبها وأغرته للعمل معها، وطبعًا كان ذلك تخطيطًا من الموساد، بعد سفر السفينة التي كان يعمل عليها لم يكن أمامه سوى العمل بالشركة التي يملكها والد جوجو، وبها قابله أحد رجال الموساد على أنه سوري واسمه أبو داود (في الحقيقة شمعون بيريز رئيس إسرائيل ورئيس وزرائها فيما بعد) يعمل بالشركة

وطلب منه أن يعود إلى مصر ويجمع بعض المعلومات عن السفن الموجودة بالقناة.

وعندما عاد الشوان إلى مصر قام بفتح محل بقالة لبيع المواد الغذائية وأخذ يجمع المعلومات التي طلبت منه، ولكن الشك في قلبه أخذ في التزايد فذهب إلى مقر المخابرات العامة المصرية وهناك التقى بالضابط عبد السلام المحجوب والذي عرفه بالريس زكريا وحكى له بكل ما لاقاه، وهنا قرر التعاون مع المخابرات المصرية لتلقين الموساد درسًا.

وبدأ تعاون الهوان مع الإسرائيليين ومعرفة ما يريدونه وإخبارهم بما يريده المصريون مما جعله جاسوسًا هامًّا بالنسبة للإسرائيليين، وبعد حرب أكتوبر المجيدة زادت حاجتهم إلى الهوان وسرعة إرسال المعلومات ولذلك قرروا إعطاءه أحدث أجهزة الإرسال في العالم، والذي كان أحدها بالفعل موجودًا بمصر ولم تستطع المخابرات في القبض على حامله، وهنا قرر الهوان الذهاب إلى إسرائيل للحصول على الجهاز وهناك قاموا بعرضه على جهاز كشف الكذب والذي

تدرب عليه جيدًا مما جعله ينجح في خداعهم جميعًا ليحصل على أصغر جهاز إرسال تم اختراعه في ذلك الوقت ليكون جاسوسًا دائمًا في مصر. بمجرد وصوله إلى أرض مصر وفي الميعاد المحدد للإرسال قام بإرسال رسالة موجهة من المخابرات المصرية إلى الموساد يشكرهم فيها على الحصول على جهاز الإرسال. وهنا انتهت مهمة أحمد الهوان.

وقد قام الموساد بمحاولة القضاء على جوجو التي وقعت في حب الهوان بجرعة زائدة من المخدرات، ولكنها لم تمت، ومن هنا قررت الانتقام فساعدت المخابرات المصرية على تأمين الهوان بإسرائيل والاتصال به في الوقت المناسب. وقد أتت جوجو لمصر وأسلمت وسمت نفسها فاطمة، وقامت المخابرات المصرية بتمويل عملية زوجة الهوان في مصر على يد طبيب أجنبي متخصص كان في زيارة لمصر للقيام بعدد من العمليات الجراحية، وقد نجحت العملية يوم العبور الكبير في السادس من أكتوبر عام 1973 وقد عاش الهوان في منطقة المهندسين

بالقاهرة وبالتحديد في شارع الرشيد المتفرع من شارع أحمد عرابي.

وتوفي أحمد الهوان في أول نوفمبر 2011 بالقاهرة عن عمر يناهز 72 عامًا بعد صراع طويل مع المرض.



32

خميس بيومي..

جاسوس الموساد القاتل!

ن جاسوس الموساد خميس أحمد بيومي جاسوسًا بلا قلب، منزوع المشاعر، وحشيًّا في إجرامه، دربته إسرائيل لتنفيذ سياستها التخريبية في لبنان، والضرب بلا رحمة في الصميم.

ولد خميس بيومي لأسرة لبنانية ثرية، والده كان مقاولًا كبيرًا، وفي هذا الثراء عاش خميس مدلَّلًا، مرفهًا، منعمًا، يعشق اللهو والسهر ومطاردة النساء.

وعندما مات والده فجأة في حادث سيارة، اكتشف أنه كان مدينًا بأموال طائلة للبنوك، التي حجزت على ما لديهم لاسترداد أموالها.

هكذا وجد نفسه العائل الوحيد لأمه ولإخوته الستة، وكان عليه، وهو الخاوي، أن ينبذ ماضيه ليعبر بهم

خضم الفقر، والعوز، والمعاناة.

فعمل كإخصائي للعلاج الطبيعي بأحد مراكز تأهيل المعوقين بصيدا، وبعد مرور أربع سنوات في العمل، فكر بالهجرة إلى كندا وبذل جهدًا مضنيًا لكن محاولاته فشلت فأصبح محبطًا، وهنا سقط في مصيدة الموساد بلا مقاومة، وكانت قصة سقوطه سهلة للغاية، وجاءت بدون ترتيب أو تخطيط.

فذات صباح التقى بسيدة أرمينية مسنة، جاءت لتسأله عن إمكانية عمل علاج طبيعي لابنتها المعاقة بالمنزل، وأعطته العنوان لكي يزورها بعدما أطلعته على التقارير الصحية التي تشخص حالتها.

قرأ خميس في حديثها وملبسها علامات الثراء، فزار منزلها حيث كانت ترقد «جريس» بلا حركة، طفلة في التاسعة من عمرها بعينيها شعاعات الأسى والبراءة.

ولعدة أسابيع، داوم على زيارتها للعلاج إلى أن تصادف والتقى بخالها «كوبليان» تاجر المجوهرات ببيروت،

فتجاذبا معًا أطراف الحديث، وقص خميس حكايته مع الثراء وليالي بيروت، وصراعه المرير مع الفقر لينفق على أسرته، وسأله كوبليان سؤالًا واحدًا محددًا، عن مدى قدرته الإقدام على عمل صعب، بمقابل مادي كبير، فأكد خميس استعداده لعمل أي شيء في سبيل المال.

سافر كوبليان إلى بيروت وقد خلف وراءه صيدًا سهلًا، ضعيفًا، يأكله قلق انتظار استدعائه.. وما هي إلا أيام حتى فوجئ كوبليان بخميس جاء يسعى إليه في بيروت، يرجوه أن يمنحه الفرصة ليؤكد إخلاصه، فهو قد ضاق ذرعًا بالديون والحرمان ومتاعب الحياة.

رحب به عميل الموساد واحتفى به على طريقته، فقد أراد الشاب الحانق أن يجدد ذكرياته في حانات بيروت، ولم يكن الأمر سهلًا بالطبع فسرعان ما انجذب خميس لماضيه، وترسخت لديه فكرة العمل مع كوبليان كي لا يحرم من متع افتقدها.

كانت آلاف الليرات التي تنفق عليه في البارات دافعًا لأن تزيد من ضعفه وهشاشته، ونتيجة لحرمانه، ورغبته، لم يعارض مضيفه فيما عرضه عليه، وكان المطلوب منه حسب ما قاله، تهديد المصالح الأمريكية لموقفها مع إسرائيل ضد لبنان، وضدالعرب، ولما أنقده خمسة آلاف ليرة - دفعة أولى - قال له خميس إنه مع النقود ولو كان ضد لبنان نفسه.

وفي إحدى الشقق ببيروت، أقام خميس أحمد بيومي ينفق من أموال الموساد على ملذاته، وتعهد به ضابط مخابرات إسرائيلي ينتحل شخصية رجل أعمال برتغالي اسمه «روبرتو»، يجيد التحدث بالعربية، فدربه على كيفية تفخيخ المتفجرات وضبط ميقاتها، وكذلك التفجير عن بعد، وأساليب التخفي والتمويه وعدم إثارة الشبهات.

كانت عملية إعداد العبوات الناسفة من مادة (تي إن تي) شديدة الانفجار صعبة ومعقدة، تستلزم تدريبًا طويلًا، خاصة وخميس لم يسبق له الالتحاق بالجيش، ولا يملك أية خبرات عسكرية تختصر دروس التدريب.

وفي أولى عملياته التخريبية، صدرت إليه الأوامر بتفجير السفارة العراقية ببيروت.

سكت خميس ولم يعلق، فقد تحسس جيبه المتخم بالنقود، وحمل حقيبة المتفجرات بعدما ضبط ميقاتها، وتوجه إلى مبنى السفارة في هدوء وثقة، وغافل الجميع عندما خرج من المبنى بدون حقيبته التي تركها بالصالة الرئيسية خلف فازة ضخمة، ووقف عن بعد ينتظر اللحظة الحاسمة.

نصف الساعة وملأ الحي دوي الانفجار، وقتل تسعة بينهم خمسة لبنانيون، ولاهثًا خائفًا عاد إلى شقته، ولحق به روبرتو ليجده على هذه الحال، فيصفعه بعنف قائلًا إنه يعرض نفسه بذلك للخطر.

وقف خميس مكانه ساكنًا شاحبًا، بينما تنهال عليه كلمات اللوم والتقريع والسباب، ومعنى سكونه ما هو إلا خضوع والشعور بندم، فالسيطرة عليه كانت مطلوبة عنفًا ولينًا، ترهيبًا وترغيبًا، منحًا ومنعًا، فتلك أمور يجيدها خبراء السيطرة والالتفاف في أجهزة

المخابرات، وهم أدرى الناس بكيفية التعامل مع الخونة والجواسيس.

ذلك أنهم يخضعون تصرفاتهم وردود أفعالهم وفقًا لنظريات علمية مدروسة ومحسوبة بدقة، وليس لمجرد هوى في النفس.. فترويض الخونة في شبكات التخريب أمر بالغ التعقيد والصعوبة بمكان.

وعندما أذاع التلفزيون حادث التفجير، وملأت صور الضحايا والمصابين الشاشة، كان روبرتو يرقب خميس عن قرب، ويدرس تفاعلاته وانفعالاته، وكانت المسألة مجرد تدريب على وأد مشاعره، وقتل أية محاولة للرفض، أو التمرد، أو الندم.

كانت إسرائيل تقصد من تفجير السفارة العراقية ببيروت إشعال الشقاق بين الدولتين، وتأجيج الخلاف بينهما، فالعراق كان يسعى وبشدة لتقوية أواصر العلاقة بين لبنان، والاتحاد السوفييتي، ويؤيد لبنان في خطواته نحو الاتجاه إلى «الشرق»، وكانت

إسرائيل تقصد أيضًا توجيه الاتهام إلى المقاومة، مما يفقدها التأييد اللبناني والمساندة.

ونظرًا لظروفه السيئة.. أغدقت الأموال على خميس بيومي فكفر بعروبته، وتحول بعد مدة ليست بالطويلة إلى دموي يعشق القتل والدم، بل إنه استطاع تجنيد لبناني آخر اسمه «جميل القرح» كان يعمل مدرسًا وطرد من عمله لشذوذه مع تلاميذه الأطفال. فتصيده خميس وجره إلى نشاطه التخريبي، وبارك روبرتو انضمامه للشبكة، ولم يستغرق تدريبه هو الآخر وقتًا طويلًا، فلسابق خدمته في الجيش كان أكثر تفهمًا لخطوات التدريب.. وأعمته الموساد بالأموال أيضًا فغاص لأذنيه في التفجير والتخريب وقتل الأبرياء.

وفي التاسعة صباح الثلاثاء 10 ديسمبر 1974 بينما عدد كبير من موظفي مكتب منظمة التحرير بمنطقة كورنيش المزرعة، يقومون بأعمالهم اليومية الاعتيادية، هزهم انفجار قوي، تبين أنه حدث في الطابق الأول من المبنى حيث يوجد معرض «ذبيان وأيوب» للمفروشات. وعثر رجال الأمن على سيارة

فيات «132» بيضاء اللون تقف على الرصيف المواجه.. ووجدوا على سطحها قاعدة لإطلاق أربعة صواريخ (آر. بي. جي) بلجيكية الصنع عيار «3» بوصة ونصف، مركزة على لوح خشبي متصل بأسلاك كهربائية منها انطلقت الصواريخ.

ووسع رجال الأمن دائرة التفتيش، فعثروا على بعد 65 مترًا من السيارة الأولى، على سيارة ثانية فيات أيضًا.. وعلى سطحها صندوق خشبي آخر تخرج منه أسلاك كهربائية متصلة ببطارية السيارة.

أخليت مكاتب المنظمة وسكان البناية، وقبيل مجيء خبير المفرقعات، شوهد الصندوق الخشبي يفتح أتوماتيكيًّا لتنطلق منه ستة صواريخ (آر. بي. جي)، فتصيب مباشرة مكاتب المنظمة وتحطم واجهاتها ومحتوياتها.

في الوقت نفسه تقريبًا، تعرض مركز الأبحاث التابع لمنظمة التحرير، والكائن بالطابق الثاني من بناية الجكتور راجي نصر، في شارع كولومباني المتفرع من

شارع أنور السادات، لهجوم صاروخي مماثل، إذ انفجرت أربعة صواريخ دفعة واحدة، انطلقت من على سطح سيارة «أودي 180»، وعثر إلى جانبها على غليون خشبي، وأسفرت العملية عن تدمير القسم الأكبر من مكتبة المركز التي تضم أكثر من 15 ألف كتاب وإصابة العديد من المواطنين والسيارات.

وبعد مرور عدة دقائق من هذه الانفجارات، تعرض مكتب شؤون الأرض المحتلة في الدور الأول من بناية الإيمان لصاحبها جعيفل البنا، والكائنة بشارع كرم الزيتون إلى هجوم رابع مماثل بأربعة صواريخ.

لقد كان خميس أحمد بيومي ذا دور فعال في التفجيرات الأربعة، يشاركه جميل القرح وثلاثة جواسيس آخرون استطاع القرح تجنيدهم وضمهم إلى الشبكة الإرهابية، وكان أسلوب منصات صواريخ السيارات أسلوبًا جديدًا لم تعرفه بيروت من قبل، أو أية عاصمة عربية أخرى.

ولم يقف الأمر عند تفجير سفارة العراق ومكاتب المنظمات الفلسطينية، بل تعداه إلى ما هو أبعد بكثير، إذ طالت الانفجارات الكنائس والمساجد لإثارة الفتن بين الطوائف، وإظهار عجز رجال الأمن اللبناني عن اكتشاف الجناة، أو إحباط المؤامرات التي تحاك فوق الأرض اللبنانية.

ولأسباب كثيرة، أولها أن الأجهزة اللبنانية ترى أن التعاون مع أجهزة الأمن الفلسطينية أمر معيب ومسيء لسمعتها، وثانيها، أن الدولة اللبنانية لا تزال تفضل السياحة على الأمن، والسبب الثالث، التأرجح ما بين دولة المساندة ودولة المواجهة، لتلك الأسباب، كانت شبكة خميس بيومي والعديد من الشبكات التخريبية الأخرى، تعمل في لبنان بحرية مطلقة، وينسل أفرادها من بين رجال الأمن كالرمال الناعمة.

هكذا أوقعت شبكات التخريب لبنان في مستنقع عميق، وتأزمت العلاقة مع الفلسطينيين بسبب اللامبالاة اللبنانية في مطاردة العملاء ومحاكمتهم.

وحدث أن ألقت قوات الأمن الفلسطينية القبض على بلجيكي قبل أيام من التفجيرات، بعدما تأكد لديها أنه جاسوس إسرائيلي، وأثناء التحقيق معه قامت القيامة، واشتد الضغط اللبناني لإطلاق سراحه، فسلموه للسلطات الأمنية مع ملف يحتوي اعترافاته، ليطلقوا سراحه بعد 24 ساعة.

أما الذين سمح للفلسطينيين بالتحقيق معهم، فقد اعترفوا اعترافات كاملة بأنهم عملاء للموساد، وثار الشيخ بهيج تقي الدين وزير الداخلية اللبناني للملاحقة الفلسطينية الدؤوبة للجواسيس الأجانب، واشتدت الأزمة واستحكمت حلقاتها بعد موجة التفجيرات التي هزت لبنان كله، لدرجة توجيه نداء في الصحف يوم الجمعة 27 ديسمبر 1974 للذين يزرعون القنابل والصواريخ، أن يعلنوا «الهدنة» لمدة 48 ساعة تبدأ قبل رأس السنة بيوم واحد، تمامًا كما حدث في بريطانيا من قبل مع ثوار إيرلندا، وكتبت الصحف في لبنان أنه: أمام عجز الدولة عن إلقاء القبض على أي متهم بزرع القنابل، لا مفر لديها من أن

تلجأ إلى عاطفته الإنسانية، و«ترجوه» أن يتوقف ليومين أما إذا لم يستجب زارعو القنابل لرجاء الحكومة، فلا مانع من إعلان بيروت مدينة مفتوحة لمدة يومين، وليتحمل زارعو القنابل مسؤوليتهم أمام الضمير الإنساني، والتاريخ!!!»

وفي التاسع من يناير 1975، وبينما الندف الثلجية البيضاء تتطاير في الهواء، ثم تتهادى كالرذاذ لتستقر فوق الأرض، وعلى أسطح المنازل وأغصان الشجر، ألقى رجال الأمن الفلسطينيون القبض على خميس بيومي بشارع كورنيش المزرعة، عندما كان يرسم لوحة كروكية لأحد مباني المنظمة الفلسطينية.

وأثناء التحقيق معه استخدم كل أساليب المراوغة والدهاء.. واحتاط لعدة أيام كي لا يقع في المحظور، لكن الاستجواب المطول معه أصاب مقاومته في الصميم، وتلاشت رويدًا رويدًا خطط دفاعاته وهم يلوحون له باستخدام طرق التعذيب معه لانتزاع الحقيقة.. وبوعد منهم بعدم إيذائه اعترف بكل شيء، فألقى القبض على جميل القرح الذي مات بالسكتة

القلبية قبلما يعترف بأسماء أعوانه الثلاثة الآخرين، هكذا كتبت لهم النجاة حيث لا يعرف خميس إلا أسماءهم الحركية، أما روبرتو فقد اختفى ولم يقبض عليه أبدًا، وتسلمت السلطة اللبنانية خميس بيومي وقدمته للمحاكمة وعوقب بعشر سنوات في السجن!!»

33

الحنان تننباوم..

السقوط في قبضة حزب اللّه!



في إبريل عام 2000، وقبل الانسحاب الإسرائيلي من جنوب لبنان، قال الأمين العام لحزب اللّه اللبناني

حسن نصر الله فيما بدا عهدًا يقطعه الحزب على نفسه: «نحن قوم لا نترك أسرانا ومعتقلينا في سجون إسرائيل، وسنفعل أي شيء لإطلاقهم».

وفي نوفمبر 2000، فاجأ رجال المقاومة الإسرائيليين بعمليـة نوعية في مزارع شبعا اللبنانية المحتلة حيث تمكنوا فيها من أسر ثلاثة جنود.

وبعد أسبوع فاجأ نصر الله العالم بنبأ أسر ضابط كبير من جهاز الاستخبارات الإسرائيلي «الموساد» هو العقيد الحنان تننباوم، لتوجه المقاومة اللبنانية ضربة قاصمة، تدفع حكومة إربيل شارون - رئيس الوزراء آنذاك - إلى الرضوخ لضغوط قيادة حزب الله، وموافقتها على تبادل الأسرى والمعتقلين في السجون الإسرائيلية، وبذلك تمت أشهر عملية تبادل، وعاد الأسرى والمعتقلون إلى ديارهم رغم أنف الصهاينة.

وجاء تنفيذ صفقة تبادل الأسرى بعد ثلاث سنوات وشهور من المفاوضات المضنية، وتم إجبار إسرائيل على الأخذ بغالبية شروط ومطالب حزب الله، التي

شملت للمرة الأولى منذ عام 1991 إطلاق سراح فلسطينيين وعرب، ولم يقتصر على اللبنانيين، وذلك مقابل عودة الحنان تننباوم وجثث الجنود المخطوفين الثلاثة.

وهكذا شهد يوم الخميس 29 يناير 2004 أهم صفقة لتبادل الأسرى بين حزب الله وبين إسرائيل أشرف عليها الوسيط الألماني أرنسيت أورلاو، وفي مدينة فرانكفورت بألمانيا جرت عملية التسليم والتسلم الكبرى، حيث تسلم الإسرائيليون أحد رؤوس جهاز استخباراتهم الرهيب «الموساد» وهو العقيد الحنان تننباوم ومعه جثث الجنود الثلاثة عدي أفيطان وعمر سواعد وبيني أفراهام، الذين تم أسرهم عام 2000.

وبالمقابل، سلمت إسرائيل 435 معتقلًا عربيًّا أغلبهم فلسطينيون. كما سلمت جثث 59 مقاتلًا وجنديًّا لبنانيًّا، بالإضافة إلى معلومات عن 24 مفقودًا لبنانيًا آخرين، وقدمت خرائط لمناطق بجنوب لبنان كانت قد زرعت فيها ألغام خلال احتلالها للشريط الحدودي قبل أن تنسحب منه في مايو عام 2000.

كما تسلم لبنان 59 جثة ظلت مدفونة في مقبرة جسر بنات يعقوب (عميعاد حسب التسمية الإسرائيلية) من بينهم: 31 من الحزب الشيوعي، 5 من المقاومة المؤمنة، 5 من الحزب السوري القومي الاجتماعي، 2 من الجماعة الإسلامية، وبعض الشهداء الآخرين.

وذكر الشيخ حسن نصر الله -آنذاك- أن هناك مرحلة ثانية من صفقة تبادل الأسرى ستجري -فيما بعد- وستتركز على شخصيتين هما الأسير اللبناني سمير القنطار والطيار الإسرائيلي الأسير رون أراد.

وقد أصر حزب الله على أن تتجاوز هذه الصفقة الطابع اللبناني لتكون صفقة عربية ولذلك فقد شملت: 5 سوريين و3 مغاربة، و3 سودانيين، وليبيًّا، وشملت كذلك المستشرق الألماني ستيفين سميرك الذي كانت إسرائيل تتهمه بالعمل لحساب حزب الله.

وكان إصرار حزب الله علي عروبة الصفقة يؤكد عدم انعزال الحزب في الاتجاهين: اللبناني والمذهبي، فهو لم يحصر المطالبة بأسراه الـ23 ولا بالرفات الـ60 ولا

بكشف مصير الـ24 المفقودين وإنما ساوى بين اللبنانيين هؤلاء وبين الأربعمائة فلسطيني والخمسة سوريين والثلاثة مغاربة والثلاثة سودانيين والليبي الواحد.. وبذلك أظهر نوعًا من الشهامة كان عدم الأخذ بها سيشكل علامة سيئة في سجله المتخم بالتضحيات. كما أن هذه الشهامة المشار إليها شملت الإصرار على مساواة الأسير الألماني بالأسرى العرب وبذلك يكون موضع تقدير الرأي العام الألماني، إضافة إلى أنه من غير الجائز ومن غير اللائق أن تكون ألمانيا هي الوسيط وفرانكفورت هي الساحة التي سيتم التسلم والتسليم فيها، ولا يكون الأسير الألماني من ضمن الذين شملتهم الصفقة.

وذكر الشيخ حسن نصر الله -آنذاك- أن هناك مرحلة ثانية من صفقة تبادل الأسرى ستجري -فيما بعد- وستتركز على شخصيتين هما الأسير اللبناني سمير القنطار والطيار الإسرائيلي الأسير رون أراد، وأن سمير القنطار سيبقى موضوعًا هامًا في المستقبل، وإن لم تشمله المرحلة الأولى من الصفقة، وأنه سيكون العنصر

البارز في المرحلة الثانية، التي سيقدم فيها حزب الله معلومات عن الطيار الإسرائيلي رون أراد مقابل الإفراج عن القنطار.

وكان القنطار المولود عام 1962 قد نفذ عملية عرفت باسم عملية «نهاريا» في 22 إبريل 1979 مع ثلاثة من رفاقه في محاولة لاختطاف رهائن من الجيش الإسرائيلي لمبادلتهم بأسرى في السجون الإسرائيلية. وقد قتل في العملية اثنان هما عبد المجيد أصلان ومهنا المؤيد، فيما اعتقل سمير القنطار وأحمد الأبرص وأطلق سراح الأخير عام 1986. ومع أن القنطار مصاب بالربو فهو يتابع دراسته داخل السجون الإسرائيلية، وقد حكم عليه بالسجن لمدة 542 سنة.

أما رون أراد الذي يوصف عادة بأنه مربط الفرس، فقد أسقطت المقاومة اللبنانية في خريف عام 1987 طائرته قرب مدينة صيدا في جنوب لبنان، وبقي قيد أسر مصطفى الديراني العضو السابق في حركة أمل الشيعية، في منزله بالبقاع مدة عامين. وتذكر بعض التقارير أن عناصر من الحرس الثوري الإيراني

استلمته عام 1991، بعدما باعه لها الديراني مقابل مبلغ مليون دولار، وهو ما نفاه الديراني مرارا أثناء التحقيق معه. وقد تضاربت الأنباء عن مصير رون أراد منذ ذلك التاريخ، ونفى الشيخ حسن نصر الله الأمين العام لحزب الله وجوده في إيران أو في سوريا مما يرجح كونه في لبنان.

واعتبر الإسرائيليون -على اختلاف انتماءاتهم- الصفقة ثمنًا باهظًا اضطروا لدفعه، ويتمثل في قبول إطلاق سراح مئات الأسرى من الفلسطينيين، والتخلي عن ورقتي ضغط، ومساومة مهمتين للحصول على معلومات تتعلق بمصير الطيار الإسرائيلي المفقود رون أراد، واللتين يمثلهما إطلاق سراح الشيخ عبد الكريم عبيد ومصطفى الديراني.

كما اعتبر الإسرائيليون أن الصفقة انتصار جديد لحزب الله ولزعيمه حسن نصرالله. ورغم أن قرار الموافقة على الصفقة أقره 14 وزيرًا في حكومة شارون -آنذاك- فإن هناك ثلاثة وزراء عارضوه هم إبراهام بوراز وأفيجدور ليبرمان من حزب الاتحاد القومي

اليميني المتشدد، ونتان شارانكسي من حزب «إسرائيل بعليا».

وتم اعتقال الحنان تننباوم في اسرائيل، للتحقيق معه لمعرفة الأسرار، التي يمكن أن يكون قد قدمها لحزب الله أثناء أسره. وبعد إطلاق سراحه، بعد أن وقعت صفقة بينه وبين النيابة العامة في إسرائيل، تفتح الباب عمليًا أمام إطلاق سراحه وحصوله على عفو عام، وإغلاق ملفه حتى قبل أن يصل إلى المحكمة، راح يروي قصته لأول مرة.

ومع إتمام صفقة تبادل الأسرى بين حزب الله اللبناني وإسرائيل، أثيرت مجددًا قضية اختفاء المواطن الإسرائيلي سابقًا قيس عبيد من الطيبة بالمثلث والمتهم من قبل الأجهزة الأمنية الإسرائيلية بالانضمام إلى حزب الله. وتنسب المخابرات الإسرائيلية لقيس عبيد بأنه قام باستدراج الضابط الإسرائيلي الحنان تننباوم إلى الأراضي اللبنانية وتسليمه إلى حزب الله ليصبح ورقة مساومة بيد الحزب في المفاوضات بينه وبين إسرائيل.

ولا يزال اختفاء عبيد يشكل مصدر قلق للأجهزة الأمنية الإسرائيلية التي وصفته عبر وسائل الإعلام بأنه الذراع اليمنى لزعيم حزب الله الشيخ حسن نصر الله. وحسب التقارير الإسرائيلية فإن عبيد متواجد الآن في لبنان ويعمل لصالح حزب الله الذي أوكل إليه مهمة اختطاف إسرائيليين أو استدراجهم إلى لبنان.

وقد ولد قيس عبيد، - 30 عامًا - وترعرع في مدينة الطيبة داخل الخط الأخضر وعمل حتى مغادرته إسرائيل في تجارة المجوهرات، وهو حفيد عضو الكنيست عن حزب العمل في مطلع سنوات السبعينيات ذياب عبيد، أي أنه ترعرع في بيت «غير متطرف» كما كتبت بعض الصحف الإسرائيلية.

وكان تننباوم قد روى للمحققين، حال إطلاق سراحه، أنه وصل إلى لبنان بطريق الخداع، وذلك عندما أقنعه أحد رجالات حزب الله الذي يعرفه من قبل (قيس عبيد وهو من فلسطينيي 48)، بأن يصل إلى لبنان. ووعده بإعطائه معلومات عن الطيار الإسرائيلي الأسير، رون أراد، يستطيع بيعها للحكومة الإسرائيلية

بأموال طائلة، فوافق على ذلك، لكنه وجد نفسه في أسر حزب الله. وقال تننباوم إنه لم يفش أسرارًا عسكرية حساسة إلى حزب الله أو السوريين والإيرانيين.

لكن هذه الرواية لم تقنع المؤسسة الأمنية والعسكرية الإسرائيلية. وكان فيها من يشك في أن تننباوم لم يخطف، ولم يرغم على الوصول إلى لبنان. بل سافر من إسرائيل إلى بلجيكا ثم إلى الإمارات العربية، ولبنان بإرادته الحرة، وهو يعرف أن لديه ما يبيعه من معلومات بأموال طائلة، وأن الحديث عن خطفه لم يكن سوى تمثيلية نفذها بالاشتراك مع حزب الله، وإنه في الحقيقة أفشى بكل ما يعرفه من أسرار، بوصفه قائدًا كبيرًا لإحدى وحدات المدرعات في الشمال العاملة في مواجهة سورية والمقاومة اللبنانية. ثم أصبح جاسوسًا لصالح حزب الله وربما لصالح سورية وإيران. وأنه أمضى سنوات الأسر الثلاث مرفهًا، وأنه عاد إلى إسرائيل في إطار الصفقة مع حزب الله، ليواصل عمله التجسسي.

محققو المخابرات الإسرائيلية يخضعونه إلى جهاز كشف الكذب، فإذا تبين أنه صادق، ولم يخالف القانون إلى حد التجسس والخيانة، فإنه سيفرج عنه ويغلق ملفه، وتكتفي الدولة بالفترة التي أمضاها في أسر حزب الله (وتحسب له عقابًا في السجن) وفي المعتقل الحالي.

ومع ذلك، فقد عمل شارون، والمقربون منه في أجهزة المخابرات ومكتب المستشار القضائي للحكومة، على الإسراع في (لفلفة) الموضوع. وجاءت الترجمة العملية لهذا الموقف بتوقيع صفقة بين النيابة وتننباوم، هذا مضمونها:

* تننباوم يظل في معتقل مرفه (هو المنتجع الخاص برجال الشرطة على شاطئ البحر شمال تل أبيب)، في ظروف مريحة، حتى انتهاء التحقيق معه ولا ينقل إلى معتقل عادي.

* تننباوم يروي قصته الحقيقية مع حزب الله، منذ أن تلقى العرض من قيس عبيد، الفلسطيني الإسرائيلي

وحتى إطلاق سراحه، وهل بدأ التعاون هناك بينهما؟ وهل اقتصر التعاون على تجارة المخدرات ولعب القمار أم تعدى ذلك إلى تجارة السلاح؟

* تننباوم يوضح بالتفصيل ما هي الأقوال التي أدلى بها خلال التحقيق.

* تننباوم يروي كل هذه الأمور شفهيًا، ثم يبدأ بكتابتها بشكل مفصل.

* محققو المخابرات الإسرائيلية يخضعونه إلى جهاز كشف الكذب، فإذا تبين أنه صادق، ولم يخالف القانون إلى حد التجسس والخيانة، فإنه سيفرج عنه ويغلق ملفه، وتكتفي الدولة بالفترة التي أمضاها في أسر حزب الله (وتحسب له عقابًا في السجن) وفي المعتقل الحالي. أما إذا تبين أنه ارتكب تلك المخالفة الخطيرة، فإن الصفقة المذكورة ستلغى، وسينتقل إلى معتقل عادي، ويقدم إلى المحاكمة بالتهمة التي ترسو عليه من خلال التحقيق.

وصدقت توقعات المراقبين -آنذاك- من أن تكون هذه الصفقة مقدمة لدفن هذه القضية (ولفلفتها) وإنزالها بسرعة عن جدول البحث، خصوصًا في إسرائيل وفي العالم العربي. فقد تلاقت المصالح، الشخصية والعامة، لدى أصحاب القرار في الموضوع خصوصًا شارون، الذي كان يعتبر أكبر المتحمسين لإطلاق سراح تننباوم من أسر حزب الله، والمخابرات التي تعتبر المتضرر الأساس من النشر حول فشلها.

ولهذا، فإن خصوم شارون السياسيين كانوا يعارضون هذه الصفقة. ويعتبرونها عملية خداع للرأي العام في إسرائيل، ويطالبون باستكمال التحقيق بشكل طبيعي حتى تتضح الصورة.

أما رجال القانون، من الباحثين الأكاديميين بشكل خاص، فاعتبروا الصفقة، غير قانونية وغير أخلاقية، ومحاولة لتجيير القانون لمصالح خاصة عند شارون وقادة الجيش والمخابرات. وشكك هؤلاء في فعالية جهاز الكذب الذي سيعرض عليه تننباوم. ويرون أن النتيجة معروفة سلفًا، فهم يسعون (للفلفة) الموضوع

وطمسه بأي شكل، غير آبهين بالأبعاد القانونين والأمنية لذلك.

ونفى رئيس الحكومة - آنذاك - شارون أن يكون قد دفع الحكومة للمصادقة على صفقة الإفراج عن مئات السجناء الفلسطينيين وغيرهم، مقابل إعادة الحنان تننباوم وجثث الجنود الثلاثة من الجيش الإسرائيلي بتأثير اعتبارات خارجية وبضمنها علاقته الشخصية بعائلة تننباوم. وحسب ادعاءات شارون، ورغم علاقاته التجارية التي تمتد على ثلاثة عقود مع حمي تننباوم، وعلاقاته الدورية والمنتظمة مع هذه العائلة، فقد نفي وجود أي علاقة معها.

وقد أحدثت صفق التبادل بين إسرائيل وحزب الله جدلًا كبيرًا في الأوساط الإسرائيلية، واعتبرها كثير من المحللين بأنها بمثابة ضربة كبيرة وموجعة لإسرائيل، فيما اعتبرت انتصارًا كبيرًا لحزب الله و«أثبتت إسرائيل حيال حزب الله أنها لا تفهم أساسًا سوى لغة القوة.

ففي المفاوضات مع إسرائيل كما تبين، فإن الاختطاف والقتل هما وسيلة مجدية ونافعة»، بهذا التعليق وصف الصحفي الإسرائيلي سيفر بلوتسكر الأسلوب الأمثل للتعامل مع حكومته، واعتبر أن صفقة التبادل مع حزب الله كانت سيئة ومهينة. وعلى الرغم من ذلك، فقد كان لزامًا تنفيذها. وفي إسرائيل أثبتوا بأنهم لا يدفعون إلا مقابل ثمن حتى في موضوع الأسرى!!

أما جاكي خوجي فقد كتب في «معاريف»: «في هذه الصفقة وضع حزب الله المسدس في رقبة إسرائيل وانتصر، والعالم رأى وفهم مرة أخرى بأن الإسرائيليين لا يفهمون سوى لغة القوة».

وفي هذا الصدد اعتبر عضو البرلمان الإسرائيلي يولي إدلشتاين من حزب «ليكود» الحاكم أن هذه الصفقة مع «حزب الله» من شأنها أن تزيد من العمليات التي تستهدف أسر وقتل جنود ومستوطنين يهود وقال: «إن الثمن الباهظ واللامعقول الذي دفعته الحكومة الإسرائيلية سيفتح الشهية لتنفيذ عمليات اختطاف أخرى».

وأكدت صحيفة «يديعوت أحرونوت» الإسرائيلية أن «تننباوم» كان قبل خمسة أيام من أسره أحد الضباط المسؤولين عن أهم تدريب عسكري إسرائيلي خلال السنوات الماضية والمتعلق بالقتال ضد سوريا وحزب الله، وهو التدريب الذي يعتبر من أهم الأسرار العسكرية.

وقد عادت قصة ضابط الموساد الإسرائيلي الحنان تننباوم مرة أخرى للأضواء مع حرب حزب الله وإسرائيل صيف عام 2006.

فمن خلال تطورات الحرب، قدرت مصادر أمنية إسرائيلية أن الأسير الإسرائيلي السابق لدى حزب الله «الحنان تننباوم» قد سلم حزب الله معلومات سرية. وتساءلت تلك المصادر عن مدى خطورة المعلومات، وما إذا اقتصرت فقط على معلومات عسكرية عادية، أم من النوع الخطير جدًّا الذي ساعد الحزب في الحرب الأخيرة؟

وقالت مصادر في الاستخبارات الإسرائيلية إن حزب الله تصرف خلال الحرب الأخيرة كمن يعرف تفاصيل بعض الخطط والقدرات السرية الإسرائيلية، التي اطلع عليها تننباوم ضمن وظيفته السابقة في الجيش خاصة خطوات المعركة، التي خاضها الجيش ضد حزب الله والقدرة العالية، التي أظهرها الحزب في التعامل مع منصات إطلاق صواريخ الكاتيوشا.

أكدت صحيفة «يديعوت أحرونوت» أن تننباوم أمضى خلال التدريب المذكور الذي أطلق عليه اسم «ديري هتسفون» وقتًا طويلًا جدًّا في مقر القيادة العليا بالقرب من مدينة صفد، حيث كان مسؤولا عن إدارة قوة النيران بواسطة أجهزة غاية في التعقيد، وكان مسؤولًا عن تخطيط وتنفيذ أجزاء كبيرة من خطة التدريب.

وقال ضابط العمليات في المناورات والتدريب في الجيش الإسرائيلي، الذي كان مسؤولًا عن التدريب المذكور الجنرال موشيه كوهين: «لقد عملنا مع تننباوم على إعداد التدريب لمدة ثلاثة أشهر متواصلة، وكان

مشتركًا معنا في جميع مراحل وتفاصيل التدريب، واطلع على مسار العمليات ومستوى القدرات وجميع ما يتعلق بالتدريب، وحتى قدرات العدو المتوقعة وما نعرفه عن حزب الله، وهذه معلومات مصنفة تحت إطار سري للغاية، وحساسة جدًّا».

وقال كوهين في معرض رده على سؤال يتعلق بشعوره لو كان ضابطًا سوريًّا ووقع ملف التدريب بين يديه «سأكون في غاية السعادة ليس فقط في إطار ضابط التدريب وإنما على مستوى رئاسة الأركان السورية، وإذا كان العدو يعرف مثل هذه المعلومات، فأنا أستطيع أن أصنف الضرر المتأتي منها بأنه ضرر غير قابل للإصلاح، وحتى أسوأ من الضرر، الذي ألحقه فعنونو بأمن دولة إسرائيل».

وعن شعوره حال سماع نبأ أسر «تننباوم» قال ضابط التدريبات موشيه كوهن «لقد شعرت بالصدمة كمن تلقى ضربة قوية في بطنه وكان واضحًا لي أن المعلومات التي يعرفها لن تبقى ملكه وحده وليس لدى أدنى شك بأن تننباوم زود العدو بمعلومات تسببت

بضرر كبير للأمن الإسرائيلي مؤكدا بأنه لو كان مكان تنباوم وشعر بأنه لا يستطيع الحفاظ على تلك المعلومات لأقدم على الانتحار»!!

مصادر ومراجع

- كتاب «الموساد أفعى الإرهاب الإسرائيلية في العالم»- دنيس ايزنبرج.

- المرأة في إسرائيل - باسمة حامد - ديوان العرب -13مارس ٢٠٠٥.

- أشهر الجواسيس - برنامج غموض وأساطير - قناة المجد الوثائقية - يوليو 2008.

- العملاء ودروس التاريخ - وجدي أنور مردان - كتابات - 20 يوليو 2004.

- الجاسوس وفتاة الليل والوزير - سهير جبر - صحيفة الأخبار - 27 فبراير 2001.

- كتاب «مكافحة الحرب الباردة في منطقة ساخنة»- لاري دلفين.

- كتاب «أحجار على رقعة الشطرنج»- وليام جاي كار- ترجمة:سعيد جزائرلي-بيروت - 1988.

- كتاب الرجل ذو الوجوه الثلاثة - هانز أوتو مسنر - راينهارت للنشر -نيويورك - 1966.

- لماذا بكت جولدا مائير حزنًا على مصير الجاسوسة هبة سليم؟ - د. سمير محمود قديح - دنيا الوطن - 9 فبراير 2006.

- مذكرات أوليج جورديفسكي وكريستوفر أندرو - ترجمة وعرض عشتار بابلي - صحيفة «الزمان».

- تكريم بأثر رجعي للـ «كي جي بي» - صحيفة «المستقبل»- 18 نوفمبر 2007.

- كتاب سقوط عصر الجواسيس - طلعت المرصفي.

- التفاصيل الكاملة والحقيقية للجاسوسة أمينة المفتي بقلم:د. سمير محمود قديح - دنيا الوطن - 22 فبراير 2007.

- من ملفات الجاسوسية - نبيل نحاس ورحلة الموت الجميل - فريد الفالوجي.

- إليزابيث ثورب.. الجاسوسة التي لا تقاوم - د. سمير محمود قديح - دنيا الوطن.

- المرأة الجاسوسة.. لعبة العباءة والخنجـر - نهاد الحديثي.

- الجاسوسية والجواسيس - العميل فوق الحصان - حسين سراج.